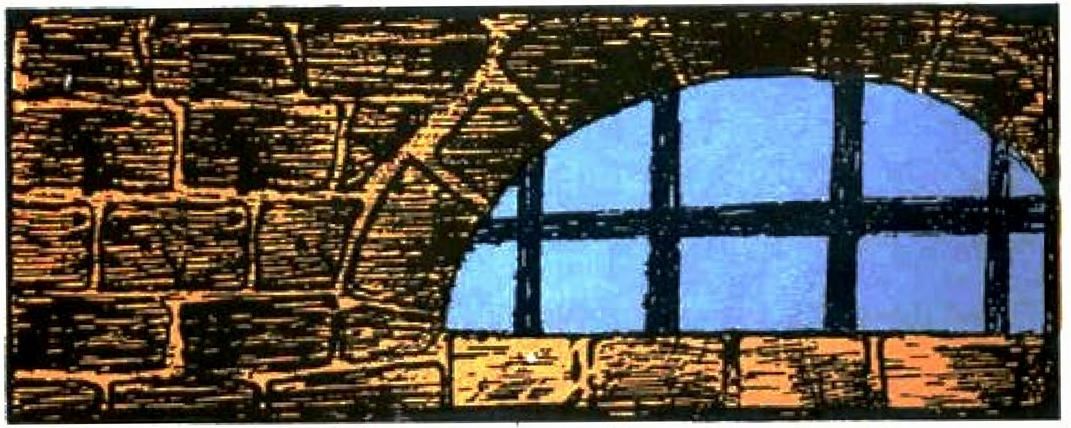
الحلم
والسجن والحصار
رحلة مناضل مصرى







عبد الخالق الشهاوى


منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET

الحلم والسجن والحصار

رحلة مناضل مصرى

عبد الخالق الشهاوى

العربى للنشر والتوزيع
٦٠ شارع القصر العينى (١١٤٥١) - القاهرة
ت : ٣٥٥٤٥٢٩ - ٥٩٤١٩٤٣ فاكس : ٣٥٤٧٥٦٦
E - Mail :alarabi 5 @ intouch . co m

الطبعة الأولى
١٩٩٩

الحلم والسجن والحصار
رحلة مناضل مصرى
الغلاف للفنان : مصطفى رمزى .
عدد الصفحات : ١٦٩ .

إهداء

إلى أبى وأخى أحمد وأسرتى وأهل قريتى .

وإلى زوجتى ليلى القيسى

أعطونى المساندة حين واجهت الرياح العاصفة

والأمان حين حين احتجت إليه ، ووهبونى بلا حدود

عاطفة خالصة نقية ، فعشت رغم الآلام والأوجاع

أواجه متماسكا ، وأسعى مرفوع الرأس

محاطا بحب نبيل ، وإخلاص غامر .

تـــــقــــــديــــــم

حملت نفسى فوق الطاقة حين أردت أن أتذكر تاريخاً ، بعضه شخصى يعود إلى ما يزيد عن الستين عاما ، وبعضه قريب إلى اليوم والأمس ، يتعلق بى وبآخرين شاركونى وشاركتهم المسيرة .

وكتبت ما استطعت إلى التذكر سبيلاً ثم عرضت ما كتبته على الأصدقاء : ما يتعلق بالأسرة والقرية عرضته على أخى **الأستاذ محمود** ، وعلى ابن العم الصديق **عماد الشهاوى** حتى لا تكون رؤيتى لما حدث فى القرية رأيا منفردا يخضع للتجاوز أو النسيان .

وفيما يتعلق بالمسيرة السياسية والرأى فى وقائع وأيام الحركة اليسارية والتنظيمات الشيوعية ، وأحداث السجون والمعتقلات ، فقد عرضته على أقرب الأصدقاء أثناء النضال والسجن وفيما بعد ، لإبداء الرأى وتصحيح ما يحتاج التصحيح باعتبار المسيرة المشتركة ، والقرابة الفكرية والتنظيمية ، والصداقة النابعة من الصدق القلبى ، ثم بالإضافة إلى هذه الاعتبارات المسئولية المشتركة بين الكاتب والناشر .

وبناء على ملاحظات الأصدقاء أعدت كتابة الموضوع مرة ومرتين ، وحذفت مما كتب ما يوازى ما بقى .

أولاً : رأى الأصدقاء أن أستبعد من الأسماء ما يمكن أن يحرف اتجاه الكتاب ليجعل منه مبارزه شخصية ، كما رأيت لنفس هذا السبب أن أركز فى حدود الرؤية الخاصة بلا تفريعات على مواقف الآخرين التى يجدها من شاء فى كتاباتهم.

ثانياً : خلال الكتابة الأولى كنت وجدت مكاناً لأحداث هامة ودالة . فمثلاً هناك كتاب فى الموضوع تجاهلوا أحداثا جساماً ، من نوع المؤامرة الخسيسة لليهود فى معتقل الواحات التى أثبتتها التحقيقات ، والتى شارك فى تحقيقها بعض الكتاب . وهذا التجاهل منهم لا يمكن تجاهله .

ثالثاً : هناك حادثة الهرب من سجن الواحات التى قام بها من المعتقل إلى الأقصر ففرنسا اليهودى ابراهيم هرارى ، تلك الواقعة ذات الدلالات الحادة يكتب عنها بعضهم دون إشارة إلى هوية الهارب اليهودى ، وكنت أعتقد أن مثل هذه الأحداث لصيق بما أقدمه من فكر يؤمن باستبعاد اليهود من التنظيم احتراماً لخصوصية النضال والفكر المصريين ، دون أى شبهة لتعصب عنصرى .

أخيراً : نحن فى حاجة إلى مزيد من استكشاف هذا النوع من اليسار المحاصر ، كسبيل لدرء مخاطر السلبية ، وكنوع من الإحياء لنموذج مصرى من التفكير والنضال اليسارى . سعياً للحرية والديموقراطية والعدالة الاجتماعية .

عبد الخالق الشهاوى

نوفمبر ١٩٩٨

الفصل الأول

نـــقـــابـــة لـلـــمـــلاك

تعلمت السياسة فى قريتى ومن خلال أسرتى .

مثل بقية قرى مصر ، قريتى على تل مرتفع ، تقبع عليه بيوت يغيطيها القش والحطب ، أما التل فيحميها من الفيضان حين يجئ هادرا فياضا لا تتحمل جسوره غضب أمواجه ، وأما التبن والحطب ، فهو الوقود لإنضاج الخبز والطعام ، وأداة الدفء فى ليالى الشتاء .

تل قريتى مشحون بالذكريات الدروب ، والحارات ، والناس . والأحداث على قدر ما يعيها طفل ولد أعقاب ثورة ١٩١٩ ، بالضبط عام ١٩٢٦ كانت ما تزال تدور أحاديث السلطة الانجليزية ، واصطياد الشباب كما تصاد الطيور للعمل فى السلطة ، والخدمة اللازمة للجيش البريطانى ، ثم تجئ بعدها أحداث الثورة وسعد زغلول ، وعدلى يكن ترق فى أذنى .

وآخرون من أهل القرية تشغلهم حكاية ريا وسكينة ، أو أدهم الشرقاوى وكيف هرب من السجن .. وأحداث محاكمته وإعدامه ، ولكن الشيخ المنشد فى حفل المولد النبوى ، والناس من حوله يتمايلون طربا ، ويدعونه للإعادة والزيارة كان مما يأخذ بألباب الطفل الذى يجلس فى أطراف الجمع يسمع .. أحيانا .. ويشرد أحيانا .. فإذا غالبه النوم تسلل إلى الدار حتى لا يسأله أحد الكبار من أين جاء ؟ .

وحين يأتى الصباح يستيقظ مثل الآخرين .. لا أحد ينام بعد أن تطلع الشمس ، ولا أحد يجلس بلا عمل .. كل حسب دوره ، وما يستطيع ، أحيانا يسحب الجاموسة إلى الحقل ، أو يجرى وراءها فى الساقية ، أو يسير وراء الحمار وهو يحمل السبخ إلى الأرض ، وحين يعود آخر اليوم ، يتفرج قبل المغرب على ألعاب الكبار ، أو يسمع حكاياتهم عن الانتخابات : السعدى والعدلى ، ومحاولة اغتيال سعد زغلول التى ظلت تحكى رغم فوات حينها ، ثم وفاته ، وأغانى الفلاحات فى الحقول .. بكائيات حزينه ،إنشاداً ينادى سعد الذى تصفه بانه "ذكر حمام طار من برجه وساب الزغاليل" وفى آخر كل مقطع ينادين عليه يا سعد : "واصيت علينا مين ؟" ويكررن النداء حزينا باكيا ومخلصا .

فى القرية بعد ذلك عدد من المتعلمين يقوم بالتدريس للأطفال فى مدرسة القرية الأولية ويسبغون على كل أهلها وصايتهم الفكرية ورؤيتهم السياسية .. بعضهم وفدى .. والآخرون مع العمدة حيث يولى وجهه . وكلا الفريقين تشغله النميمة ، والفضائح إلى جانب السياسة والتحزب .

ثم هناك **الشيخ على البدويهى** الذى يأتى فى الصباح إلى المنزل يقرأ بعضا من القرآن ويأخذ بعضا مما فى البيت من خبز أو حبوب . ولم يكن الشيخ وحده فى القرية ، كان بها أكثر من شيخ .. لكل مجاله ، وبيوته ... ويذهب أبناء هذه البيوت إليه فى الصباح لحفظ القرآن فى غير أيام المدرسة .

وقد ظهرت نية والدى فى تعليمى حينما ذهب بى إلى **الشيخ على** لحفظ القرآن .. كنت فى السابعة من عمرى ، أذهب إلى المدرسة لأتعلم الحساب وبقية دروس المدرسة الأولية ، وإلى الشيخ على لحفظ القرآن . ورقابة الأب هنا وهناك تبدو صارمة بعد أن عقد النية .

حين يسأل أبى **الشيخ على** تتعلق عينى بإجابته .. إذا قال إنى أسير فى الحفظ جيداً مضى أبى دون كلمة ، وإن شكانى أو شكا منى .. هددنى أبى بالعمل فى الأرض وأحيانا يقرن التهديد بالتنفيذ .

مرة وكان **الشتاء** قاسيا والبرد شديدا ، شكانى الشيخ على فأرسلنى أبى فى الصباح الباكر إلى الحقل لأسوى خطوط القطن المحروثة .. سرت حافيا على أرض كالسكين جافة وباردة وقطع الطمى فى الخطوط التى أسويها حادة تكاد تقطع أقدامى .

كانت الرياح عاصفة ، وبكيت من الآلام فى أقدامى من الأرض ، وفى وجهى من البرد ... وأعمامى ينظرون إلى فى رضا .. كأنهم يريدون أن يكون العمل فى الأرض مصيرى بدلا من تحمل تكاليف التعليم الذى انتواه أبى .

فى التاسعة من عمرى أوشكت على إتمام حفظ القرآن ، وبقى التدريب على قراءته الصحيحة ، وتجويده ، والوقوف عند القراءة فى موقع الوقوف ، وفهم المعانى .

وصرت معمل اختبار لكل أصدقاء أبى منهم من يسألنى وأجيب بما أعرف وبما أحفظ ، ومنهم من يحاول تنوير عقلى بما يعرف ، وحين أجيب بعضهم يفرح بإجابتى ، وآخرون لا تخفى على وجوههم تعابير عدم الرضا .. ومنهم أعمامى .

وأخذت سمت المتعلمين ، أقرأ ما أستطيع حين أجده .. كتابا ، أو صحيفة عند أحد الأقارب ، وأستمع للمناقشات السياسية ، وبدأت أتبين من هم الوفديون فى قريتى ومن هم السعديون أو الدستوريون ، وأرسم لمعالم القرية خريطه طبقا للتحزبات .

وكان بين مدرسى القرية **الأستاذ أبو العز** .. يقرأ الصحف باهتمام ، ويقرأ كثيرا من الكتب، أعطانى الكتاب عودة الروح **لتوفيق الحكيم** . فقرأته وذهبت إليه أعيد الكتاب واستمعت إلى مناقشاته

وذهلت لكثرة المعلومات والأسماء التى يتحدث عنها .. كان يتحدث عن كتاب **الشيخ على** **عبدالرازق** الذى أثار ضجة كبيرة منذ سنوات واسمه الاسلام وأصول الحكم وكتاب **طه حسين** فى الأدب الجاهلى ، وحين أردت الانصراف سألنى هل تريد شيئا تقرؤه ؟ وأجبته : نعم ، وأعطانى كتابا للمويلحى : يتحدث عن رجل عاد إلى الحياة فى غير عصره .. وكيف رأى الحياة والناس .. ،ماذا تغير فأدهشة .

اسم الكتاب حديث عيس بن هشام .. وقد أذهلنى مثلما أعجبنى كتاب عودة الروح . وهكذا أصبحت حياتى موزعة ، فى المدرسة ، وعند **الشيخ على** ، وفى البيت إذا رضى الشيخ ، وفى الحقل إذا غضب .. وشيئا من القراءة فى صحيفه أو كتاب .

وليل القرية عند الأطفال شئ مختلف عن نهارها ، الأطفال يتجمعون ، يلعبون .. والكبار يتحدثون ، والنساء يتزاورن وبين هذا وذاك يمضى رجل إلى مصلحة ، يتفق مع عامل أن يذهب معه فى الصباح إلى حقله ، أو يختلف فى أمر حدث مع جاره .. والمدرسون يجتمعون ليستمعوا إلى "الراديو" أبو بطارية الأغانى .. **وحفلات أم كلثوم** ... ونشرة الأخبار . ثم يأتى النوم ... فالصباح الجديد مثل الأمس .. والدنيا تسير ، أياما بطيئة ثقيلة ، **وليالى رتيبة** ، يلفها الملل والإرهاق .. والفراغ .. واللهو .. لكل ما يناسبه .

حتى يأتى حادث جلل ، موت .. أو حريق .. أو نفوق جاموسة أو حمار .. أو ضياع حق لصغير عند كبير . أو احتدام الصدام بين أناس مختلفين . من خلال مثل هذه الأحداث تبينت أن لى أسرة كبيرة ، تتضح معالمها خلال الأحداث . والمشاركة فى الهموم والأفراح .

٢ - حكاية عائلة اسمها الشهاوى

تبدأ حكاية العائلة من اسمها .. **الشهاوى** .. لماذا كان هذا اسمه ؟ ومن أين جاء ؟ وكيف امتلك مئات الأفدنة فى القرية أيام حكم **الخديوى إسماعيل** .

ولد أبى ١٩٠٢ .. وكان أكبر إخوته .. حتى أخوه التوأم كان أصغر منه بدقائق وجاء بعد التوأم أخ ثالث .. وعدد من البنات .. وتوفى جدى الحاج رزق وأولاده صغاراً .. وظل السؤال يراودنا .. أليس الحاج رزق ابن الشهاوى المالك الكبير ؟ فما باله فقيرا وكيف اختلف – عن بقية إخوته ، اللذين صار منهم **"البيك" إبراهيم** .. وأخرون من إخوته يتدرجون غنى أو فقرا .

إذن **فالحاج رزق** كان من مواليد أيام الخديو **إسماعيل** ، **فالشهاوى** الكبير من أيام

محمد علي .. وقد كانت الأرض ملكا له .. حتى جاءت اللائمة السعيدية فاباجت ملكيتها لغير اسرة محمد علي .. ومن هنا ظل السؤال الأول بلا جواب .. كيف .. كيف أصبح **الشهاوى** الكبير إقطاعيا؟

ولكن السؤال الثانى : كيف أصبح أبنه الحاج رزق فقيرا ؟ وجد بعض الأجابة .

فى تلك الأيام السالفة كان اللجوء إلى **المحاكم الأهلية** التى أنشأها **الخديوى إسماعيل باشا** فى مراكز المديريات ، يمثل عبئا ثقيلا على المتخاصمين . ويمثل إرهاقا ماليا على الذين لا يستطيعون مواصلة إجراءات التقاضى الباهظة التكاليف بالنسبة لإمكانياتهم ، ونظرا لصعوبة الوصول إلى تلك المحاكم لعدم وجود وسيلة مواصلات ، فقد أنشأت فى الأقاليم محاكم "الخط" لحل المنازعات حيث يقيم المتقاضون وكانت هذه المحاكم نوعا من المحاكم العرفية أو لجان التحكيم ، يرأسها كبير الناحيه أو الجهة التى تنشأ بها وتقع ضمن اختصاصاتها .. وقد أضيفت إلى هذه المحاكم سلطة جديدة حيث أنشئ نظام العمد **أواخرا القرن التاسع عشر** ، وبهذا فتح المجال الكبير عائلة **الشهاوى** فى اتجاهين .. رئاسة محكمة الخط ، يمارس من خلالها الوجاهة والنفوذ الكبير على مستوى دائرة المحكمة ، والعمودية فى القرية يحكم بها القبضة على أهلها ويرعى بها مصالحه .

وكانت المحكمة تتكون من خمسة من الموسرين أصحاب الأملاك يتم اختيارهم من بين عشرة يرشحون لوزير الحقانية .واختيار رئيس المحكمة يجعله عين الأعيان ووجيه الوجهاء .

أراد **الشهاوى** الكبير أن يجعل محكمة الخط فى أبنائه من بعده ، فاختار أحدهم وأعطاه معظم ما يملك .. لماذا هو دون الآخرين ؟ .. لا أحد يدرى .

أبناء **الشهاوى** ثلاثة عشر رجلا .. غير البنات ، ولكى يكون المختار منهم بين نخبة الإقليم أعطاه أبوه الأفدنة والأموال والعلاقات ، يصاهر منها ، ويساهر ، ويرتب معهم شئون الإقليم بما يجعل نقابة ملاك وحكام.

كان يحيرنا اختلاف وضع أبناء الشهاوى غير هذا المختار الذى خصه أبوه بغنيمة الأسد . كيف أصبح منهم الفقير مثل الإمام ، ورزق اللذين لم يعطها أكثر من خمسة أفدنة وكيف أعطى الاخرين أكثر من ذلك حتى عشرين فدانا " **لأبو النجا** " وكيف اختار لابنه جبر مثلا أن يلحقه ناظرا لأوقاف مظلوم باشا ، فأصبح بذلك بعيدا عن خط الفقر والفاقه الذى يعانى منه بعض إخوته .

وبقى **المختار** ومن بعده أبنائه بدون اسماء فى أعلى المدارج وبين أبناء الأسرة ، اختار لأحدهم بنت أحد الوفديين الكبار زوجة ، ولابنه الثانى أخت الباشا الحر الدستورى ، وأختار للثالث بنت أحد

وجهاء القرية ، كبير عائلة ، وبهذا رتب المستقبل .. إذا جاء الوفد ، أو جاءت أحزاب الأقلية ، وأصبح الثالث وسيله لتدعيم الجبهة الداخلية فى القرية .

راودتنى منذ الصغر مشروعية الملكية الإقطاعية انطلاقا من هذه الأوضاع فى عائلتى ، وعرفت **معنى الصراع الطبقى** فى محاولات البقاء على وجه الحياة بغريزة فطرية يعيش بها أبناء القرية ، الذين أصبح من بينهم كثيرون من أبناء العائلة .

أبناء الشهاوى الثلاثة عشر تزوجوا وأنجبوا وكانت الأجيال الجديدة منهم أعدادا تستعصى على الحصر والتقصى فضلا عن انتشارهم فى بلاد أخرى من **أرجاء مصر** ، بدأت من المنصورة ، حيث قصدها كثيرون من العائلة لقربها من القرية وبها المدارس لأبنائهم ، واسلوب حياة المدينة التى تتيحها لهم ممتلكاتهم ، ثم انتقل فرع من العائلة إلى **القاهرة والاسكندرية** وغيرهما ثم فرع إلى **كفر الشناوى** .

وكما توزعت الأسرة فى الأرجاء توزعت العواطف بينهم ، ولأن أبى وإخوته كانوا هم الأسرة الحقيقية لى ، ولكن أبى كان يريد الحفاظ على علاقة أسرية بأبناء عمه ، يسميهم لى " أعمامك" .

وحينئذ بدأت أدرك الشكل العام لخريطة الأسرة ، فقد كانت مواقفى من عناصرها مجرد خيالات ، ورؤى طفولية تأتى الأيام والحوادث بما يؤكدها أوينفيها ، ولكنها آناً بعد آن تزداد اتضاحا فى الصورة والعواطف أيضا .

أخذنى أبى مرة وهو ذاهب إلى ابن عمه العمدة ليهنئه بالعيد وكان أهل هذا الزمان من الأقرباء يقبل الصغير منهم يد الكبير لدرجة أن أبى كان يكبر أخاه التوأم بخمس دقائق مثلا .. ولكنه كان دائما الكبير .

سلم **أبى على العمدة** ، وقبل يده .. **ابن عمه** .. وأكبر منه وقال لى : سلم على عمك ، فصافحته دون أن أقبل يده .. اغتاظ العمده وعبر عن غيظه لأبى .. فضحك له ، واعتذر عنى ، ولكنه لم يرغمنى على ما لا أريد .. فيما بعد لاحظ أبى أن أبناء العمدة لا يقبلون يد **أعمامهم وأبناء عم أبيهم** .

٣- المجده تصفع العمده

شيئا فشيئا أصبحت المصالح سيدة الموقف . وتغلبت على العادات ، والتقاليد ، بل والفضيلة ، الرذيله .. ظالم أم مظلوم .. ذلك هو نسبك وحسبك ، وحين أقول إننى أدركت هذه المعانى فإنها لم تكن عندى سوى خيالات تراودنى ، ورؤى طفولية من منطلق جو عام يتم التعبير عنه فى حذر بين الكبار ..

ولكن الحوادث هى التى كانت تفصل بين ما هو عائلة وما هو مصلحة .

شاهدت أبى وأخويه يدفعهما خفراء العمدة إلى "**التليفون**" الذى يتم الاتصال به بين العمدة وأصحاب الحل والربط فى المنصورة .. وبجوار حجرة **التليفون** حجرة يسمونها **الحجز** ، يوضع فيها مرتكبو الحوادث أو المطلوبون للتحقيق أمام العمده .. وسرت وراء أبى لا أعراف ماذا يجرى .. ووقفت بين قصر العمده والتليفون أنتظر النتائج .

كان **جدى رزق** عما للعمدة ، وقد ناله من أبيه **الشهاوى** الكبير خمسة أفدنة ، موزعة فى أكثر من موقع بين أملاك العمدة ، **وتوفى جدى** ، ورأى العمدة أن بعض قطع أرض أبناء عمه يمكن بها إصلاح جسوره ، وتعديل حدوده ، والتخلص من قناة للرى تمر بأرضه وساوم على مبادلة قطعة الأرض هذه بمثلها فى مكان آخر ، وأيا كان سبب رفضهم هذه المبادلة فقد أغضبوا العمدة ، ووقفوا ضد مصالحه . ولهذا أخذهم للحجز.

كان جدى حين توفى قد ترك صغاراً أبى وإخوته وقد رعتهم أمهم ، وأدارت لهم شئونهم حتى كبروا واكتسبت فى المواجهة وإزاء المحن والتحديات شخصية قوية آمرة مسيطرة ، وأصبح لها فى أمر أولادها الرأى الأول والأخير ، ولكثرة ، ما عانت من أجلهم أصبح أبناؤها يطيعونها كأنها الأب ، ويحرصون على رضاها وأخذ رأيها فى كل أمر .

رأيتها تحرق بعض القش لتنير المكان حيث كان أبناؤها يتناولون عشاءهم ، وهى التى كانت توزع الأنصبة من اللحم حين يكون لحم ، ومن الدجاج إن كان ، وتسأل عن الغائب وتقيم ميزان العدل بين زوجات أولادها .

وحين أخذ أبناءها إلى الحجز ثارت ثورة بلا حدود ، وأرسلت إلى أهلها وهم قوم كالبدو ، ويعيشون فى خارج القرية . وجاءوا وهم أهل قوة وسطوة ، وشقوا الطريق إلى الحجز فكسروا أبوابه وأطلقوا سراح أبى وأخويه .. والجدة من ورائهم تصيح وتأمر .. حتى إذا خرج أبناؤها وأصبحوا أحراراً توجهت الجدة إلى العمدة ، وقفزت لتصفعه على وجهه وتعود بأولادها فى نفس الموكب الذى جاء لاطلاق سراحهم ، وأصدرت قرارا . يحرم المساومة على هذه الأرض إلى يوم الدين .

وهكذا من حيث أراد **الشهاوى** الكبير أن يحمى أولاده ، وأن يجعل النفوذ فى عائلته بأن يكون منها العمدة ، ومنها حاكم الخط ، ومنها النسب مع ذوى الجاه ، فقد انقلب الحال ، وتغير المال ، وأصبحت المصلحة فوق الروابط العائلية ، بسببها يأكل الكبير الصغير ، ويحتاج أبناء **الشهاوى** الذين أفقرهم أبوهم إلى من يحميهم من أبناء عمومتهم ويحفظ لهم حقوقهم ويرد عنهم الظلم .

وبهذا أصبحت العائلة عائلتان تيامنت إحداهما وتياسرت الأخرى ، وبمرور الأيام احتدم بين العائلتين الصدام ، يظهر حينا ويختفى أحياناً ، وشيئاً فشيئاً تصبح عائلة القصر متميزة .. واضحة .. تعرف طريقها إلى مصالحها ، ولو كانت على حساب أهلها الذين كانوا يوما أهلا . أما العائلة الأخرى فقد اتجهت إلى بقية أبناء القرية وسكانها تصاهرهم وتتعامل فى شئون الحياة معهم .. ويتخذ بعضهم لبعض ظهيراً . وهكذا أراد العمدة حاكم الخط لأبنائه نفوذاً يتدعم من الخارج ، وارتضت بقية العائلة بناء قوتها اعتماداً على عناصر الداخل من القرية .

أولـيـاء الـلـه مـن الـعـسـكـر

كانت القرية على المرتفع خوف الفيضان ، وفى قمة المرتفع كان بيت **الشهاوى الكبير** ، لا نعلم كم كانت زوجاته ، وإن كنا نحصى أبناءه .. وكان إذا تزوج أحدهم بنى له بيتاً حول البيت الكبير ، وبيتاً بعد بيت أصبح أبناؤه يحيطون به من كل جانب ، ما زال ذلك النوع من الإسكان العائلى قائماً فى **نجوع الصعيد** .. الكبير يحيط به أبناؤه ، ويكون بينهم يحميهم وفى حماهم ، ومع مرور الأيام ترك الكبير بيت العائلة القائمة فى المنطقة المرتفعة وبنى قصراً فى أحضان جسر النيل عند سفح التل . كان جسر النيل يقوى عاماً بعد عام ، وحين اطمأن الناس بدأوا يبنون البيوت حول التل .. وشيئاً فشيئاً أصبح **التل وسط البلدة** .. ومن حوله عند الأرض الزراعية قامت بيوت **كثيرة** .. وحين انتقل كبراء العائلة إلى قصرهم تركوا بيتهم ريثما يطمئنوا فى مقامهم الجديد .. ومر الفيضان عاماً بعد عام والجسور تثبت جدارتها وقدرتها ، **والعمدة** فى كل عام يقوى بسواعد أهل قريته **جسر النيل** عندها حماية لحياته .. واطمأن أكثر فأكثر ، فهدم البيت القديم ، وأخذ يجرف ترابه مستعملاً إياه سماداً كفريا" لأطيانه .. كل عام يحفر .. وينقل الكفرى حتى وصل إلى قاع سحيق .. أخذت بعده مياه الرشح تظهر .. وتصير مستنقعاً .

وبالقصر والبيوت المتناثرة حول التل ، وبالنقرة فى المركز اكتمل شكل القرية فى سنوات حياتى الأولى ، فى كل الأركان من هذا التكوين ذكرى ورؤى وأحداث . ما زلت أذكر حفلات المنشدين فى ذكرى المولد النبوى . ومواكب سيدى " **عيسى** " سيدى " **أيبك** " والشيخ "**نصير**" كانوا قادة جيوش المقاومة فى وجه الغزو الصليبى . جاءوا على رأس الجيش من المنصورة دفاعاً عنها حتى لا يدخلوها .. فقتل أيبك على مشارف القرية ودفن حيث مات ، وأصبح قبره مزاراً ، ويوم مقتله ذكرى يحتفل بها ، وكذلك **الشيخ** " **عيسى** " وقد قتل فى مدخل القرية الشرقى ، ودفن هناك ، وبنى عند قبره مسجد أما **الشيخ** " **نصير** " فقد قتل عند قمة التل ، بجوار بيت العائله الكبير ، وعلامات قبره

هناك جدران تحميه من أقدام المارة .

لم يكن هؤلاء الثلاثة أصحاب كرامات ، أو أولياء قديسين ، أو عارفين بالله زاهدين .. بل كانوا قادة في جند يدافع عن الوطن .. قتلوا فاعترف الناس بفضلهم دون أن يكون لهم ابن أو أخ يشيد بهم ويبني لهم مزاراً ، ولذلك فقد كانت القرية تعتبر حياتهم أساطير . إذ لا يعرف عنهم شئ ، وحين كانت تسير باسمهم المواكب لم تزد الهدايا والتبرعات إلى قبورهم أكثر من الشمع يضاء ، ولا شئ من الهدايا أو الهبات .

وحين يمر موكب **سيدي عيسى** أو **أيبك** و" **الخليفة** " يمتطي جواداً في المقدمة ، والمنشدون من بعده . والأطفال والصبية والشباب .. كان المرور عند النقرة محفوفاً بالمخاطر . وخوف الناس على الأطفال أن يتدحرجوا إلى قاع النقرة وذلك يصرفهم عن الجو الشاعري السائر خلف الخليفة .. هذا الخليفة الذي يؤدي دوره متطوعاً لإحياء ذكرى أبطال لا يعرف الناس عن حياتهم شيئاً .. رغم أنهم يعتبرونهم من القديسين .

وقد اشترى **أبي وإخوته** جزءاً كبيراً من النقرة أقاموا عليه بعد ردمه حظيرة للبهائم ، فاتسع البيت لقاطنيه الذين تزايد عددهم ، بعد أن أصبح لكل من **أبي وأخويه زوجه وأولاد** . وكذلك فعل كثيرون ممن يحيطون بالنقرة من العائلة . وهكذا أصبح بين بيوتهم ومراكز البعوض والحشرات في **النقرة** مانع . **ولكن لم يسلم أحد من مضار هذه النقرة وأوبئتها** .

كنت في العاشرة من عمري حين أصابتني **الملاريا** .. ولم أكن أعرف أني مريض ، ولا ما هي **الملاريا** .. حين كانت الرعشة تأتي كنت أتكوم بجوار الجدار الذي بنيناه في أرض النقرة ألتمس الدفء في الشمس .. وأعراض الملاريا تذهب وتأتي في ميعاد محدد .. ومرتين جاءت الأعراض ونمت وارتعشت بجوار الحائط لم يحس بي أحد ، وفي المرة الثالثة اكتشف أحد الناس حالتي فنقلني إلى المنزل وعولجت بعلاج هذه الأيام الذي كان يعرف " **بالكينين** " .

*** *** ***

*** ***

***

*

الفصل الثانى

(١) الدراسة والسياسة وبداية الحبس

فى الحادية عشر من عمرى كنت قد أكملت حفظ القرآن قراءة وتجويداً وأنهيت التعليم الابتدائى بمدرسة القرية ، وقرر أبى أن يجازف بتعليمى رغم الصعوبات التى يواجهها ومعه إخوته . إذا فسأغادر القرية .. وسأرى عالماً آخر .. لم أغادرها من قبل إلا مرات معدودة إلى المنصورة ، وفى صحبة أبى لزيارة أقاربه عند شربين ، ولكنى فى هذه المرة سأغادر وحيداً .. إلى مجهول لا أعرفه .. وأحزننى أن أخى الكبير **أحمد** لم يتعلم هو الآخر .. وإذا كان من الضرورى أن يقتصر التعليم على واحد فقط فلماذا لا يكون هو .. ومنذ علمت بخبر الرحلة المقبلة إلى **دمياط** ، وأنا أخجل حين أنظر إلى أخى .. وأحمل فى داخلى اعتذاراً له لا أستطيع البوح به .

كنت أصغر بعام عن ما هو مطلوب لدخول المعهد الدينى . وأحتاج الأمر إلى واسطة تمهد لى سبيل القبول بالمعهد ، وتجاوز مشكلة السن الصغير ، وذهب أبى إلى قرية مقابلة لقريتنا من الناحية الأخرى من **فرع دمياط** تدعى " **الطويلة** " كان ناظر المدرسة الأولية بقريتنا منهما واسمه الأستاذ **عبد الحليم عبد السلام** .. نوع من الشخصيات الرقيقة والرفيعة خلقاً وحديثاً .. ذهب إليه أبى فى قريته .. ولم يرد أن يحدثه إذ هو فى مدرستنا .. قال يجب أن نزوره .. إكراماً وحباً .. فهو أهل لذلك .. وأن نطلب منه أن يتدخل لدى أخيه الأستاذ **حامد عبد السلام** المدرس بمعهد دمياط ويرجوه أن يتدخل بقبولى .. وتم لأبى ما أراد .

وهكذا بدأت الرحلة من العام الدراسى ١٩٣٧- ١٩٣٨ صبى صغير ، يلبس جلباباً ، ومعطفاً طويلاً بدل " **الكاكولا** " وعمامة ..

أوصلنى أبى إلى حيث يقيم أقارب لنا طلبة فى **معهد دمياط** ، وفى مدارسها ، واتفق معهم أن أسكن فى حجرة مجاورة لهم ، وأن يهتموا بى ويراقبوا أمورى ، وغضبت فى داخلى مرة أخرى .. فهذه الوصاية تعتبر عبئاً وثقلاً ، وتضعنى تحت رقابة الغير ، يعدون على حركاتى وسكناتى ، فضلاً عن أنهم من أسر ميسورة الحال ، لا يليق بى أن أضع ظروفى الخاصة تحت أعينهم .. ولكن أبى يريد أن يطمئن على قبل أن يغادر عائداً إلى القرية ..

كانت تكاليف تعليمى لا تذكر ، ملابس قليلة تخيطها أمى من بينها **جلبابان** أو ثلاثة

و " **البالطو** " **بدل الكاكولا الأزهرية ، والعمامة ، وحذاء** ، وكنت تعلمت من جدتى أن أخفى شئونى ، وأستر حاجتى ، فكتمت عن " الأوصياء " أن ما أعطانى أبى مصروفاً للأسبوع هو خمسة قروش ، أشترى منها ما يلزم لتناول الخبز الذى أتيت به معى من القرية ، سلة مليئة بالخبز الفلاحى .. كانت هى الشئ الوحيد فى حياتى الذى يزيد على الحاجة ، ومن مصروفى أدخر أجرة السفر إلى القرية آخر الأسبوع ، وعلى أبى أن يدفع أجرة العودة حين أعود إلى دمياط يوم الجمعة

كنت حين أعود إلى القرية ألبس الجلباب فقط ، وفى الشتاء أتدثر بالمعطف " **البالطو** " ولكنى أعود إلى القرية حاسر الرأس ممشط الشعر .. وقد أثار ذلك عمى توأم أبى ، ولكن أبى تغاضى عن ملاحظة أخيه . وكأنه أراد أن يترك بينى وبين أقرانى الذين يذهبون إلى مدارس المنصورة شيئاً من الشبه لا يزيد عزلتى عنهم .

دراستى فى معهد دمياط كانت من النوع الثقيل كماً وكيفاً ، المتون وشروحها فى الفقه ، واللغة ، والحديث .. ولولا أننى كنت أقرأ الكتب قبل أن آتى لتلك الدراسة لأصبت بإحباط شديد .. ولكنى كنت أقرأ وأفك الرموز ، وأعانى من غموض المعانى أو التوائها .. ولكنى أحاول .

وهناك الحساب والتاريخ والجغرافيا ، والعلوم .. كانت مجالاً للتنفس وتخفيف الأعباء ، وتغيير أجواء الأوراق الصفراء .

وكنت سعيداً حين يأتى إلينا **الأستاذ حامد عبد السلام** الذى توسط لدخولى هذا المعهد .. كنت أستمع إليه بإهتمام .. وكان بذلك جديراً ، فقد تخرج من مدرسة المعلمين العليا .. وهو يدرس علوماً عصرية لا علاقة لها بالمتون والشروح . فضلاً عن أنه يلبس الزى المدنى .. وكان على نحافة جسمه ورشاقته طلى الأسلوب ، دقيقاً فى التعبير ، معتنياً بأبنائه ، وكان يسعدنى أنه يهتم بى ويولينى عناية خاصة تثلج صدرى .

كان اهتمامى بالعلوم المدنية كبيراً ، وكان أقرب العلوم الدينية إلى نفسى "**الحديث**" أجد فيه سلوى عن المعاناة ، وشيئاً من الرؤية الإنسانية ، وتحليلاً لعلاقات البشر . ما زلت أذكر الحديث ! " **اللهم احشنى مسكيناً ، وأمتنى مسكيناً ، واحشرنى فى زمرة المساكين** " إذا فطريقنا مع الرسول إلى الجنة .. ومن هنا بدأ اهتمامى بجمع المواقف والآراء وأبيات الشعر التى تتحدث عن الظلم والظالمين .. وجعلت كراساً خاصاً لذلك كتبت على غلافه " **من كل بستان زهرة** " .

وهكذا كان تصورى العفوى البدائى للعدالة الاجتماعية أبحث دائماً عن ما يكمل صورتها فى الكتب بأنواعها .

وما أن مرت سنتان فى هذه الدراسة حتى بدأت أقول شعراً دينياً .. أقوله لنفسى وأخفيه على الغير ، وشيئاً فشيئاً أصبحت لدى الجرأة لأقول ما أكنه للناس ، لم أكن فى سن يسمح لى بالحديث إلى الناس ناصحاً أو خطيباً ، وكان الشعر مخرجاً للبعد عن الوعظ والإرشاد ، ونوعاً من الحديث " المودرن " للناس ، وغطاء لصغر السن .

أذكر أول قصيدة قلتها ، وقد حفظتها لألقيها بلا ورق أنظر فيه فأحرم من رؤية وجوه السامعين . كانت فى احتفال المولد النبوى فى الجامع الكبير .

مولاى يا خير الهداة ويا ملاذ الأمل

علمت كل الناس لم تترك بهم من جاهل

ورفعت يا مولاى كل الناس حتى العاطل

وأعجب **الأستاذ أبو العز** الذى كان يعيرنى كتبه ببدايتى الشعرية ، وقدم لى النصح بأن أقرأ كثيراً شعراً وغير شعر ، وأفسح لى المجال إلى مكتبته أحصل منها على ما أشاء .

وكان أبى فخوراً يخفى فخره وإعجابه ، وبعض سيدات القرية كن يستمعن إلى المواعظ الدينية عبر نوافذ المسجد ، وحين انتهيت من قصيدتى ضجت الزغاريد احتفالاً .

ولكن وقوفى فى المسجد وإلقاء الشعر أعطانى صورة أكبر من حجمى ، وفرض على التزامات مظهرية رفضتها بالاندماج مع التلاميذ ، ولعب الكرة معهم ، والخروج إلى النيل للسباحة ، والسهر ليلاً فى ضوء القمر .

وبينما رفضت الالتزامات المظهرية أخذت أقرأ **لطه حسين ، والعقاد ، والمازنى ، وزكى مبارك** ، وأعجبت جداً **بموقف طه حسين من الأزهر** ، ومشايخه المتزمتين حين أسقطوه ، فى إمتحان العالمية ، فخرج من الامتحان ليكتب مقاله المشهور **ساعة فى الضحى بين العمائم واللحى** ، يهاجم فيها ذوى العمائم ، أصحاب النظرة الضيقة .. الحاقدين على التقدم والتطور .

أذكر وأنا فى **السنة الرابعة بمعهد دمياط الدينى** ، أنه قامت مظاهرات تهتف " **تقدم يا روميل** " وكان طلبة المعهد عماد هذه المظاهرات .. ولكنى كنت أحد المعجبين بالوفد . أخذت عن أحد أقربائى الاهتمام بتاريخه ورؤيته السياسية . كما أنى كنت أذهب لبيت هذا القريب فيعطينى ما يكون قد قرأه من الصحف .. وأغلبها وفدى .

ولذلك فقد خرجت من المعهد ولكنى لم أنخرط فى المظاهرة ، وذهبت فأجرت دراجه أجرى بها

فى دمياط وبينما أنا عند الكوبرى الذى يصل محطة القطار بالمدينة فوجئت **بالأستاذ حامد عبد السلام** أمامى فارتبكت ، واهتزت قيادتى للدراجه ولامسته عجلتها فأصابته ببعض الأوساخ ، وذعرت مما حدث ، وأسرعت بدراجتى هارباً .. ولكنه فى اليوم التالى نظر إلى نظرة مطمئنه ، وتحدث عن مظاهرات الألمان ، وقال إن **الألمان أكثر وحشية من الانجليز** .. وبدلاً من تلك المظاهرات، روحوا عن أنفسكم بنزهه .. أو بركوب دراجه .. ولحته يضحك مسروراً .

حين تجاوزت المرحلة الابتدائية ، وذهبت إلى **المعهد الثانوى بطنطا** وكنت ابن السادسة عشر ، وبدلاً من أبيات الشعر فى المناسبات أصبحت أسير ضمن **كتيبة الإخوان المسلمين** ، وإن لم أكن منتمياً إليهم ، كنا نطوف بتجمعات **المولد الأحمدى** يخطب بعض الإخوان واعظين مرشدين ، ونحن من حول الخطيب ننتشر بين الناس .

ولكنى فى القرية أخذت بدلاً من أبيات الشعر ، **أخطب الجمعة ، وأعطى دروساً دينية فى المسجد بعد الإفطار فى رمضان** ، وبدلاً من الكلام العام والخطاب الشعرى الفضفاض أصبحت أفسر الأحاديث برؤيتى وأختارها من زاوية هذه الرؤية ، وأعطى التفسير لكل من حولى مقارناً بما فى التاريخ .. وفى مرة تعرضت لحديث يقول :(**سبعة يظلهم الله تحت ظله .. إمام عادل**)... الخ . وأخذت اتحدث عن هؤلاء السبعة الذين يظلهم الله بظله كل واحد منهم فى ليله .. وفى الليلة الأولى تحدثت عن الأمام العادل : من هو .. هو الحاكم . وهو المسئول فى أى مجال .. وهو رب الأسرة .. والعمدة فى القرية . الإمام العادل هو كل من يرعى مسئولية صغيرة أو كبيرة فى أى من مجالات الحياة . ويكون عادلاً إذا .. وبدأت أتحدث عن أشكال الظلم .. وعن الظلم فى القرية .. ودور العمدة ليكون عادلاً . أما إذا كان ظالماً ، فإنه يفعل كذا وكذا مشيراً إلى بعض الأحداث فى القرية وكأنى أتحدث عن أحداث عامة .

العمدة ابن عم أبى .. ذهب إليه حواريوه .. وأخبروه بما قيل فى المسجد ، فجاء فى اليوم التالى .. وقد علمت بأنه يعلم حديث الأمس ..

بدأت هذه الليلة بأن ذكرت الحاضرين بما قلته أمس ، وقد تعمدت ذلك حتى لا يقال إننى جبنت فى مواجهة العمدة .. وشرحت بالتفصيل الذى كان بالأمس ، وأسمعته ما نقل إليه . وأصبح بهذه المواجهة موقفى أكثر ثباتاً .. ها هو الشاب لا يخشى فى الحق لومة لائم .. وها هو يواجه العمدة بمظالمه فى العائلة وفى القرية ، وإن يكن الحديث عاماً .. ولكنه عند الناس مفهوم .. وأهل القرية يسمعون بإعزاز .

رغم أن دوري هذه الليلة لم يكن أكثر من كلمات في مسجد .. إلا أنها كانت مقدمة جيدة لمواقف حقيقية ، وكانت سبيلاً للمشاركة في الأحداث الجارية في القرية ، وفي ذات الوقت كانت سبيلاً لربط مشاكل الناس وعلاقاتهم بالفكر الديني على نحو يعطي الدين دوره في تقدم المجتمع والعلاقات الإنسانية .

وقد اعتبر الإخوان هذا الإتجاه في الفكر الديني نوعاً من المنازعات الحزبية والحزازات السياسية ، والبحث عن مآرب شخصية تشغل الجماعة عن هدفها في تربية الأمة ، وإعداد العدة ليومهم المنتظر . وهكذا كانوا يدعون حينئذ للبعد عن مشاكل الفئات والانشغال **بالقضايا الوطنية والديمقراطية**. ومن هذه الزاوية اعتبروا رؤيتي لدور الدين تدخلاً شخصياً وفهماً ذاتياً ، ومن هذا الوقت تجاهلتهم وتجاهلوني .

(٢) حين يسقط القناع

كنت ما أزال " بين بين " مع الإخوان حين وقع **حادث القصاصين** وأصيب **الملك فاروق** وانطلقت في كل أنحاء البلاد مظاهرات وهتافات ومسيرات إلى الملك تهنئة بالسلامة والنجاة ، وقد شاركت **الحكومة الوفدية** في هذه التظاهرات بأن جعلت المواصلات إلى القصاصين ومنها مجانية ، وقد وقف **الأستاذ "البديوي" أستاذ الأدب بمعهد طنطا** يلقي قصيدة شعرية مطلعها .

طنطا ومعهدها فداء للمليك والكل يا ملك الكنانة يفتديك

ورغم كبر سنه ، ومركزه الأدبي ، إلا أنه سافر على رأس طلبة معهد طنطا إلى القصاصين .

وقد حاولت مع عدد من الأفراد في المعهد أن نواجه هذا المد العارم المتجه إلى القصاصين فأصبنا بفشل ذريع ، رغم أن واحداً منا قام وقال " **إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها ، وجعلوا أعزة أهلها أذله** " ولكن صوته ضاع هباء ، ثم حاولت الحديث ، فقلت أين كان الملك حين أصيب ؟ هل كان يفتش عن مشاكل رعيته ، هل أصيب في عملية فدائية ضد **معسكرات الإنجليز** ؟ ولكن الصوت ضاع كماضاع الذي قبله .

وتذكرت ما حدث في دمياط حين قامت مظاهرات تقدم يا رومل . كانت مثل مظاهرات القصاصين عمادها طلبة المعاهد الأزهرية ، في **دمياط** تركت المظاهرة وركبت دراجة أتريض بها ، وفي طنطا حاولت أن أقول رأيي ولكني فشلت فشلاً ذريعاً .. وبعد أن خلا المعهد من طلابه ذهبت إلى **الأستاذ فوزي خشبه** وكان ذا فكر وأخلاق ، وصاحب مواقف ، شرح لنا دور القصر في محاولة السيطرة على الأزهر منذ بداية حكم الملك فؤاد ورغبته في أن يصبح **أميراً للمؤمنين** ، وكيف أصدر

الشيخ على عبد الرازق كتابه " **الإسلام وأصول الحكم** " مما اعتبره الملك ضد أهدافه ، فحرض عليه الأزهر وحوكم أمام **هيئة كبار العلماء** ، وجرد من حقوقه المدنية والدينية ، وألغيت شهاداته العلمية ، وربط بين دور الإخوان والرجعية فى الأزهر فى موضوع مساندة الملك ، وقال إن مظاهرات " **تقدم يا رومل** " كانت نوعاً من التحالف بين أركان ثلاثة **الأزهر والإخوان والملك** .. وهكذا مظاهرات القصاصين .

وبينما كنت أعيش نشوة رؤية القناع يسقط عن **الإخوان** وبينما كنت أستعيد تفسير الأستاذ **فوزى خشبه** ورؤيته فوجئت بالمساء يأتى ومعه البوليس .

قبضوا على .. وأقمت **بقسم طنطا** " ثانى " ليلة ، وفي الصباح رحلت إلى مركز المنصورة ثم إلى القرية ومعى قرار من الحاكم العسكرى بقضاء عام فى مراقبة عسكرية وتحديد إقامة فى القرية . وتساءلت بينى وبين نفسى : كيف وصل للحاكم العسكرى من الحكومة الوفدية خبر موقفنا من مظاهرات القصاصين على هذا النحو السريع ، وكيف تأكد الحاكم مما وصله ، ومن خطورة ما قمنا به على الأمن رغم أن موقفنا لم يزد عن صرخة فى صحراء ، ولا من سميع ، ولا من يجيب ، كان عددنا فى قسم ثانى نحو سبعه وقال " **الشاويش النويتجى** " إن هناك آخرين فى قسم " **أول** " وأصبح هذا العدد هنا وهناك هو المبرر للذعر .

فى الصباح وضعوا القيود فى أيدينا ، وذهبوا بنا كل إلى حيث يقيم أهله ، وذهبت إلى المنصورة ، ومن المركز استدعوا أبى من القرية ليتسلمنى ، وأعطونا "دفتر" المراقبة ، يوقع عليه الخفراء صباحاً حين طلوع الشمس ومساء حين تغيب وتوقع " دورية " المركز حين تأتى إلى القرية فى أى وقت من الليل . فأنا بهذا القرار حبيس بيتى طول الليل مطلق السراح طول النهار ، وفى نهاية الأسبوع يجب أن أذهب إلى " المركز " لمراجعة سير الرقابة وانتظامها .

لم أكن أظن أن المسألة بالنسبة لأهلى ستعنى كارثة .. فأنا لم أفعل ما أستحق عليه شيئاً من ذلك ، فضلاً عن أن المسألة لا تعدو أنهم أعادونى إلى أهلى تأديباً وتهذيباً .. ولكن عمى التوأم فجر الموقف حين قال : كان أسهل علينا أن يأتى فى تابوت ، وأن نتسلمه جثة من أن يأتى إلينا فى الحديد . ماذا نقول للناس ، ثم إنه سيراقب عسكرياً مثل المجرمين والقتله ، وسيصبح بيتنا مزاراً وطريقاً مطروقاً للخفراء والعساكر مثلما يفعلون مع " **على الجزار** " الذى اتهم بالفعل وعند انتهاء حبسه هاهم يراقبونه بنفس الطريقة . ثم تساءل : ماذا فعل هذا الولد ؟ لابد أنه تصرف تصرفاً فظيعاً .. نريد أن نعرف . وإذا كان التعليم فى طنطا يؤدى إلى هذا المصائب فالله يغنينا عن هذا التعليم .

وجاءت الفكرة بعد السكرة والذهول .. ماذا أفعل بدراستى . وحدثت أبى فى أنى سأذاكر، وسأدخل الامتحان وأنجح إن شاء الله .. ولعله رأى فى ذلك تعويضاً عن إحساسه إزاء هجمة أخيه وتبرمه بالموقف .. وأرسل أبى إلى زملاء السكن فى طنطا يطلب كتبى ، وجاءنى بها المرحوم **عبد الرحمن الإبراشى** الذى كان أخوه معنا فيما بعد بالمعتقل ، واعتمدت على نفسى فى فهم وحل طلاسم كتب الدراسة .

أما أهل القرية ، فقد كانت الواقعة مثيرة لمشاعر شتى متباينة .. بعضهم لا يصدق ويقترح لأسباب هذه المراقبة العسكرية أنواعا من التفسيرات غير موضوع الملك .. ويقول إن فى الأمر سرا .. وبعضهم تطوع لمعرفة الاسرار من طنطا نفسها .. وبعضهم يرى أن تلك هى النهاية .. وعلى الله العوض .

وآخرون رأوا أنهم إزاء شاب أراد أن يسبق أيامه فتعثر وسقط فى أوهامه .. أما أبى فقد لزم الصمت .. وحين يرانى أستذكر دروسى يغض عنى الطرف ، ويولى بعيداً . كان قد سألنى وأخبرته بما أعرف ، وبما حدث .. لم يقل لى إنه صدق ، ولم يقل إنه يتشكك .. وكان صمته أقسى من كل ما حولى .. حتى من رأى عمى والتابوت .

وأما أمى فقد كانت كلما ترانى تنهال دموعها .. حتى أصبحت أتحاشى الظهور أمامها ، ولكنها أمام زوجات أعمامى كانت تخفى أوجاعها .

وفى يوم سمعت مناقشة بين عمى وزوج خالته **الشيخ محمد أبو زيد** .. وشيئاً فشيئاً ارتفع الصوت حتى بدا صياحاً .. كان الشيخ ينهر عمى ويزجره .. فقد كان صاحب سطوة عائلية على أسرتنا .. وسمعته يقول : أنت مخطئ .. هذا لا يجوز .. لابد أن يكمل الولد تعليمه .. إنه لا ذنب له فيما حدث ، وهو يتحمل صابراً من الحكومة ومنكم .. إن موقفه يدعو إلى الفخر .. إنه ولد شجاع .. وأنا أراه يذاكر بجد .. وسوف ينجح . وحاولت أن أنظر من بعيد إليهم .. والتفت أبى ورآنى .. وابتسم .. ومضيت إلى ما كنت فيه .. وابتسامة أبى تنير لى الطريق .

فدان الجميز

كان تحديد إقامتى بالقرية سبيلاً لمزيد من الاتصال بناسها .. الذين استقر موقفهم فى النهاية على مؤازرتى والتفاؤل بنهاية طيبه للمشكلة .

وذات يوم رأيت أمى تبكى كما لم أرها من قبل .. وتردد اسم خالى أخيها .. حتى ظننت أنه قد

أصيب فى حادث .. أو مات .. وخرجت إلى بيت خالى أتبين الأمر ، فوجدت تجهماً كبيراً من الأقارب وغيرهم .. وهم فى حالة ذهول غريب .

لم أتبين القصة كما أحكيها الآن إلا بعد أن مرت أيام وأيام .

يبدو أن **العمدة** قد حاول مع خالى فى ميراثه من أبيه ما حاوله مع أبى وإخوته حين جرهم إلى الحجز فى " **التليفون** " .. ويبدو أن خالى رفض كما رفضوا، وأن محاولة العمدة كانت سابقة بسنوات للمحاولة مع أهلى . وبالأمس فوجئ خالى بأن أرضه مرهونة للبنك . وأن **البنك عرضها للبيع** .. وأن أهل القصر قد اشتروها فى مزاد لم يحضره خالى .. وأن كلا من أهل القصر قد حصل على الجزء الذى يسوى به جسوره ويعدل حدود أرضه .

وهنا جاءت قصة **فدان الجميز** .. والجميز والتوت فاكتها فقراء الفلاحين كما يقول الشاعر " **للتين قوم .. وللجميز أقوام** " .

وكان ضمن تركة **عطية الشهاوى** لابنه عمار – خالى – فدان يسمى " **فدان الجميز** " وقد سمى بذلك نظراً لوجود شجرة ضخمة تطرح الجميز وتقذفه بلا حساب، تشبع من جوع ، وتروى من ظمأ ، وتدعى فاكهة .

كان فدان الجميز فى زاوية من أرض شقيق العمدة وتمنى لو أضافه إليها فاستقامت الحدود . وكما فعل أخوه مع أعمامى أراد هو أن يفعل مع خالى .. ولكن المحاولة لم تنجح ومضت الأيام ، وظن الخال المسكين أن المشكلة قد حلت ، وأنها أصبحت أثراً من الماضى . ولكن الآن .. وقد فجرت الأزمة ، واستيقظ **خالى** من غفلة على الحل الإجرامى .. الرهن والبيع فقد غدت المسألة مأساة لا يمكن تصديقها .. لقد بيعت الأرض فى خلسة واشتراها عاشقوا الحدود المستقيمة ، ومن جلسة المزاد جاء **رشدى الابن الأكبر ليوسف من المنصورة** .. وأسرع إلى مقابر أسرته بالقرية .. وحوله ناس كثيرون يريدون أن يعرفوا سبب هرولته .. وعند قبر أبيه نادى بأعلى صوته :

" **بابا .. اصحى يا بابا .. أخذنا أبو جمز** " .

وأبو جمز هو فدان الجميز . لقد ظن هذا التافه أنه مثل القائد الفرنسى الذى قال عند فتح دمشق " **لقد عدنا يا صلاح الدين** " .

(٣) مكرم عبيد محامينا

حاولت أن أتجاوز صدمة ما حدث لخالي ، وأن أتفرغ للدراسة .. حتى لا أجهض المحاولات التى سعت لإقناع أعمامى بإكمال محاولة التعليم .. وعندما اقترب الامتحان تنبهت إلى سؤال كبير ، ومشكلة يجب أن أتغلب عليها لأمتحن. كيف سيطلق سراحى من هذه الرقابة العسكرية وأذهب إلى طنطا ؟.

كان حزن أمى كبيراً على ما حدث لأخيها .. ولكنى اقتحمت عليها حزنها وصمتها وقلت لها إننى لكى أذهب إلى طنطا للامتحان يجب أن تذهب إلى ابن خالها **الشيخ محمد ابو ناصر** .. إنه زميل الشيخ **مامون الشناوى** شيخ الأزهر ، وصديقه منذ أيام دراستهما .. إذاً ذهب إليه وذكر له أمرى ، ومشكلة الامتحان لأمكنه أن يجد لهما حلا .

ووافق الشيخ أبو ناصر .. وذهب إلى القاهرة .. وتحدث مع شيخ الأزهر ويبدو أن آخرين ممن طالهم **قرار الحاكم العسكرى** قد حاولوا من جانبهم وعلى قدر ما يملك كل منهم من وسائل ، وتم السماح لنا جميعاً بأداء الامتحان وحين ذهبت إلى **طنطا** التقيت بآخرين من أصحاب المشكلة .. وأخبرونى أن أهاليهم قد رفعوا قضية للمطالبة بإلغاء القرار الجائر .. وأن موعد نظر القضية يأتى عقب الامتحان مباشرة .

وبعد الامتحان انتظرت موعد القضية يوما أو يومين خلالهما كنت أستعيد ما حدث وأحاول استيعابه ، وكان أكثر ما يشغلنى هو السؤال ! لماذا يعاقبنا الوفد هذا العقاب القاس الجائر .. وحين ذهبنا إلى المحكمة فوجدت بأن **محامينا هو مكرم عبيد** .. وأن أهل طنطا جاءوا فى جمع كبير ليشهدوا مرافعته ويتأملوا أسلوبه فى الدفاع الذى أصبح به من أشهر المحامين .

وصدر الحكم لصالحنا ، فإعتبرنا أننا قد أطلق سراحنا من المحكمة ، وأردت السفر لأبشر العائلة وأعلن لهم النهاية الطيبة . ولكن الآخرين من زملاء المراقبة قالوا إنهم سيقيمون حفلاً لتكريم مكرم عبيد وشكره على جهده وعلى تطوعه بلا مقابل للدفاع عنا حتى كسبنا الحكم لصالحنا ..

حاولت أن أقنع نفسى بصحة هذا الاحتفال ولكنى لم أستطع .. كنت أرى أنه قد طعن الوفد لحساب الملك ، وأن **كتابة الأسود** كان أداة تلك الطعنة ولذلك رفضت أن أجلس مع " المتهمين " على المنصة لأكرم المحامى الفذ ، وفضلت أن أجلس بين مقاعد المشاهدين فى **صالة سينما البلدية** .

تحدث كثيرون عن براعة وشجاعة وقدرة مكرم عبيد وشكروه ، ثم قام ليلقى كلمته فطال التصفيق له ، وهو من ذلك فى نشوة غامرة ثم قال :

" اللهم لا شماتة .. بل عبرة وتذكيراً .. اللهم لا انتقام ولكن قصاصا وتطهيرا .. اللهم لا ظلم ولكن فى سبيلك التضحية .. اللهم جهادا فى سبيل عيشة راضية " .

كانت تلك المقدمة تنبئ بأن مكرم عبيد قد أخذ من قضيتنا وسيلة لتصفية حساباته مع الوفد .. وانتظرت على طول كلمته وعرضها أن يتحدث فى موضوع القضية ، وأن يذكر شيئاً عن أسباب قرار المراقبة العسكرية فلم أجده يذكر شيئاً عنها . ولذلك سعدت ببقائى مع الجماهير بعيداً عن المنصة .

(٤) اسم على غير مسمى

عدت إلى قريتى .. وبعد أيام ظهرت نتيجة الامتحان ونجحت ، وكان هذا النجاح مكافأة للذين ساندونى فى المحنة ودافعوا عنى أمام عمى ، وحين عدت وجدت كثيرين تابعوا أخبار القضية ، وخطبة مكرم فى صالة " سينما البلدية " وأصبح الطريق ممهداً لى أكثر من ذى قبل ، صرت أقرب إلى زملائى الذين يتعلمون فى المدارس الثانوية ، وقد أصبحوا جميعاً فى القرية بعد الامتحانات ، وبدأنا إحصاء الطلبة والبحث لنا عن دور فى القرية ، واستقر رأينا أن نتجمع فى شكل " نادى " **للشباب يجمعهم** ويقومون من خلاله بخدمة قريتهم . واستقر رأينا أن نكون " **نادى الشباب المثقف بالبرامون** " والحقيقة أن الاسم كان على غير مسمى ، فلا هو النادى بما يحمله الاسم من معنى ودور متعارف عليه ، ولا هو فى مقر معروف ، ولم نستطع تحديد نشاطه إلا فى شكل عام رياضة وثقافة وخدمة القرية .

وطبعنا لائحة للنادى على قدر ما نفهم اللائحة ، وإيصالات اشتراكات غير قانونية ، وبدأنا من اللحظة الأولى فى أداء مهامنا كما يمكن أن نعرفها .

مشاكل القرية على قدر ما نستطيع تحديدها ، وهمومها على قدر ما نستطع تحمله والسعى إلى الثقافة على قدر مستوى آفاقنا .

وكان أكثر ما نال اهتمام الشباب هو إنشاء فريق لكرة القدم يستطيعون به إقامة المباريات ، والمنافسة مع فرق القرى المجاورة ، ثم جاء بعد ذلك الحديث عن نظافة القرية ، وإنارتها .

واختارونى رئيساً لهذا النادى .

وصرنا نجتمع مرة فى بيت أحد الأعضاء .. وأخرى على **شاطئ النيل أو الترعة** ، وأخذ كل منا يشرف على نظافة الموقع حول بيته ، فأحس بنا أهل القرية وتعاطفوا معنا ، والأكثر من ذلك ..

أن عددا من المتنورين فى القرية الذين يحبون الخير ويسعون فى سبيله قد تعاطفوا مع أعمالنا ، فتحدثت معهم عن إنشاء جمعية نسميها " **جمعية الإصلاح الريفى** " تستطيع حل مشاكل القرية بجدية أكبر، وإمكانيات أكثر وفعلاً انشئت الجمعية ، وكانت لها كافة الشروط القانونية على عكس النادى ، وانضم إليها بعض المدرسين وبعض القادمين المستعدين للتمويل وخدمة البيئة .

وأشهرت الجمعية فى وزارة الشئون الاجتماعية .

كانت بداية عملى فى خدمة القرية مرتبطة برؤيتى للأسرة ، وظروفها ، والمشاكل والمعاناة التى شاهدتها ، وكنت أتمنى أن نعيش فى قريتنا ، فى جو نظيف مثلما يعيش **أهل القصر** .. هؤلاء الذين كانوا أقاربنا ، ثم إن محاولة الانتماء للقرية كان تعويضاً عن انتماء كاذب لعائلة كبيرة يأكل القادر منها غير القادر .

وكان **عبد الرحمن الرافعى مؤرخ الحركة الوطنية** عضواً بمجلس الشيوخ عن دائرتنا فذهب إليه وفد من جمعية الإصلاح الريفى وطلبوا منه نسخة من كتبه يهديها للنادى حتى يعرف الشباب تاريخ بلادهم ، فأعطاها لهم ومعها بعض الكتب الأخرى فى التاريخ والاجتماع لغيره من المفكرين . وأصبحنا من جماهير الحزب الوطنى ، لأننا نقرأ التاريخ فى كتبه التى أصبحت تحت أيدينا .. وأعجبنا **بمصطفى كامل** ، **ومحمد فريد** ، ورفضنا أسلوب **حافظ رمضان** وتضامنه مع أحزاب الأقلية ودخوله معهم الوزارة ، وأصبحت مكتبة الجمعية ، **ومكتبة الأستاذ أبو العز** طريقاً للفهم ودراسة الحياة والأدب والمجتمع والسياسة ، وقد ساعدتنا الخبرة على فرز المرشحين فى الانتخابات طبقاً لاتجاههم فى زيارة القرية ، إذا ذهبوا إلى الجناح الأيمن فى القصر فهم دستوريون أو سعديون، وإن ذهبوا للجناح الآخر فهم وفديون . وكان بعض الطلبة الصغار فى القرية يختبئون فى حقول الذره ويرشقون سيارات الزوار الكبار بالطوب ثم يفرون بعيداً ، وفى معركة انتخابية جاءنى **الأستاذ ابراهيم الشهاوى** ، **أبوه العمده على بك** ، **وأمه أخت عبد الجليل أبو سمره باشا الدستورى** ، قال لى كلاماً كثيراً عن تجربتى فى **المراقبة العسكرية** ، وبدا معجباً بصمودى ونجاحى فى الامتحان ، كان متخرجاً من **كلية الحقوق** ، ويعمل فى مكتب أحد أخواله بالقاهرة .. وفوجئت به يسألنى : لماذا تفرقون بين أبناء القرية ؟ كنا قد كتبنا فى لائحة النادى نصا يمنع انتماء أبناء القصر إلى النادى ، وحين أثار هذه المسألة حدثته عن أسبابها ، وأن مظالم أهل القرية كثيرة وجراحهم تأتى من القصر ، ووجود أبناء هذا القصر سيجعل المشاكل تنتقل من الآباء إلى الأبناء، قال لى : ولكنكم بهذا تحملون الأبناء مسئولية ما يأتيه الآباء .. إنهم صغار ، ولا يمكن أن يتحملوا مسئولية ما يفعله آباؤهم ، وهم يحسون بعزلة ثقيله ، حيث لا يستطيعون مغادرة القصر إلى شوارع القرية .

(٥) البحث عن حزب

بعد انتهاء الإجازة الصيفية كان الرحيل إلى طنطا محملا بمشاعر عزيزه ، أولها النجاح فى الامتحان ، ثم الحكم بإلغاء قرار الحاكم العسكرى ، ثم ما أنجزناه فى القرية ، من تكوين النادى وجمعية الإصلاح الريفى .. ولكن الناس فى طنطا مشغولون بالحزبية والأحزاب ، حزب الوفد وعبد العزيز فهمى باشا ، والأحزاب الأخرى التى كانت تدعى أحزاب الأقلية ، وولاؤها للملك لذلك فقد استبعدت من البداية أما الإخوان فقد خبرناهم .. وإن كان انتشارهم الواسع .. ونظامهم الدقيق يغريان بإعادة الصلات .. وإن يكن هذا على مضض . ويأتى بعد ذلك حزب مصر الفتاه .. شعاره **الله ، والملك .. والوطن** .. الملك بعد الله وقبل الوطن هذا كثير .. وموقفنا من الملك معروف ولا سبيل لنا إليه ، وقد رفضناه من أكثر من ناحية .. أولاً من ميراث الوفد ، وثانياً من تاريخ الأسرة العلوية كما كتبه الرافعى وكتبه تحت أيدينا ، وثالثاً من معاناتنا الذاتية وآخرها القرار العسكرى .. ولهذا فقد كان الملك حاجزاً بيننا وبين **مصر الفتاة** ، وحين ذهبت إلى شعبة مصر الفتاة فى شارع المديرية ناقشت الرئيس فى هذا فقال إن هناك اتجاه لإعادة ترتيب الشعار وجعله " **الله والوطن والملك** " ولكننا أكدنا أنه حتى لو جاء الملك رابعاً أو عاشراً فإن فى نفسنا منه شئ . وكانت تلك أزمنة **الحرب الإيطالية فى الحبشة وليبيا** ، وجرائم إيطاليا هناك ذائعة مشهورة ، فضلاً عن أن لنا عواطفنا مع ليبيا العربية ، والجاره ، ونظراً لعلاقات مصر الفتاه مع **إيطاليا وموسيلينى** والتى تتحدث بها صحف الوفد ، والتى صدقناها لأننا نعلم أن الملك " الثالث أو الثانى فى شعار الحزب " ، كان يميل إلى المحور وكان هذا من أسباب حادث ٤ فبراير .

ولكن أصدقائى من شربين ، وهم من المعجبين **بالأستاذ إبراهيم شكرى** صاحب الرؤية الاجتماعية ، والمنادى **بالإصلاح الزراعى وتحديد الملكية** ، هؤلاء الأصدقاء كانوا سبباً فى تأجيل قرار الرفض النهائى . لذلك فقد أجلت موقفى إلى حين آخر .. أرى فيه رأياً .

اعتقالنا بسبب مقتل أحمد ماهر

أستاذنا الشيخ عبد السلام عامر لا يمكن أن ينسى .. كان له طابع خاص يميزه .. المشية المتئدة ، والحديث الهادئ .. والرأى المتأنى .. وشئ من الصداقة ودفء التعارف والقربى .. ولكن خير ما فيه كان أبناؤه : محمد وكان طالباً معنا بالمعهد الدينى ، وأحمد وكان تلميذاً فى طنطا الثانوية . وقد كان الشيخ يقدمنى إلى الأساتذة من زملائه كأنى ابنه ، وعن طريقه عرفت **الشيخ عبد العزيز جاويش** ، الذى كان أحد خطباء **ثورة ١٩١٩** ، وكنت أرى فى حياة هذا الشيخ الكبير

نموذجاً للبذل فى هدوء والتضحية فى صمت ، والتمرد ، وثورة الروح ، وعدم الرضا المؤدى إلى الإبداع والتجديد ، حتى حين يتحدث فى الأمور الدينية .

وقد تعرفت عن طريق الشيخ عبد السلام عامر بابنيه ، وكان ابنه أحمد فى مدرسة طنطا الثانوية سبيلاً للتعرف على كثير من زملائه أذكر منهم محمد دبور.

كنا نجلس فى حديقة شارع الجعفرية نلعب الشطرنج . نتنسم الهواء بعد يوم الدراسة أو فى أيام الإجازه ، ونتحدث فى الأمور التى تمر علينا .

واقترح أحمد عبد السلام عامر أن نصدر مجلة وطنية للطلبة ، تجمعهم ، وتتحدث باسمهم ، وتناقش لهم وبهم أحداث الوطن كما نراها .

واتفقنا على أن نكون المجلة باسم " مصرنا " وفعلاً ذهبنا إلى خطاط كتب لنا اسم المجلة .. وحفرناه على مربع " كليشه " .. وبدأ كل منا يبحث عن موضوع يشغله ، ويكتب فيه على قدر ما يستطيع الكتابة .. ولكن الوقت لم يكن مناسباً بالنسبة لهذا المشروع . فقد كنا آخر العام .. وانشغل الجميع بدراستهم ، وبعدها انصرف كل إلى حاله فى قريته أو موطنه .. وظلت جمعية مصرنا حلماً يراودنا . وكنت بين هذه المجموعة أدعو إلى البحث عن طريق بين الأحزاب . واقترحوا على أن أقابل الأستاذ رمزى الشوربجى المحامى . والذى كان يرأس شعبة الحزب الوطنى .

وفعلاً ذهبت إليه .. كى نتحدث فى سبب زيارتى له معبراً عن رأى مجموعة من الطلبة تسمى " مصرنا " نريد أن نعرف رأيه فى أحوال البلاد والأحزاب، وإذ نحن نتحدث . دخل البوليس وقبض علينا معا .

كنا مساء السبت ٢٤ فبراير سنة ١٩٤٥ .. وقد علمنا من الضابط الذى داهم مكتب الأستاذ الشوربجى ، أن رئيس الوزراء قد قتل . فقال له الأستاذ وما هى صلتنا بذلك ونحن فى طنطا بعيداً عن القاهرة .. فقال له إن قاتل أحمد ماهر قد ألقى القبض عليه ، وأنهم يتحرون عن علاقته بأفراد أو جماعة ، أو تنظيم .. أو حزب ، وفى قسم " أول " بطنطا عند ميدان الساعة .. قضينا ليلة تحدث فيها الأستاذ الشوربجى عن المشاكل الآتية ، بسبب الحرب والمشاكل المترتبة على انتهائها .

وكان القاتل ويدعى محمود العيسوى ؟ قد أراد وقف الاتجاه نحو إعلان الحرب من جانب مصر ، بينما كان أحمد ماهر يريد إعلانها حتى يضمن مكانا فى المجتمع الدولى الذى سيتأسس بعد الحرب ، وستكون المواقع فيه لمن اشترك وساهم فى هذه الحرب .

الشئ الغريب فى هذه الواقعة أننا قضينا الليلة فى القسم ، وفى الصباح أفرج عنا حيث تأكد لهم أن **الأستاذ الشوربجى** لا علاقة له **بالعيسوى** .. وظل الأستاذ كلما تقابل مع الاستاذ **إبراهيم الشهاوى** يسأل عنى ، ويقول إننى ضحية زيارة فى مكتبه .

٦- شـاطئ الـيـقـيـن

بينما نحن نبحث عن يقين وطريق إلى خدمة الشعب إذا بالشعب يفتح ذراعيه نفس الطريق للباحثين عن الخلاص .. كان عام ١٩٤٦ منذ اليوم لأول عام النضوج و وضوح الطريق ، كنا فى **طنطا** نحن نبض الوطن فى كل أرجائه .. **أحداث الاسكندرية** تأتينا أنباوها وكأننا نشاهدها ونشارك فيها .. إضرابات العمال فى كل مصانعهم ، مظاهرات الطلبة فى كل الأنحاء لإعلان السخط على الاستعمار والحكام ، أحداث طلبة القاهرة ، **مذبحة كوبرى عباس ، ثم إعلان اللجنة الوطنية للعمال والطلبة** ، الحركة فى الشارع والضحايا فى المسيرة ، والقيادة التى تشكلت كانت شاطئ اليقين ، وإجابة السؤال ، وبوتقة اختبار للرأى ، وللفرد وللجماعة ، ولكل تنظيم أو حزب .

كانت أيام الرؤية الصادقة **للحركة الوطنية** وأهدافها ، التحرر من الاستعمار عسكريا وسياسيا واقتصاديا وكان الإجماع الشعبى ممثلا فى العمال والطلبة ... ولكن غياب الفلاحين كان واضحا وكانت النموذج العالمى حيث اعتبر يوم ٢١ فبراير يوما عالميا للشباب تقديرا لما بذله شباب المصريين من تضحية ولما بذلوا من دماء .

وكانت اختباراً حقيقيا لكل الأحزاب والهيئات على اختلافها . **الملك وحكومة صدقى** وأحزاب الأقلية ، أصبحوا جميعا فى جانب وبقية الشعب فى جانب آخر ، أما الوفد فقد كانت هذه الأيام تشهد ميلاد **الطليعة الوفدية** لتضع بقية الوفد فى مكانها الصحيح .. وتفرز الصالح الباقى من هذا الحزب أما الإخوان فقد كشفوا عن وجوهوهم .. أداة للنظام ... وعداء للشعب .. فكونوا ما أسموه اللجنة القومية فى مقابل اللجنة الوطنية للعمال والطلبة ، وعملوا على تغطية صدقى وستر طبيعته ودوره فسار **مصطفى** موسى إلى كل الانحاء يدعولصدقى :وجاء إلينا فى طنطا وسمعته يطالب بإعطاء فرصة لصدقى ثم قال الآية " **واذكر فى الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد**" وأصبح واضحا **أن اللجنة القومية** ليست أداة إخوانية فحسب بل هى أداة فى يد **صدقى** تساعده على الاستمرار فى مفاوضات صدقى بيقين ، وتعطيه الحجة والذريعة لضرب الشعب واعتقال قياداته ، وإقفال الصحف والمجلات الناطقة باسمه.

وفى الحقيقة فإن الحركة الوطنية قد صححت صورة النزاع فى المجتمع ، ووضعته فى إطاره

الحقيقى ، فالحكومة الوطنية برئاسة "صدقى" والملك بعد هزيمة الألمان وإيطاليا فى الحرب العالمية قد اتجها إلى أمريكا وانجلترا ، ومع صدقى والملك أحزاب الأقلية ، ورجعية الوفد ثم الاخوان المسلمين ، واتجه الشعب إلى التحرر والاستقلال بكافة فئاته وطبقاته "ولم يكن دور الفلاحين واضحا ملموسا ، فى كل هذا . وبالنظر إلى هذا النزاع والقلق الاجتماعى فقد كان يجب أن يكون فى مقابله نزاع فكرى يوازى قنوات الصراع السابقة .

وهنا فإنه إضافة إلى غياب الفلاحين عن حلبة الصراع المكشوف فقد كان القصور الفكرى والتعبير غير الواضح والدقيق أو المضطرب عن أفكار الفئات الاجتماعية قد أعطى الصراع السياسى شيئا من عدم الدقة ومن القصور والعجز عن الاستمرار نظرا لعدم بلورة جوهر الصراع وأبعادة ، وأصبح هذا العجز عاملا من عوامل الأزمة بدلا من أن يكون عنصر تطوير وتقدم ، لأن عدم اكتمال صورة النزاع الاجتماعى ، وعدم اتضاح صورة النزاع الفكرى قد أديا إلى قصر أجل اللجنة الوطنية للعمال والطلبة لقد كانت هذه اللجنة شكلا جديدا للقيادة الجماهيرية للحركة السياسية فى مصر و كانت شكلا مختلفا عن قيادة الثورة العرابية وكانت أيضاً مختلفة عن قيادة ثورة ١٩١٩حيث برز دور اليسار كقوة أساسية فى الحركة الوطنية ، وحيث برز دور المرأة التى هى نصف المجتمع ، وبرز أيضا دور المسيحيين امتدادا لدورهم فى ثورة ١٩١٩ .

ولم يعد دورهم ملحقا بالعمل السياسى ، بل تعبيرا حقيقيا عن حركة جماهيرية فاعلة . وأيضا برز دور المشاركة الجماهيرة الواعية واستقلالها عن توجيه السلطة وعن تأثير الأحزاب القديمة . وفى النهاية فقد ربطت المطالب الوطنية بالحركة الاجتماعية ، والتحرر الوطنى بالكفاح المسلح .

ورغم التناقض العديدة فإن هذه الفترة تعتبرفترة توازن فى مجال العلاقات الاجتماعية ، كما تعتبر فترة توازن فى مجال العلاقات الفكرية .

كانت اللجنة الوطنية سببا من أسباب هذا التوازن ونتيجة له فى ذات الوقت ومن أبرز مظاهر هذا التوزان انحسار دور الإخوان بدأ انكشافها وانقسامها بسبب التوازن الفكرى والاجتماعى ، واتضاح أن ليس فى نشأتها ما يدعو إلى التردد إزاءها والثقة بهما فقد نشأت فى حضن الملكية والاقطاع داخليا وكانت ولاءاتها الخارجية فى اتجاه معاكس لمصالح الوطن .

٧- قضية اللمم وراسبوتين الاخوان

أستاذنا **الشيخ عبدالسلام عامر** كان رجلا طيب القلب ، يحمل صفات بلده رشيد الهدوء والأصالة ، كنت قد استقر عزمي أن أبتعد عن الإخوان المسلمين ، وبخاصة بعد موقفهم من **اللجنة الوطنية للعمال والطلبة** ، ولكنى سألته عن رأيه فى الجماعة فقال لى يمكن أن تسأل هؤلاء الذين يغادرونها فوجا بعد فوج .. أنقسامات متتالية لأسباب مختلفة ، ولكن مجموع هذه الأسباب تمثل الرأى الكامل فى الجماعة ولا ينبئك مثل خبير ، فالرأى فى الأخوان من داخلهم ، أكثر موضوعية من رأى الأعداء السياسيين من الخارج ، ورغم أن إنحرافات وكيل الجماعة الأخلاقية كانت شأنا فرديا يمكن مواجهته فلا يحسب على الجماعة بل يحسب لها ، إلا أن طريقة المواجهة جعلت من إنحراف وكيل الجماعة شأنا عاما يشمل الجماعة كلها ، فهو فضلا عن كونه وكيل الأخوان ، إلا أنه صهر المرشد العام وإنحرافاته لم تكن بعيدا عن الجماعة ، وفى منأى عن أعضائها ، فقد اشتكى أعضاء المكتب من أن **وكيل الجماعة** يستغل سلطته فى انتهاك حرمة البيوت الإخوانية وأعراض الإخوان أنفسهم ، ولو أن هذه الانحرافات على رغم بشاعتها وأتساع أفقها قد وجهت بحزم ورأى أمين لما نال الإخوان منها سوء ، بل لكانت هذه المواجهة فى مصالحهم . ولكن المرشد تصدى للدفاع عن صهره مستخدما الآيات القرآنية بنفس منهج "، اذكر فى الكتاب **إسماعيل** الخ" فقد برأ المرشد ساحة **عابدين** بالآية "**الذين يرتكبون كبائر الأثم والفواحش إلا اللمم** " واللمم هو الصغير من الأخطاء وأصبحت قضية الفساد فى الجماعة تعرف بقضية "**راسبوتين**" ، ولم تعد سرا داخليا ، بل إن جريدة "صوت الأمة " الوفدية نشرت صورة زنكونوغرافية لقرار لجنة التحقيق الإخوانية فى انتهاك الاعراض ، وشذوذ أحد ابرز قادة الجماعة ، وذكرت الجريدة أنه يبيت فى معسكرات الشباب باسم الدعوة وتحت شعار "**الحب فى الله**" .

٨- أغنية " ياللى أمك عاشقة اثنين "

عدت إلى القرية ومعى يقينان : الأول ، أن أمور وقضايا الوطن تحل بنموذج **اللجنة الوطنية للعمال والطلبة** ، والثانى ، أن الأحزاب على الساحة لا تصلح أداة لتحقيق اليقين الأول ، ولهذا فقد واجهت محاولة إنشاء شعبة للإخوان بالقرية ، معتمدة على عصبيات ومراكز قوى وأشخاص بعيدين عن الدين والتدين ، وإنما يتم اختيارهم ، استخداما للعصبية وحماية للشعبة التى يرون زراعتها .

وقد واجهنا المحاولة ، وخرج الإخوان من المسجد **يوم الجمعة** بخفى حنين بعد أن عجزوا عن الإجابة على تساؤلاتنا عن موقفهم من "سرسق " الذى يملك أغلب أرض القرية ، وكانت رؤية

الفلاحين والعمال الزارعيين واضحة إزاء سرسق ، ولهذا كانت عملية التهرب من مواجهة المشكلة إعلانا لفشل الجماعة فى الوصول إلى قضايا الناس ، وتبينها .

كان الفلاحون ينشدون أغنية عن "سرسق" منها

يا ريتنى حصان فى بيت سرسق

أكل فزدق وأكل بندق

ولا أكون خدام ورا ولا قدام

ياريتنى حصان فى بيت سرسق

وحين واجهنا ممثلى الجماعة فى المسجد وطالبناهم بتحديد موقفهم من الملك، والفساد الذى ذاع وشاع وغنت به فتيات القرية فلم يجدوا جوابا :

ملك الملوك يا فاروق

ملك الملوك يا زين

يا اللى أمك عاشقة اثنين

على ماهر وأحمد حسانين

يا مليكنا تعيش لينا

وقد ساعدنا على افشال محاولة إنشاء شعبة فى القرية أموان .. أحدهما اعتماد الجماعة على أركان العصبية ، ورؤيتنا لماضى الجماعة ، وكان علينا نحن أعضاء النادى أن نثبت للأهالى نوعا من الاستقلال عن القيادات السياسية الفاسدة قديمها مثل أحزاب الملك وحديثها مثل الإخوان المسلمين .

٩ - الاختبار بالكوارث

كانت روح الحركة التى انتقضت عام ١٩٤٦ ما تزال تنبض بأحداث جسام على جبهتين . الجبهة الأولى ، وسيلة حل المشكلة الوطنية ، والوقوف فى وجه الأطماع الاستعمارية ، والثانية وسيلة حل مشاكل الجماهير ، الغاضبة وطنيا المستنهكة فى حياتها وأسلوب معيشتها ، فإذا كانت الجبهة الأولى قد تردت إلى حضيض وستنقع بعد سقوط صدقى ، وفشل مفاوضاته مع بيفن فإنها قد ازدادت ترديا بمزيد من التسليم والاستسلام على يد الحكومات التى تلت صدقى ، وانحدرت الممارسات السياسية الداخلية التى تبين أن هدفها الأول هو الحكم ، فالنقراشى يذهب ويجئ من مجلس الأمن

ويكذب مدعيا انتصارات موهومه ، ولكن المظاهرات من الطلبة والعمال أفسدت عليه أكاذيبه وفضحت أسلوبه . وفى مواجهة الفشل الحكومى فى الجانب الوطنى وفى حل مشاكل الجماهير شهدت البلاد سلسلة عنيفة من الاضرابات شملت كل أرجاء البلاد من **القاهرة إلى الاسكندرية إلى المحلة الكبرى** ، وساهمت فيها كل الطوائف من العمال والطلبة ، وموظفو البريد والبرق والمدرسون فى كافة المدارس ، والممرضون والممرضات ، وهدد **القضاة بالإضراب** ، وكذلك **فعل صولات وضباط الجيش** أواخر العام . أما **ضباط البوليس فلم** يكتفوا بالتهديد بل أضربوا فعلا .

واضطربت البلاد فالإضرابات تواجه بالبطش والقتلى والاعتقالات ، خصوصا إضرابات العمال .. وإضرابات البوليس يستخدم الجيش لقمعها ، وحين يصبح البوليس غير مؤهل معنويا لضرب انتفاضات العمال يستدعى الجيش لقمعها وإذا كان غير مؤهل معنويا لضرب انتقاضات العمال يستدعى الجيش لقمعها أيضا كما حدث **بالمحلة الكبرى وشركة الغزل الأهلية بالإسكندرية** .

وانتهى عام من تاريخ مصر لم تشهد مثله البلاد على طول التاريخ بأحداثه الجسام ، ولكن نهايته كانت اختبار أ من نوع آخر ، الكارثة المأساة .. **الكوليرا**

لأمر ما ظهرت الكارثة الوباء (**الكوليرا**) فى قرية "**القرين**" القريبه من **معسكرات القوات البريطانية فى القنال بالشرقية** ، وكان ظهور **الكوليرا** فى هذا الوقت ، والبلاد وتغلى وتفور وفى هذا المكان القريب من أيدى قوات الاحتلال داعيا إلى التفكير والتأمل ، حيث بدا للناظر البسيط أن الوباء يراد به إنهاك الأمة واسكاتها ثم إخضاعها .

فى أيام قليلة اجتاح الاعصار كل المدن ، وأنتشر فى أكثر من آلفى قرية وأعطت سرعة الانتشار مؤشرا جديدا إلى اليد التى زرعته فى القرين ، وبينما كانت المظاهرات والاعتصامات والإضرابات تنسب إلى الشيوعين بحق أو بغير حق ، كان يجب أن ينسب الوباء إلى صانعيه ، ولكن من يملكون الأمر ، وبيدهم امكانات التحرك والبحث تركوا لأمر ما أيضا أصل الوباء وفصله لطلاسم التاريخ . وعلى أية حال ، فقد أثبت الوباء الكارثة أن مستوى المعيشة المتدنى ، وحال القذارة التى تعيش فيها الأحياء الشعبية والقرى كانت فوق الطاقة والاحتمال . ،أن ثورة الذين ثاروا لأسباب وطنية أو معيشية كانت لأسباب موضوعية . وأثبت الوباء الكارثة أيضا أن أسلوب القتل والاغتيال ، والحرائق هى من بين وسائل **الاستعمار البريطانى .. مارسها فى الهند** ، ويمارسها الآن فى **مصر** لاسكات النهضة الوطنية .

وكان جديرا بنا فى قريتنا أن نبحث عن طريق للعمل وأن نواجه الوباء باعتباره فى **البرامون** قضية خاصة بها ونثبت فعلا أننا، جديرون بخدمتها بالعمل لا بالقول .

كانت أخبار الوباء تنتشر بنفس سرعة انتشاره ، ولهذا وعلى عجل أخذنا فى مواجهته قبل أن يأتى .. اجتمعنا .. وقررنا ... وتحملنا المسئولية دون خبرة أو معونة خارجية .

وبما نعرف من أمور الوقاية كنا نقوم بتنظيف الشوارع بعد أن قسمنا القرية إلى مناطق .. عن كل منطقة مسئول من بين أعضاء النادى ، لم نكن موجهين مرشدين نتعالى على الناس ونأمرهم ، بل كنا نعمل بأيدينا فى النظافة ورش مخلفات الحيوانات "**وأكوام السباخ**" بالجير ، ورش البركة المجاورة للقرية عند ماكينة الطحين بالجاز وحرق أكوام القمامة ، ومراقبة مداخل القرية ومخارجها ، ومنع دخول أى غريب إلى القرية . وإعدام أى مواد يشتبه فى حملها للميكروب ، ووضع أهل القرية القادمين من جهات أخرى تحت الملاحظة فى خيمة بفناء **مستشفى القرية** ، وبالاشتراك مع جمعية الإصلاح الريفى كنا نعمل فى تثبيت قوائم الفوانيس التى تضاء ليلاً لتنير الطرقات وتساعد فى أعمال الرقابة الصحية وشاركنا فى اكتتاب لتمويل شراء مواد وأساليب الوقاية والإنارة . وكان رئيس الجمعية أحد أبناء أعمام أبى : **عبدالباسط الشهاوى** ... كان وفديا حتى النخاع يدمن قراءة جرائد الوفد ويحفظ تاريخه ، وكان بيته بجوار بيتنا فكان يعطينى **جريدة المصرى** لأ قرأها واعيدها ليحتفظ بها ، وكان شديد الولع بالخدمة العامة ، أتخذ من **جمعية الاصلاح الريفى** وسيلة لعمل كل شئ نافع للقرية ، فض الخصومات ، وإصلاح ما بين الناس وإعانة المحتاجين ، وتوزيع الصدقات ، وحين جاء الوباء ، أعجب بأبنائه أعضاء النادى فساندهم ، وباشر معهم كل صغيرة وكبيرة ، وتدخل بين الشباب والعائلات التى ترفض تنفيذ قرارات الوقاية ، وساندنا ماديا فى الحصول على ما نحتاجه رغم ندرة مواردنا ، وكان يمر كل صباح على كل الفوانيس بالقرية ، يأمر بإصلاح الاعطال وتغيير ما يكون قد فسد أو تحطم ويمر ليلا ليتأكد من صلاحية الإضاءة ، وفعاليتها . ويحث أعضاء الجمعية على المشاركة مع الطلبة بأيديهم وإمكانياتهم . وأصبح يعرف بين الناس **عبدالباسط فانوس** .. وكانت تسره هذه التسمية وتضحكه رغم قلة ولعه بالهزل والمزاح ، ويقول ها أنا أنير لكم الطريق .

ونجحنا ... لم تجد الكوليرا إلى قريتنا منفذا ، ولم يمت إلا واحدة من **بائعات "البلح"** كنا قد فرضنا حظرا على بيعه ، وأردنا إعدام ما عندها منه ، ولكنها خبأت كمية لم تستطيع بيعها حيث فرضنا حراسة على بيتها لمنع أى بيع أو شراء منها .. ويبدو أنها أكلت مما خبأته فماتت ، وبعد موتها قمنا بتطير بيتها ووضع بقية أسرتها تحت الملاحظة فى المستشفى ، وبهذه الحادثة الوحيدة أصبحنا

أهم تجربة فى مكافحة **الكوليرا** بالجهود الذاتية فى مصر كلها .. كان تعداد مصر فى هذا الوقت يبلغ **عشرة ملايين** نسمة حصدت الكوليرا منهم ربع مليون ٢,٥٪ من تعداد السكان ... ولكن قريتنا ضربت الرقم القياسى حادثة واحدة من تعداد ثلاثة آلاف .

١٠ - تمويل مشروع المدرسة حسب الجاموسة أو بعدد الأفدنة؟

أصبحنا نعد فى مصاف الرجال القادرين على تحمل المسئولية وارتفعت قيمتنا كمتعلمين ، وأصبح لتعليمنا جدوى ، وكان دور أعضاء النادى فى مواجهة وباء **الكوليرا** يعتبر دعوة إلى نشر التعليم ، وكان من أكبر العوائق ضد التعليم هو الفقر المنتشر ، وذهاب الأبناء إلى **المنصورة** حيث **المدارس الابتدائية و الثانوية** يكلف الناس مالا طاقة لهم به ، فإذا نحن أتينا بالمدرسة إلى القرية بدلا من أن تذهب القرية إلى المدرسة فى المنصورة و خف العبء كثيرا ، وانتشر التعليم .

وطرحنا فكرة إنشاء مدرسة إعدادية بالقرزية ، وكانت سمعة النادى والجمعية أهم أسلحة نجاح هذا الطرح ، وبدأ الكبار فى الجمعية يتحدثون مع الآخرين من أهل القرية فى المشروع والبحث عن التمويل .

وكانت أولى العقبات التى ذللناها هى العمالة فى عملية البناء حيث دعونا إلى أن يكون العمل تطوعا من كل الأسر والعائلات ، وثانى هذه العقبات كانت الموقع ، فاقترحنا أن تبنى المدرسة فى مكان وسط القرية كان فى الزمن الماضى مقابر .. وبعد توسع البناء حول التل نقلت المقابر خارج القرية وأصبح المكان القديم مجال لأكوام السباخ وفضلات الحيوانات والقانورات ، وتعهدنا باعداد الموقع وتنظيفه بالجهود الذاتية ، وبذلك نتغلب على المشكلة الثانية .

وبذلك انحصر البحث فى مواد البناء وأجور العاملين الذين لا نجد منهم أحدا بالقرية ، فبدأنا الدعاية للمشروع فى المسجد بعد **صلاة الجمعة** ، وفى الأحاديث الدينية والشعر الحماسى فى **المولد النبوى** مثلا .

كنا نحاول أن نعطى هذه الاحتفالات مظهرا يشير إلى أنها من أعداد أعضاء النادى، وأن الأفكار المطروحة هى وجهة نظر أبناء القرية المتعلمين وكنا نتعمد أن يحضر كل الأعضاء هذه الاحتفالات ، وأن يكون لكل منهم دور يقوم به ، فإذا كان الاحتفال بالمسجد بدأ بالأناشيد الدينية مثل "طلع البدر علينا" حيث يقوم بالانشاد صغار التلاميذ ، وكان من بينهم التلميذ **محمود شريف** الذى

أصبح فيما بعد من **كبار الأطباء ثم محافظا ووزيرا** ، وبعد الإنشاد يكون حديثى عن العلم والتعليم ، وقول النبى : **اطلبوا العلم ولو فى الصين** .

ثم يأتى دور شيوخ القرية وثقاتها من أعضاء الجمعية يتحدثون إلى الناس ويطلبون منهم المساهمة . كان أبى هو **أمين صندوق الجمعية ، والشيخ سيد أحمد شريف ، والد الصديق محمد وشقيقه محمود** كان مسئولا عن جمع الأموال وأمين صندوق مشروع المدرسة .

وحين أصبح المشروع فكرة مقبولة ، وأصبح تنفيذها ممكنا تدخل **العمدة** ليكون له دور ، وفى أحد الاجتماعات بالمسجد بعد صلاة الجمعه اقترح أن يدفع كل فلاح يملك جاموسة جنيها عن كل رأس ماشية ، ولكنى اعترضت على هذا الاقتراح ، وأوضحت أنه يعنى تحميل الفقراء عب التمويل . بينما يكون من العدل أن تكون المساهمة حسب ملكية الأرض ، عن كل فدان جنيهان ، وبذلك يعطى كل مالك حيب قدرته . وقلت إن العمدة لا يملك رأسا واحدا من الماشية فكيف ستكون مساهمته إذا كانت المساهمة حسب رؤوسها ؟

وصفق الناس فى المسجد ، ولكن خشيت أن يكون هذا داعيا لانصراف العمدة عن المشروع ، ووجوده يعتبر مكسبا كبيرا ، وحتى لا نخسر دوره قلت إن الهدف الأساسى من تحديد المساهمة على الفدان هو فرض هذا التحديد على **سرسق** وتفتيشه بالقرية ، وهذا يعطينا إمكانيات كبيره ، ويخفف العبء عن القرية ويضمن نجاح المشروع ، إذ أن له عندنا أكثر من ألف فدان ، وماسنفرضه عليه طبقا لهذا الواعد سيكون مبلغا مؤثرا . ومن حول العمدة أعلن الناس موافقتهم ، واعتبرنا هذا تصويتا على قرارات لا سبيل إلى تجاوزها .. وبدأت خطوات التنفيذ لقرارات المسجد .

أولا : تكونت لجنة من الطلبة لإحصاء ملكيات الأهالى من دافع دفاتر الصراف ، وتحديد نوعية الحيازه وهل هى ملكية أم إيجار ؟

ثانيا : تكونت لجنة من الجمعية عمادها من المدرسين أعضاء الجمعية وذلك للذهاب إلى "الخواجه" "ماكيه" مفتش تفتيش **سرسق** وإخطاره بنصيب التفتيش فى **مدرسة القرية** المزمع بناؤها وبدأت اللجنتان فى العمل فوراً .

وذهبت اللجنة الثانية إلى عزبة " **القصر**" وهذا هو اسم مركز التفتيش . وقابلوا الخواجة ، وقدموا إليه مذكرة بالموضوع ، وفى صباح اليوم التالى تلقى أهالى القرية صدمة كبيرة ، فقد صدر قرار من مديرية التعليم **بالمنصورة** بنقل المدرسين أعضاء الجمعية إلى بلاد نائية فى أقصى **مديرية الدقهليه** وأصبح المشروع فجاة على كف عفريت ، فلم يكن فى حسبان أحد أن رد فعل **"الخواجة"**

سيكون بهذا الحد من العنف ، ولم يكن كذلك فى الحسبان أن **مديرية التعليم** ستكون إلى هذه الدرجة أداة فى يد " **الخواجة** " .

١١ - من قتل ماكيه ؟

عبدالبديع أبو خليفة شخصية فى القرية لا يمكن لمن رآه وتعامل معه أن ينساه متحدث لبق ، محيط بالأسرار ، يعرف معنى الصداقة والعداء ، وهو أيضا من النوع المرح ، يتحدث عن **المعارك الحربية** التى عاشتها **مصر** أيام الغزو النازى فى **العلمين** ، والصراع بين **ألمانيا وانجلترا** فى **العلمين** ، ويصف هذه المعارك بأسلوب وصف الصراع بين **أبو زيد الهلالى** وأعدائه .. ويصف **اسطول انجلترا البحرى** بأنه **أسطول (الدعامرة)** ، ولا نعرف من أين جاء بهذه التسمية ، ولكن أهل القرية جميعا يحبونه ويستمعون إلى حكاياته وأساطيره وهو يعمل مقاول أنفار لتفتيش سرسق ، وحين حدث ما حدث للمدرسين فوجئت القرية صباح اليوم التالى بسيارات نقل تحضر إلى القرية ، وتجمع العمال ، وتذهب بهم إلى تفتيش الخاصة الملكية فى "طرانيس" القريبة من قريتنا ، ولم يكن عبدالبديع حاضرا عندما جاءت السيارات ، ولم يعرف أحد كيف رتب هذا الأمر .. وأصبح على الخواجة ماكيه ، أن يبحث عن عمال يقومون بالعمل فى التفتيش .

وفوجئ "**الخواجه ماكيه**" ، برد الفعل .. وكان من عادته كل صباح أن يصعد إلى أعلى "**وابور المياه**" وينظر خلال نظارته المكبره إلى أنحاء تفتيش سرسق ليراقب سير العمل .

لا نعرف ماذا رأى ، ولا فى ماذا فكر .. لابد أنه صعق حين رأى التفتيش بغير عمال ينعى من بناه ، ولابد أنه لم يصدق ما رآه ، وأغلب الظن أنه فكر فى الانتقام من هذه القرية المتمردة . وإذ هو ينظرويتدبر ما يدبر انطلق من بين أعواد الذره فى الزراعه المحيطه "بوابور المياه" طلق نارى أصابه فى مقتل ، وتهاوى "ماكيه" من أعلى " **الوابور**" إلى الأذرة حيث يقبع قاتله ..

حتى اليوم لا يعرف أحد من قتل "**ماكيه** ".

حوصرت القرية بقوات لم تشهدها من قبل .. خيالة .. وهجانة .. ومشاة ، وضباط من كافة الرتب ، ومسئولون من المديرية ، ووكلاء نيابة .. وبدأت عمليات قبض عشوائيه على كل من يظن أن له يدا فى الأمر ، وحتى هذه فإننا لا نعرف من الذى يوزع الشبهات والظنون واستخدمت أنواع من التعذيب والإرهاب .

الغريب أن فيالق الحصار ، وفرق البحث والتفتيش لم تعثر إلا على " **فردة** " حذاء بجوار جثة

ماكيه .. وأصبحت هذه الفردة هى مفتاح اللغز ، صوروها وحاولوا أن يجدوا عليها بصمات ، وأصبح كل من يقبض عليه يفتش بيته بحثا عن "الفردة الأخرى" وتقاس على قدمه ، مثلما فعل أمير حكاية سندريللا ليعرف المحقق إذا كانت له أم لغيره .. كل المشتبه فيهم قيست على أقدامهم "فردة الحذاء" وفتشت بيوتهم .. فلم يعثر على الثانية .

واستمر الحصار ، ومنع التجول ، وتقررحرمان الفلاحين من الذهاب إلى أرضهم ، وكذلك كل من يعمل داخل القرية أو خارجها .

فى النهاية قيدت قضية مقتل "ماكيه" ضد مجهول .

وأصبحت المشكلة هى كيف سينظم العمل فى التفتيش .. إنه لكى ينتظم العمل لابد من مفتش ، حتى العمال الزارعيون لكن يذهبوا للعمل هناك لابد من مفتش ، وحين عرض المنصب على "خواجه" آخر اشترط أولا : دفع المبلغ المطلوب للمدرسة ، وثانياً إعادة المدرسين المنقولين إلى مدرستهم فى قريتهم .

وهكذا من حيث أراد صانعوا قرار النقل أن يكونوا فى خدمة سرسق ، وجدوا أنفسهم فى خدمة قرية تريد بناء مدرسة .

وعاد المدرسون ، وعاد عمال الزراعة إلى التفتيش وبقى الجانب التنفيذى لإنشاء المدرسة ، وحتى الآن لا يعرف أحد من أهل القرية من الذى أطلق النار ولا لمن كان الحذاء ، واستمر عبدالبديع أبو خليفة يوزع نكاته ، ويتحدث عن أسطول الدعامرة .

وأصبح من التقاليد المتبعة حين يشب حريق فى القرية ، ويقوم أهلها بإطفائه قبل أن تحضر سيارات الحريق من المراكز أن يهتف الناس "يحيا رجال البرامون" يحيا اتحاد الفلاحين .

١٢ - بداية اللقاء بالتنظيمات السرية

حين عدت إلى طنطا أول العام الدراسى الأخير لى فيها كنت أحمل بين جوانبى صورة القرية ، وعبير ريحها ، وعبق ناسها وأرضها مختلطا بذكريات السياسة وبأحاديث الكفاح والنضال .. عينى دائما عليها هذه القرية الرائعة .

كنت أرى العمل فى القرية مجرد مقدمة أو تدريب على العمل فى ميدان السياسة .

وكان يأتى من الاسكندرية "مدرس" يلتقى مع مجموعة من شباب طنطا الثانوية يعطيهم كتبا صغيرة عن الماركسية ويتحدث فى محاضرات شارحا موضوعات هذه الكتب ، وقد

حدثنى صديقى **أحمد عبدالسلام** إبن إستاذى **عبدالسلام عامر** عن هذه الكتب .. وأعطانى ما يصل إليه منها .. لم يكن يعرف اسم هذا المدرس ولم يكن يعرف ماذا يمثل حين يجئ إلى **طنطا** .

طلبت منه لقاء هذا الرجل فأمهلنى حتى يخبره برغبتى ، وحضرت معه لأستمع إلى المدرس فى محاضراته .. وأدهشنى أننى أعرف كثيرين ممن التقيت بهم الآن ، رأيتهم من قبل مع **أحمد السلام** .. وكان بعضهم أعضاء فى جمعية "**مصرنا**" التي لم تزد حين جاءت عن مجرد "**كلبشيه**" وبقيت كذلك حتى ذهبت .

عرفت أن هذا الاجتماع يتم باسم **تنظيم سرى** ، ونظرا لخبرتى السابقة فى أمور القبض والاعتقال ، والمراقبة العسكرية فقد ناقشت مع **أحمد** أهمية السرية فى هذا الأمر وضرورة معرفة مع من نعمل . وماهى برامجهم وأهدافهم .. وما لم نحصل على رد كاف على تساؤلاتنا فستكون علاقتنا بهم مجرد القراءة ، والاستفادة الفكرية .

حين اطمأن المدرس إلى تساؤلاتنا أخبرنا بأنه يعمل فى تنظيم سرى يقوده **هنرى كورييل** ، وأنه صاحب مكتبة فى **ميدان مصطفى كامل بالقاهرة** وحز فى نفوسنا أن تكون قيادة هذا العمل غير مصرية ، وفوق هذا أن تكون **يهودية** ، وقد كانت مأساة حرب **فلسطين** ، فى أعقاب عام اللجنة الوطنية للعمال والطلبة ثم بعده عام الإضرابات والصدامات العارمة ، ثم وباء **الكوليرا**.كنا نعلم أن المعركة ليست بين **دين ودين** ، أنها معركة حرية لا مصيدة تعصب وانغلاق ، وأن حقوق الشعوب تأتى بالحرية والتحرر الفكرى ، والنضال المستنير . ولكن القيادة السياسية لأى تنظيم فى ذلك الوقت يجب أن تحترم الظروف ، وأن تنأى بنفسها عن الشبهات ، ولذلك فإن وجود **يهودى** فى قيادة عمل تحررى **مصرى** فى مثل هذه الأيام مرفوض شكلا وموضوعا ، إلا إذا كان الفرض من هنا الوجود زرع الاتهامات والشكوك حول أهداف التنظيم الذى يقوده .

وعلى أية حال فقد انتهى **العام الدارس** ، وأنهينا وجودنا فى **طنطا** ، وأصبح علينا أن ننظر فى شأن التعليم بعد ذلك

الفصل الثالث

١ - الرحيل للعاصمة

ونجح صديقى محمد شريف فى الثانوية العامة وواجهنا معا قضية، متماثلة . وبالنسبة له أراد خاله الحاج عبد الحافظ أبوالعطا أن يعينه كاتبا فى المستشفى حتى يخفف العبء عن أبيه ، ويعطى لإخوته فرصة مواصلة التعليم . وبالنسبة لى فقد أثار عمى التوأم مسألة إمكانية مواصلة التعليم بالقاهرة ، وقرر أنها أعباء لا طاقة للأسرة بتحملها . وقررنا معا أن نقوم بمغامرة .. نذهب إلى القاهرة ونقدم أورقنا ، هو إلى كلية الآداب ، وأنا إلى كلية دار العلوم .

كان محمد شريف قد نجح فى الثانوية العامة بدرجات عالمية تعطيه الحق فى المجانية إذا دخل الجامعة ، أما أنا فقد كان الدخول إلى دار العلوم يحتاج لا متحان آخر وإجتياز مسابقة بين المتقدمين إليها .

كانت دار العلوم قد أصبحت إحدى كليات جامعة فؤاد الأول (القاهرة) إلا أنها رغم أنضمامها للجامعة كانت تعطى كتب الدراسة مجانا وتدفع آخر كل شهر لكل طالب ثلاثة جنيهات مع وجبة غذاء يوميا ، وكانت هذه كلها مميزات ومبررات لمحاولة دخولها .

واتجهنا معا إلى القاهرة ، حيث استضافنا أحد أبناء القرية من أصدقائنا **يدعى إبراهيم دياب** ، وكان مجندا ، يعمل فى وزارة الحربية فترة تجنيده ، وكانت الوزارة بجوار ضريح سعد ، فذهبنا إليها ، وسألنا عنه ، واستضافنا بالوزارة حيث يعيش ويبيت .. نتخذ منها ملاذا للنوم ليلا بينما نسعى نهارا فى شئوننا .

قدم محمد شريف أوراقه بكلية الآداب قسم الاجتماع ، أما أنا فقد كان على أن أعود بعد أيام للمسابقة المؤهلة لدخول الكلية ، وإلى أن يحين الموعد عدنا إلى القرية بعد أن نجحنا فى وضع أهلنا أمام الأمر الواقع بشأن مواصلة التعليم ، وحينما عدت للمسابقة كنت وحدى ضيفا على وزارة الحربية ونجحت فى المسابقة ولكن لم يدرج اسمى ضمن المقبولين بالكلية ، وتبين أن هناك عددا آخر من الناجحين لم يقبلوا .

٢ - إعفاء الاخوان من المسابقة :

كان الإخوان المسلمون فى أعقاب التأييد الكبير والمساندة العظمى التى قدموها **لصدقى والملك ، وكان إبراهيم عبدالهادى رئيسا للديوان** ، وقدم له حسن البنا قوائم الإخوان من

خريجى المعاهد الدينية المتقدمين لدار العلوم .. وأصبحت هذه القوائم بديلا لامتحان المسابقة .. ولكن الذين نجحوا ولم يتم اختيارهم أثاروا ضجة فى الصحف ، ولدى إدارة الجامعة ، ووزارة التعليم **(المعارف)** مما اضطرإدارة الكلية لقبولنا .

وبدأنا العام الدراسى ، أجرنا حجرة فى حى **الجيزة** القديم كانت سكننا معا **(شريف وأنا)** حتى تفتح المدينة الجامعية أبوابها فيذهب هو ، وتبقى الحجرة لى وكان أحد مفتشى وزارة العمل واسمه الأستاذ **إبراهيم حنبل** قد انتسب إلى **كلية الآداب قسم اجتماع** ، وهناك التقى مع **محمد شريف** وأصبحا صديقين ، وعن طريقه دبرلنا عملا .. محمد فى شركة فيات بجوار **"أخبار اليوم"** وأنا **بشركة اسكاكال بالسبتية** نعمل بهما بعد الظهر ، وبذلك تكون مسألة تمويل تعليمنا قد حلت تماما .

٣- نتائج الماضى مقدمات المستقبل

بعد أن استقر بنا المقام ، وحصلنا على نوع من الاطمئنان فتحت كشف حساب عن الماضى فى أربع اتجاهات .. **الاتجاه الأول مسيرتنا فى القرية** ماذا حققنا ، وماذا يجب علينا بعد ذلك ، والاتجاه الثانى فى الدراسة ، **والثالث فى رؤيتنا للحركة السياسة** ، ثم الرؤية للحكم والأحزاب أخيرا .

وكان على رأس ما حققناه فى القرية معركة **الكوليرا** ، ومعركة "سرسق " ولكن بناء المدرسة يحتاج إلى جهود ومتابعة حتى يتم العمل فيها تعليما لأبناء القرية . أما اتجاه الدراسة فقد حققنا تقدما بانتقالنا إلى الجامعة .. وحصولنا على عمل إجتماعى وبقى أن نجتاز سنوات **الكلية** الأربع .

وأما رؤيتنا **للحركة السياسية** فقد استقر فى فكرنا أن نموذج **اللجنة الوطنية للعمال والطلبة** برغم نواقصه هو النموذج الأمثل للمستقبل ، به حقق **الشارع المصرى** عدة انجازات ، أولها وحده الشعب لمجابهة مشاكله وتحقيق اماله ، "خصوصا إذا أنضم **الفلاحون**" ثانيها بهذه الوحدة كشف أركان السلطة ابتداء من الملك الذى هتف الطلب بسقوط ونادوا **"الغذاء والكساء يا ملك النساء"** وحطموا فى الجماعة صوره ، وكان على رأس عمليات تحطيمها **"الهام سيف النصر"** وقد تدعمت رؤيتنا **للحركة السياسية** على هذه الصورة برؤيتنا للمسألة الأخيرة والرابعة للحكم وأدواته وللأحزاب .

أما الحكم فقد تهاوت دعائمه ، وهو لم يسقط فى أعين الناس فجأه ، إنما تجمعت أسباب

سقوطه من خلال التطورات والأحداث .. التفريط فى حقوق الوطن ، والجور على حقوق الشعب ، والمغالة فى الفساد السياسى والأخلاقى . حتى أصبح للملك ولأمه ولأخوانه مسلسلات فضائح يتغنى بأنشيدها الفلاحات فى الحقول .. وليست هذه رؤيتنا فقط ، بل إن **حسين هيكل زعيم الأحرار** الدستوريين قال فى مذاكراته عن حركة الجامعة ضد الملك فى عيد ميلاده ١٩٤٦ : **"فى عيد ميلاد جلالته سقط عرشه"** إشارة إلى مافعله الطلبة بالجامعة .

بقيت رؤية **الأحزاب** .. هناك أحزاب تعتبر ملحقة بالقصر مثل **السعديين** ، وأحيانا **الدستوريين** ، والكتلة .. أما **الوفد** فله شأن وحده ، فى **حركة ١٩٤٦** كان يمثل الوفد عناصر متحررة منه ، لا تقبل سوى الخلاص من الاستعمار والملكية فإذا كانت حكومة الوفد قد بدأت **عام ١٩٤٢ بحادث ٤ فبراير** ، وانتهت بكتاب **مكرم الأسود** فإنها كانت طريقا لحسم الميل إلى المحور وكانت ردا على مظاهرات تقدم يا روميل ، ولكن **الطليعة الوفدية** كانت التجديد ، والميلاد العصرى للوفد بها اكتملت وحدة الطلبة فى مواجهة **صدقى والاخوان** ، ومن بين هؤلاء الطلبة ظهر **مصطفى موسى** ليواجه **مصطفى مؤمن** صاحب **"واذكر فى الكتاب إسماعيل"** وبعد سقوط صدقى دستوريا جاء الائتلاف السعدى الدستورى مع الكتلة والحزب الوطنى وقام حكمهم دستوريا على انتخابات مزوره ، وبرنامج حكم مأخوذ من كتاب **مكرم عبيد** ، فهو برنامج تصفية حسابات مع **الوفد** وسياسة مهادنة مع الانجليز لا تسمن ولاتغنى من الاستقلال ، وعلى كل فقد قتل **أحمد ماهر** فى **٢٤ فبراير ١٩٤٥** واعتقلت لليلة واحدة بهذا الشأن . وجاءت من بعده **وزارة النقراشى وحادث كوبرى عباس** ومحاولة **اغتيال النحاس واغتيال أمين عثمان** ، فهى مع فشلها فى حل أو مواجهة القضية الوطنية تعتبر نموذجا لأحزاب الأقلية التابعة للخاصة الملكية ، وأداة من أدوات البطش والقهر . وبين هذه الوزارات كانت **حكومة صدقى** اليد الباطشة والقوة الغاشمة الرادعة للشعب ، ورافع راية الخطر الأحمر . ولأنه المجرب فى تاريخ مصر بطشا وإرهابا واستسلاما لأعداء الوطن فقد أختاروه رجل هذه المرحلة .. هو الذى قال لوزير الداخلية فى **الثلاثينيات** حين ثار عمال العنابر **"أطفئ النور وأطلق النار"** جاء فى عام ١٩٤٦ ليختتم تاريخه بمواجهة جماهير الشعب جميعا لعله يطفئ عليها الأنوار ويطلق عليها النيران ، ويذكر له فى فترة حكمه **مذبحة الاسماعلية** ، وتفسير الهبه الجماهيرية بأنها دسيسه **شيوعيه روسية** ، وأن الخطر على المفاوضات ليس **الاستعمار الانجليزى** بل هو **روسيا** ، آخر انجازاته كان **إغلاق الصحف الحرة الوطنية والديمقراطية وإغلاق النوادى الثقافية وحملة القبض والاعتقال الهيسترية للمناضلين والمفكرين** . وكان كل هذا كفيلا بإنهياره كطاغية وخادم

للملك والاستعمار . وبخروجه من الوزارة خرج نهائيا من الساحة السياسية ، ومعه حين جاء وحين ذهب **الاخوان المسلمون** .

بعد **صدقى** جاءت **وزارة النقراشى الثانية** أراد الملك أن يقدمها للناس فى غير ثوبها فتملق مشاعر الجماهير واستجدى رضاء الشعب بباقات ورد على تمثال **مصطفى كامل** وعلى قبر **سعد زغلول** ، وأرسل إلى الأمم المتحدة ليخطب فيها متوجها بخطبة لا لحل المشكلة الوطنية ، بل لدغدغة مشاعر الناس فى مصر بكلمات طنانه تغطى الفشل المتواصل للحكم فى مواجهة القضية .. وعاد من أمريكا ليستقبله الإخوان مهللين ، ولكن الطلبة أفسدوا على الأخوان استقبالهم **للنقراشى** وحولوا المظاهرة الاحتفالية إلى مظاهرة كشف مهزلة الذهاب والعودة ، والهزيمة التى أدعاها نصرا وحين انكشفت خطته وافتضح دوره مارس ما عرفه عنه الناس فى وزارته الأولى **بالمحلة الكبرى** ، وفى **الاسكندرية** فى **شركة الغزل الأهلية** .

وكان علينا حين جئنا إلى **القاهرة** أن تنظر للماضى متفحصين فى القرية تجربة مقاومة **الكوليرا** ، والانتصار بالجهود الذاتية ، ومواجهة التحكم **الأجنبى** فى تفتيش **سرسق** ، ونقل المدرسين **ومقتل ماكيه** وبناء المدرسة بالجهود الذاتية ، والأمر على هذه الصورة فى أمر الوطن .. " **اللجنة الوطنية للعمال والطلبة** "وحل مشاكل البلاد بالجهود الذاتية أيضا .. إذن فقد اتضح الطريق واستقامت النظرة للمستقبل .

٤-العمامة...هديةمقبولة

وسارت أيامنا فى **القاهرة** .. سيرة جديده .. لها لون خاص .. ومذاق مختلف ، ليست **كطنطا** ، **وشارع الجعفرية** ، **وميدان السيد البدوى** ، **والمعهد الدينى** .. **وأصدقاء الكتب الخضراء** .. **هنا القاهرة** .. **دار العلوم** فى **المنيرة** .. **وكلية الآداب** .. وبينهما حى **الجيزة القبلى وشارع سعد زغلول** .. **وبيت "الخوجايه"** حيث يسكن طلبة من كل أرجاء **مصر** .. ومن كل الكليات .

كان بعض الاساتذة فى الكليات الأخرى يأتون إلى **دار العلوم** يلقون علينا المحاضرات منهم الأستاذ الدكتور على عبدالواحد وافى رئيس **قسم الاجتماع** ، وكنت أحضر مع محمد محاضراته فى **كلية الآداب** ، ،كان يحضر معى فى دار العلوم ، وأصبح **شريف** أقرب الطلبة إلى قلب الأستاذ ، فتبناه علميا .. وأسعدته علاقتى **بشريف** .. قال لى : "لقد تآزهر بك شريف وتفند نت به" أى أنه صار بى أزهريا وصرت به أفنديا وكانت ملاحظة عندى أعمق مجرد مزاح ، فبعد أن كنت

أذهب إلى **المسجد فى القرية** معمماً أصبحت أذهب مطربشا ، أو حاسر الرأس ممشط الشعر بعد أن أعطيت أبى العمامة ، وقال لى : هدية مقبولة ..

وتمر بنا الأيام .. فى الصباح نذهب إلى الكلية .. ونخرج منها إلى الشركة ، ونعود فى المساء لنلقى أصدقاء الأيام الجديدة ، نتحدث فى أمور الحياه ، والدراسة الجديدة ، والعمل .. والسياسة .. التى اختلفت بعض الاختلاف عن الساياسة فى طنطا .. هناك كان التعبير عن الرأى بسيطا ومباشرا .. أما هنا فأحيانا يكون الرأى ملفوفا بحيث لا يرى .. وأحيانا يكون واضحا فاقعا يقرع الأذن ويعشى العين ، فمثلا حين قررت **انجلترا** إجلاء قواتها عن **القاهرة والاسكندرية** بعد المظاهرات والصدامات الدامية مع الطلبة أراد **الملك** أن يعتبر هذا الجلاء من أمجاده وأن يستولى عليه لحسابه مدعيا أنه به سعيد ، عاقدا العزم على أن يرفع بيده الكريمه علم البلاد العزيزة والوطن المفدى على **ثكنات قصر النيل** وسيقيم نصبا تذكاريا **لشهداء الطلبه** الذين ضحوا بحياتهم فى **٢١ فبراير** الشهير .

علق **أحد الطلبة** أن **الملك** سينيب فى هذه الاحتفالات عنه الأميرة **فاميا جمال** يقصد **"سامية جمال"** .

وكان بعض الطلبة يرسلون إلى الملك خطابات بعنوان :

حضرة صاحب الجلاله مولانا المعظم ، **ملك مصروالسودان وزيلع وهرر ودرافور وكردوفان وبلاد النوبة** ، المقيم **بقصر عابدين** العامر بجوار **سينما أوليمبيا** ، وعندما احتدمت **المشكلة الفلسطينية** ، وتصاعدت صيحات الحرب كلف الملك مدير مصلحة السجون **"حيدر باشا"** بقيادة **القوات المصرية** الذاهبة إلى **فلسطين** .. وقال الناس إنها فكرة **كاميليا صديقة الملك اليهودية** ، وفى إحدى **المحاكمات السياسية** كان **على أيوب المحامى** يترافع ضد الوفد .. فهتف الناس فى المحكمة رحم الله **أبن على أيوب** لأنه يقال أن **الملك** أراد أن يقتحم بيت **ابن على أيوب** اعجابا بزوجته وحين اعتراضه الزوج قتل ، وأصبح غريبا مع هذه المهازل أن يدعو الإخوان **الملك "بالفاروق"** تشبيها له بعمر بن الخطاب وتمهيدا لتصيبه أميرا للمؤمنين خليفة لله فى الأرض ، ومن مثله أيضا أن تسبغ **أخبار اليوم** على **الملك ألقاب العامل الأول ، والفلاح الأول** ، **والملك الصالح** وتنشر فيه القصائد من نوع

ملك إذا الاسلام عد حماته ... كان الطليعة فى صفوف حماته

وبينما كانت **القاهرة** مركز الغليان وبؤرة الفورة والثورة إلا أن حركة سياسيه لا يحميها

الريف ولا يشارك فيها سيكون مصيرها الفشل . وأعتقد أن عمر **اللجنة الوطنية للعمال والطلبة** كان قصيرا لأن إسمها لم يكن يضم الفلاحين فى العنوان وفى الموضوع ، وهذا لا يقلل من قيمة هذه التجربة .

وقد أدرك الإخوان أهمية تعطيل الفلاحين كجناح من أجنحة الثورة والعمل الوطنى فأنشئوا فى كل قرية شعبة من شعبهم ، ويعتبرون هذا ضمن الإعداد اللازم والضرورى لكى يقفزوا على السلطة التى لا تفارق خيالهم أبدا

وعلى الرغم من أننا قد تغلبنا على مشكلة كيف نحيا .. إلا أن الحياة كانت مرهقة لانكاد نجد فى يومنا ساعة للمناقشات التى تعودناها وللبحث عن طريق كنا قد دأبنا فى البحث عنه .. ولكننا لم نتخلف يوما عن متابعة السياسة ، نقرأ الصحف ، ونبحث عن ما هو محظور من الصحف والكتب ، ونذهب إلى **"كشك" إسماعيل** فى ميدان **الأوبرا** لنشترى الكتب المطبوعة فى لبنان والمحظورة فى مصر ونتابع كتابات **الدكتور محمد مندور** فى الأدب والنقد والسياسة ، ونقرأ جريدة المصرى وصوت الأمة ، ونحضر مجالس كبار الأدباء وندواتهم .. ونسعى لحضور مناقشات الرسائل الجامعية التى تعنينا موضوعاتها والأشخاص المشتركين فى المناقشات .

وقد تابعنا **حرب فلسطين** أو مهزلة الحرب ، حيث كانت بلا خطط ولا قيادة ولا سلاح ورأينا كيف كان دور الإخوان أن يشغلوا الناس عن الفشل والهزيمة بالتفجيرات الإرهابية فى المحلات التى يملكها اليهود ، ورأينا كيف أن الملك شاركهم فى هذا الاتجاه فأنشأ لنفسه حرسا حديديا هو فى الحقيقة فرقة اغتيالات ملكية .. وكما لو كان العمل الإرهابى بينهما مباراة أو منافسة ، فكنا نسمع مرة عن اغتيال **الخازندار القاضى** بيد **الأخوان** ثم **اغتيال أمين عثمان** بيد الحرس الحديدى وهكذا **قتل النقراشى** .. وقتل **حسن البنا** .. وفى زحمة **القنابل والسيارات المفخخة** ومحاولات نسف دار **القضاء العالى** وقتل النحاس فى هذه الزحمة قتل السياسى التقدمى **عزيز فهمى** .

وحين أوشكت الأمور أن تصير إلى فوضى لا يمكن السيطرة عليها تدخل **الانجليز** لفرص هدنة يلتقطون فيها أنفاسهم ، ويعيدون حساب مصالحهم وطرق حمايتها .

كان **الملك** قد أختار رئيسا للوزراء بعد النقراشى القتيل – إبراهيم عبدالهادى ، ومنذ وضع رجله فى الوزاره بدأ ينشر الرعب والفزع فى كل الأرجاء .. قبض واعتقال واغتيال ، وإرهاب .. وتعذيب بيد البوليس السياسى . وقدمت انجلترا للملك اقتراح الهدنه لالتقاط الأنفاس وكانت الانتخابات هى وسيلة هذه الهدنه .. هل تجريها حكومة **عبدالهادى** ؟ الوفد يرفض الخلافات تلف وتدور حول

اقتراحات لتكوينها .. وينتهى الأمر بأن يتولى الوزاره **حسين سرى باشا** صهر الملك ، والذى يراه الوفد معتدلا يمكن أن يجرى الانتخابات . وإعدادا للساحة الجديده تبدأ الوزاره الجديده فى الاعداد للانتخابات بإطلاق سراح **الإخوان والمعتقلين** جميعا ، ويخرج الإخوان من السجون ، ويقابل مرشدهم الجديد " **الهضيبى**" **الملك** .. ويعيد وصفه بالصفات التى كان يسبغها عليه **حسن البنا** .

وتجمعت كل العناصر السياسية لكى يفوز بالانتخابات حزب الوفد ، وفى مقدمتها :

أولا : الدور الذى قامت الطليعة الوفدية فى **الحركة الوطنية** منذ **اللجنة الوطنية للعمال والطلبة** ، والذى أعطى للوفد دفعة جماهيرية قوية فى مواجهة أحزاب استهلكت فى أعمال قذره ضد الشعب والوطن .

ثانيا : كانت قوى اليسار اعتمادا على علاقاتها مع **الطليعة الوفدية** تطمع فى برلمان **ديمقراطى** ، يأتى بانتخاب حر يفسح للرأى مكانا ديفك الحصار عن الحريات .

ثالثا : كانت **أجهزة الدولة** قد انهكت فى مواجهته **الإضرابات والاعتصامات** ، وبخاصة تلك التى قامت بها بعض هذه الأجهزة نفسها مثل إضراب **البوليس وصولات الجيش** .

رابعا : كان **الجيش** قد عاد مهزوما من **فلسطين** ، وكانت أسباب هزيمته تتضح يوما بعد يوم **كجريمة من جرائم النظام** .. ولذلك فإنه لا مصلحة له فى **حماية الدكتاتورية** .

خامسا : كان الملك انصياعا لنصيحة **الانجليز** يطمع فى هدنه مع قيادات الوفد القديمة يعيد من خلالها تثبيت **قوائم الملك** المرتعشة .

سادسا : حتى حزب **مصر الفتاة** الذى تطور فأصبح **الحزب الاشتراكى** أراد أن أن يفتح لنفسه مجالا جديدا فى ظروف مواتية .

وحقق **الوفد** نصرا كاسحا تجاوز مجرد النجاح فى معركة انتخابية إلى ما يعنى انتفاضة شعبية . ولكن نتيجة الانتخابات كانت تعبيرا عن **التكوين الطبقى للوفد** الذى كان متعدد الطبقات والفئات والاتجاهات . وأصبح فى البرلمان عناصر حديدة لم تمثل فى أى **مجلس نيابى** من قبل ، عناصر تمثل أفكارا شابه ، وتحمل أراه ومذاهب جرى العرف الحاكم على تجريمها .

وتغيرت خريطة التحالفات على أرض الحكومة الجديدة وبرلمانها . **ففؤاد سراج الدين** أصبح **الجناح الحكومى الملكى** تحت شعار تحييد الملك بدلا من عدائه ، وقد ظهرت هذه الأجنحة واضحة حين مناقشة "**قانون أنباء القصر**" الذى تقدم به **اسطفان باسيلى الوفدى** للحد من الهجوم على **السراى** . وقد ظهر على أشده داخل الوفد وتكونت في مواجهة **سراج الدين وباسيلى** قوى يسارية وتقدمية داخل الحزب والبرلمان وخارجها وأصبحت مهمة **فؤاد سراج الدين** وجبهته التغطية على تصرفات الملك فى القضايا التى تثار مثل .. **قضية الاسلحة الفاسدة** ، ومحاولات إبعاد رئيس ديوان المحاسبة وأخذت الحكومة فى التصرف مع السراى باعتبارها **حكومة الملك** وذلك بمنع الصحف من الحديث فى الفضائح الملكية ، **فضائح الملك .. وأمه وإخواته .. وأعوانه .. وخدمه** وحين مناقشة قانون أنباء القصر انفجر **حزب الوفد** فى وجه **سراج الدين** واحتجت **نقابة الصحفيين** ، وأدانت **الهيئة الوفدية** أسلوب **سراج الدين** .

*** *** ***

*** ***

***

*

الفصل الرابع

١ - في ربوع الماركسيه

كانت **حكومة الوفد** تضم وزيرا طالما أحببناه وبحثنا عن كتبه .. اشترينا **كتابه "القلب المغلق"** الذى يتحدث عن الملك المعزول عن الشعب بأسوار عاليه .. **طه حسين** الذى أجببناه أديبا ومفكرا .. أرادا أن نحبه وزيرا .. فهو كما قبل وزير الماء والهواء .. أراد أن يجعل التعليم متاحا لكل الناس وبخاصة الفقراء ، وأعلن أن أى مدرسة تبنى بالجهود الذاتية سيضمها إلى الوزارة ويضمن لها كل أسباب البقاء وأداء الدور.

وكانت المدرسة التى كافحنا فى قريتنا حتى نبنيها قد اكتملت .. وأرسلنا البرقيات للوزير وسلمنا مذكرة **لمديرية التعليم بالمنصورة** .

وكان الوزير فى رحلاته من أجل تعليم الناس قد مر بقريتنا متجها إلى قرية قريبة من **الزرقا أو فارسكور** ليفتتح مدرسه .. وحين المرور بالموكب عند قريتنا أطلق أحد الناس طلقا ناريا فى اتجاه سيارة الوزير .. وهللت الصحف المعارضة مثل **أخبار اليوم وأحزاب الأقلية للحادث** ، واعتبرته عملا شعبياً شجاعاً .. نشرت الخبر وسمت الذى قام بإطلاق الرصاص **"الوجيه رشدى الشهاوى"** .

كان من أهل القصر فى قريتنا ، ومن أنصار **أحزاب الأقلية** .. وبهذا لم تحظ قريتنا بوزير يسير على أرضها .. ليفتح مدرستها .. بل افتتحت المدرسة فى صمت عميق .

وعدت بعد افتتاح المدرسة إلى القاهرة على أن أعود للقرية يوم امتحان القبول .. وجدت **أحمد الزقم** بالكلية ومعه شخص أعرفه .. **أحمد عبدالسلام** من طنطا سلمت وجلست .. ويبدو أنهما كانا يتحدثان فى أمر خاص فأردت الانصراف .. ولكن الزقم أعطانى كتابا صغيرا أو تقريرا لأقرأه وأقول رأيى فيه .. كان ذلك تقرير **"ثورتنا المقبله"** .

لفت انتباهى دقة الأسلوب ، وقوة التعبير وعمق التحليل للمجتمع المصرى ولأهداف الحركة الثورية .. وفى اليوم التالى قلت للزقم لقد قرأت وأعتقد أنه شئ هام جدا . وأنه نوع جيد من الانتماء للشعب .

كنا نعمل معا فى **" جمعية تلخيص الكتاب"** بالكلية ، وبدأنا نعمل فى مجالات أخرى أكثر

جدية وحيوية .. حتى جاءت الانتخابات **وحكومة الوفد** ، وكان لنا فى **الأحداث الانتخابية** دور .. ثم جاء التقرير ثورتنا المقبلة .. وحين وافقت عليه اعتبرت عضوا **بالحزب الشيوعى المصرى** . وأنا فى التنظيم كانت عينى على قريتى ، بالنسبة لى أصبحت هذه القرية الضمير والحلم .

وذقت معها حلاوة النجاح واستمتعنا معا بنتائجه . أذكر حين كونا لجنة لحصر ملكيات القرية وشكل توزيعها .. أن الطلبة أصروا على أن يسجلوا أعداد الذين لا يملكون ، ومستوى الدخل ومصدره . وحين استعنا بدفاتر الصراف لحصر الملكية كان كثيرون من أهل القرية يرون ألا داعى لهذه الدفاتر لأن أدمغة الناس أكثر منها صدقا ودقة ، وأصبح لدينا بحث ميدانى فريد فى نوعه .. بالجهود الذاتية ، وكان من الممكن استخدام نتائج هذا البحث فى اتجاهات مختلفة اجتماعية واقتصادية وسياسية . وقد اتيحت لى فرصة استخدام هذه المادة بعد نحو خمسة عشر عاما فى سلسلة من المقالات **بمجلة الكاتب** عن قضايا الفلاحين بعنوان "تقرير من قرية" .

كل شئ فى قريتى يذكرنى بالنجاح ، وعندما وقعت حوادث بهوت وثار فلاحوها فى وجه الظلم ، وجاءت جموع **التتر والهكسوس** من الأجهزة يربطون الفلاحين فى ذيول الخيل ويجرونهم ، ويوسعونهم ضربا وتعذيبا ، وحين قام الفلاحون فى " **كفور نجم**" و "**ميت فضالة** " بهبات عشوائية ، أيقنت أن حركة الفلاحين فى البلاد لا يمكن أن يستقيم أمرها إلا إذا توحدت فصائلها ، واستفاد الفلاحون فى أى موقع بتجارب إخوانهم أينما كانوا .. تحت الشعار المنتصر **للبرامون** "**يحيا اتحاد الفلاحين**" .

وبالطبع فقد كان حماسى شديدا لمتابعة تحركات الفلاحين ومعرفة مشاكلهم ، كنت أردد دائما لنفسى وللرفاق معى أن أى حركة سياسية على مستوى الوطن يرتهن نجاحها بمدى ارتباطها بالفلاحين .. كنت أقول إن الموقف من الملك ظل حبيسا فى الصدور حتى أطلعته **الحركة الوطنية عام ١٩٤٦** .

كان الكفاح المسلح فى القنال ينمو ويزداد قوة يوما بعد يوم ، وكنا نعد العدة للتدريب وتكوين الكتائب ، ولم ننتظر حتى إكتمال التدريب فكان الرفيق "**محسن الأعصر**" يقود عربة جيب . ذهب بها **إلى البدو** على **شاطئ البحر الأبيض** ، فى مكان المعارك بين **الألمان والانجليز** ، ليجمع الأسلحة المتخلفة عن هذه الحرب ، والقنابل التى يجمعها البدو ويعود بها إلى المقاتلين ، **ومعه الأستاذ سعد زغلول فؤاد الصحفى بمجلة المصور** .

وبهذا كانت الحركة فى القنال امتداد طبيعيا لحركة عام ١٩٤٦ ، والأيام بين **اللجنة**

الوطنية للعمال والطلبة ، والكفاح المسلح فى القنال مليئة بالعبر والدروس ، وأهمها أن العمال والطلبة لابد أن يكون معهم الفلاحون .. وذلك شئ بديهى فى المقاومة ضد الاحتلال .. حيث يحيط الفلاحون بالمعسكرات ، ولا سبيل للعمل إلا بتعاونهم ومشاركتهم وسارت الأمور على غير ما يتمنى **المرشد العام والملك** ، فقد اشتد عود المقاومة ، وتصاعدت الحركة السياسية ، فكونا لجان المقاومة الشعبية وكونت التنظيمات الأخرى اللجان الوطنية لتنظيم العمل فى الشارع وفى التجمعات ، وإعداد الجبهة الداخلية لمؤزارة الكفاح المسلح .

ورفعنا شعارات **تأميم القناة .. والغاء معاهدة ١٩٣٦** .. وتحت ضغط الجماهيرالوفدية فى الشارع والعناصر والديموقراطية فى البرلمان ولجان المقاومة الشعبية أصبحت الحكومة ولا مفر أمامها من طرح فكرة إلغاء المعاهدة .. وإزاء اقتراح قياه مظاهرة كبرى لتعبر عن رأى الشعب ، ووحدته فى المطالبة بالغاء المعاهدة اشترطت الحكومة للموافقة أن تكون المظاهرة مسيرة صامتة بلا شعارات ولا هتفات .

وفى يوم ١٤ نوفمبر ١٩٥١ تجمعت عشرات بل مئات الآلاف من كل الأحياء والمدارس والكليات ، والمصانع ، ورفضنا فكرة الصمت للمظاهرة . وكان رفاقنا من عمال العنابر بقيادة **أمين شرف وغنيم مصطفى غنيم** ، قد حولوا مسيرتهم إلى الهتاف والشعارات ، وكذلك فعل رفاق الجيزه مع عمال مالوسيان وطلبة **السعيدية الثانوية** . وفى اليوم التالى للمظاهره ذهب الهضيبى إلى الملك على رأس مكتب الارشاد كله . وسجلوا أسمائهم فى سجل التشريفات لكى يعلنوا براءتهم مما يجرى فى الشارع ، وأنهم عند كلمة مرشدهم للملك حين قابله .

وخلال هذا النمو المتسارع **للحركة السياسية والجماهيرية** لم نغفل عن تبنى قضايا الفلاحين والسعى إلى تنظيم صفوفهم لمواجهة مشاكلهم وقد استطعنا خلال أحداث ميت **"فضالة"** وتنكيل الأمن بالفلاحين لحساب أحد كبار موظفى الخاصة المكلية أن نصدر منشورا يندد بالاستبداد والظلم الواقعين على الفلاحين ، وقبض على أحد الرفاق وهو يوزع المنشور ، وقدم للمحاكمة مع **"مصطفى طيبه"** وكان اسمى فى هذه القضية ، وكذلك اسم **أحمد الزقم ، والاتهام الموجه لنا هو "توزيع الأرض على الفلاحين ومحاولة قلب نظام الحكم الملكى بالقوة "** .

وظلت هذه القضية منظورة مدة طويلة ، ولكننى كنت هاربا ، .. أو بمعنى أصح كان البوليس يعتبرنى هاربا .. إذا أننى أنهيت دراستى فى دار العلوم ، وقدمت أوراقى إلى معهد التربية الذى يقع بجوار نفس الكلية ، وقد حدثت واقعة ضبط المنشورات فى منتصف عام ٥١ بعد أداء **امتحان الليسانس** .

وبعد حادث ضبط المنشورات كنت أمارس نشاطي العادى ، اشتركت فى مظاهرة الطلبة التى اتجهت إلى وزارة الخارجية وطلبت مقابلة **صلاح الدين** ، وتمت مقابلة تاريخية ومناقشات حادة بين الطلبة والوزير .. كنت فى هذه المظاهرة **ومع الدكتور رؤف نظمى** الذى كان طالبا فى **القصر العينى** ، وحين خرج الوزير وطالب الطلبه بالهتاف ضد الشيوعيه ثاروا فى وجهه **وهتفوا بسقوط أمريكا .. وبوحدة الطلبة .. وبسقوط عملاء الاستعمار .**

٢ - البوليس فى بيتنا

ذهبت إلى القرية أرى أهلها وأهلى ، وأطمئن على أحوال المدرسة وافتتاح الدراسة بها بامتحان القبول .

وبينما أنا بالمدرسة اتجول بين الفصول وأتعرف إلى الصغار الذين يمتحنون جاء أحد الخفراء " **أحمد الدقدوسى**" وأخبرنى أن البوليس عند بيتنا ينتظرنى أو يبحث عنى .. طلب منى عدم الذهاب إلى البيت .. فرفضت .. لأن بالبيت حقيبة ملأى بالأوراق والمنشورات .. ولا يصح أن أتركها ليتحمل تبعتها غيرى ، وسار معى .. وقد علم أهل القرية بوجود الشرطة ، فكانوا ينظرون إلى وأنا متجه إلي حيث يوجدون عند البيت .

لا أدرى ماذا كانوا يظنون وأنا متجه الى البيت لم يكونوا يعرفون ماذا أنوى أن افعل ، وحتى عمنا "**أحمد الدقدوس**" السائر معى لا يعرف ماذا أنوى أن أفعل .

وحين وصلت إلى المنزل وجدتهم خارج البيت .. العمدة **على الشهاوى** ، وشيخ **الخفراء محمد عبدالحافظ** . وضباط .. وعدد من العساكر .. ومخبرين . ناس كثيرون من أهل القرية بينهم **أبى ، وأخى محمود .**

قلت **للضابط** أنتم تريدون عبدالخالق ؟ لماذا تقفون خارج البيت ؟ تفضلوا . وأفسحت لهم الطريق إلى الداخل .. وهو يدخلون قلت لهم سأبحث لكم عنه وأحضره إليكم .. وتسللت من بينهم إلى الداخل .

بحثت عن الحقيبة فلم أجدها .. سألت عن أمى فقيل لى إنها على السطوح . ورأيتها تخبئ الحقيبة وتلفها فى ثوبها .. أخذتها منها .. وقلت لها إنهم ينتظروننى وأنهم لم يعرفونى .. وأنهم يظنون أنى أبحث لهم عنى .

سلمت عليها ، وقفزت إلى بيت الجيران ثم إلى شارع فى جهة أخرى من القرية ثم المزارع فى

الناحية الغربية .. وجلست بين أعواد الذرة أتدبر أمرى .. وقد شاهدتنى بنت خالتى وتبعتنى من بعيد ، وحين رأت مستقرى قريبا من منزلها .. أعدت لى غذاء وجاءتنى به .

قالت لى إن العمدة لم يتحدث عنك مع البوليس ، وكذلك **شيخ الخفراء** وحتى المخبرون بين الناس لم يعرفوا أنى الذى دخل أمامهم .

وسلكت طريقا بين المزارع حتى "**وابور المياه** " الذى قتل عنده "ماكيه" وانتظرت سيارة تأتى .. لأركبها .. ومن المنصورة اتجهت إلى القاهرة ، وغيرت محل الإقامة بها خشية أن يأتون بعد أن يصيبهم اليأس والخذلان فى القرية .

٣- حريق القاهرة

وفى نهاية العام توالت الأحداث ، بعد **مظاهرة ١٤ نوفمبر** ألغيت المعاهده وتصاعد الكفاح المسلح ، وطلبت الحكومة أن تضع الكتائب تحت إشرافها فقررت منع أى جهة من التبرع أو القيام بتدريب المتطوعين زاعمة أنها ستقوم بهذه المهام جميعا .

وامتنع **العاملون المصريون** بثكنات **الجيش البريطانى** عن العمل ، وعين الملك **حافظ عفيفى** رئيسا للديوان بدلا من حسين سرى فخرجت المظاهرات تهتف "**يسقط عفيفى**" و "**حافظ عفيفى**" أى يسقط عفيفى والملك الذى هو "**حافظ**" عفيفى ، وفى أول العام ترددت بلوكات النظام بعد هدم **كفر عبده** وضرب قوات البوليس فى **الإسماعلية** . مما كان دليلا على عدم أخذ الحكومة أى نوع من الاحتياط لمثل هذا العمل ، فحوصرت قوات الأمن وضربت واستشهد من بينها الكثيرون بعد مواجهة غير عادلة أو متكافئة . وكان هنا الرد المناسب على ادعاء الحكومة أنها ستقوم برعاية وحماية العمل الفدائى وفى ٢٦ **يناير ١٩٥٢ يوم السبت الأسود** أحرقت القاهرة على مرأى وسمع من **الحكومة** ... **والجيش** .. **والبوليس** ... **والملك** . ذلك الذى دعا لأمر ما ضباط الجيش وقادة البوليس إلى قصر عابدين .. وظل يحتجزهم هناك حتى تمت المهمة وأحرقت القاهرة ..لأن الملك يحتفل بولى العهد .

فوجئنا فى صباح **السبت** بالحرائق تلتهب وسط القاهرة .. وحاولنا منع الناس ، ولكن الذين كانوا يقومون بالإحراق لم يكن من الممكن أن يستمعوا إلينا ، ولم نكن نستطيع منعهم بالقوة كان الناس حوله بين متفرج ومذهول أو من الذين ينتظرون مثل الأحداث ليحصلوا على بعض المتاع أو الطعام أو المال .. ولكننا كنا نهتف هذه بين الناس إلى عابدين إلى عابدين . وشيئا فشيئا اتسع الهتاف ، واتسعت أعداد الناس الذين توجهوا إلى عابدين حتى امتلأ الميدان عن آخره ، فهتفنا **تحيا ذكرى**

أحمد عرابى وضج الميدان بالهتاف لخرق آذان الملك وضيوفه .. ولدهشتنا بدأ البوليس يطلق النار فى "المليان" على مظاهرة عابدين .

نحن نعلم أن وزير الداخلية لم يدع إلى احتفال الملك .. والسؤال إليه يوجه .. لماذا لم يحدث إطلاق النار إلى فى ميدان عابدين بينما الحرائق تتم بلا أدنى اعتراض أو محاولة لمنعها .

وقد تحدثت مع المستشار طارق البشرى فى موضوع حريق القاهرة ، وقلت له إن مغزى إطلاق النار على مظاهرة عابدين فحسب يمكن التأكد منها بأكثر من وسيلة .

أولا : نقل المصابون إلى القصر العينى .. والمستشفيات الأخرى .

ثانيا : تمت محاكمة صورية للمتهمين بالحريق أخذوا من بين ضحايا إطلاق النار فى ميدان عابدين .

ثالثا : مقارنة أسماء المصابين وموقع إصابتهم تعطى الدليل على أن الذين قدموا للمحاكمة هم بالقطع غير الذين قاموا باشعال الحرائق و إذا لم يثبت أى نوع من الإحراق أو التخريب فى ميدان عابدين

وقلت له إن تحقيق هذه المسأله بهذه الصورة يحتاج إلى جهد من المؤرخين حتى تتضح حقيقة ذلك اليوم .

والوثائق البريطانية تؤكد .

أولا : أن المناقشة بين الملك والانجليز ، حول وجود الوزارة الوفدية ، كانت تجرى على قدم وساق قبل الحريق .

ثانياً : أن على ماهر اشترط على انجلترا أن تقوم قواتها بتصفية الوجود الفدائى فى القنال حتى لا تلصق به هذه المهمة القذرة ، وهو يعلم أن هذا الموقف أقذر وأقذر .

ثالثاً : أن مطالبة الوفد بوضع الفدائيين تحت إشرافه وسيطرته كان جزءاً من خطة التصفية .

رابعاً : أن على ماهر قابل السفير البريطانى فى ديسمبر لترتيب توليه الوزاره وإليه تقدم بطلباته السابقة .

خامساً : أن فؤاد سراج الدين عزز قوات البوليس فى القنال بقوات بلوكات الأقاليم التى لا تعرف حتى إطلاق البندقية .. وهو الذى ظل خارج الدعوة فى عابدين ، وباعتباره وزيرا للداخلية فهذا الذى يسأل لماذا أطلقت النار هناك .. ومن الذى أمر بذلك .. وما الذى فعله وهو المسئول الوحيد الذى ظل فى مكتبه .. لقد استنجد بحيدر المدعو فى حفل القصر والملتزم تفاصيل المؤامرة .

الفصل الخامس

١ - بداية عثرات الحزب الوليد

بعد الحريق وقبله كانت أركان النظام مكشوفة ومتهالكه ، **الملك ، واحزاب الأقلية وإفرازات الوفد الرجعيه ، والدستوريون ، والإخوان** ، وبدا أنهم فى مواجهة الحركة العارمة والغليان الشعبى لا ينقذهم إلا الحريق .

ولكن الحريق زادهم ضعفا على ضعف إذ به تزلزل النظام فإنهارت أركانه . أما فى الحزب الوليد الجديد .. فقد كان نتاج البحث عن طريق تستكمل به **اللجنة الوطنية للعمال والطلبة** كل مقومات البقاء والتكامل ، ولكن يبدو أن الحزب كان أبطأ من الأحداث المتصارعة .. سبقه الشارع فاختل توازن (**الحزب الشيوعى**) إذ هو وليد يسعى .

وفى هذا السياق نسلط الضوء على حدثين :-

الأول : أن خالد محمد خالد كان قد أصدر كتابه "**من هنا نبدأ** " وكان كتابا يعبر عن فكر ديمقراطى مستنير ، منحاز للشعب يعتبر دستورا للطبقات الشعبية الواسعة من فئات **البورجوازية الصغيرة ، فلاحين ، ومهنيين** .

وتناول هذا الكتاب من هذه الزاوية يدعم وحدة الجماهير ويقوى من ساعد الطبقة العاملة يخلق عوامل التكامل فى الحركة . ولكن الحزب أصدر تقريرا بعنوان الرد على **خالد محمد خالد** . وكان رد الرفيق على الشيخ محبطا .. لا ينمى الايجابيات ، ولا يعالج السلبيات . ولأننى وأحمد الزقم مارسنا العمل مع الأخوان ، فقد كنا نعرف عمق الضربة التى وجهها **إليهم الشيخ خالد** ، لقد كانت ضربة قاصمة لا يستهان بها ، ضربة فكرية دينية فى أعقاب ضربات جماهيرية وسياسية . وفى أعقاب أنقسامات قاصمة ، وفى أعقاب انكشاف انحيازهم للنظام . ولكن جوهر رد **الرفيق خالد** كان يركز على أنه يفكر بعقل **البورجوازية الصغيرة** .حسنا نحن بحاجة للتعامل مع هذا الفكر .. وخاصة بين الفلاحين الذين ذهب إليهم الإخوان لينشئوا فى كل قرية شعبة ، نحن لانملك ولا نستطيع ، ولا نريد إلغاء فكر **البورجوازية الصغيرة** فى مرحلة " **ثورتنا المقبلة** " ولكننا نبحث عن الطريق لتعامل يؤدى إلى تحالف . وكنت مع **أحمد الزقم** قد ذهبنا إلى **خالد فى الاتحاد النسائى** بشارع **القصر العينى** .. وكان سيلقى هناك محاضرة عن حقوق المرأة .. وقابلناه وتناقشنا فى كتابه ،

وطرحنا ضرورة إنشاء "حزب إسلامى ديموقراطى" يواجه انحرافات **الإخوان** .. واستخدام الدين لحساب الرجعة ، ومن خلال هذه المواجهة يتعايش مع كل **القوى الديموقراطية** فى المجتمع ويدعمها . وحين اطلع خالد على الرد عليه .. قال لنا :

- باسم من تتحدثون ؟

الثانى : كان حدثا داخليا فى الحزب لأنه فى المقام الأول تقييم فكرى وثورى للمرحلة السابقة على حريق القاهرة .. وتتمثل فيما عرف بتقرير **عامر** الذى يرى يوم ٢٦ يناير قمة الأزمة فى النظام وعلامة انهيار ، ومعنى هذا أنه كان من واجبنا العمل على إسقاط النظام ، وتغيير السلطة ، وإقامة حكومة وطنية تعبر عن جبهة واسعة ، تسعى لإكمال مهام التحرير .

وبغض النظر عن مساحة الصواب والخطأ فى هذه الرؤية ، فقد كانت ممارسة النقاش والخلاف فى الرأى ، والصراع الفكرى الداخلى تحتاج لطريق آخر غير الذى سارت فيه :

فأولاً : **قدم الأستاذ عبدالرحمن شاكر " الرفيق عامر"** تقريره إلى الحزب وإذا كان هذا التقرير يخالف رأى القيادة ، فإن الرد عليه كان يستلزم أولا نشر تقرير عامر ثم نشر الرد عليه .. ولكننا تعاملنا معه كما يتعامل الحكام مع المعارضة ، يحظرون نشر رأيها ثم ينشرون اتهاماتهم لها .

ثانياً: كان **فكر الرفيق عامر** واردا عند كل من مارس العمل الجماهيرى واختلط بالناس فى الشارع ، أو فى مجال العمل ، أو فى التنظيمات الجماهيرية .

ثالثاً : بفرض وجود فكر خاطئ فقد كان الأجدى مواجهته بالتى هى أحسن الرأى بالرأى ، والخلاف لا يفسد الود .. تلك هى الديموقراطية

ولكن الرد كان بالتى هي أوجع ، من نفس طراز الرد على **خالد محمد خالد** ، مسلمات قاطعة ، ومآخذ موجعه . وبغض النظر عن قوة الأسلوب . فإننا ننظر فى فداحة النتائج .

رابعاً : اختلف معنا **الأستاذ عبد الرحمن شاكر** أو اتفق .. لقد كان مسئولا ومحترفا ثوريا ، وفى ما بعد الحريق ، وفى ظل **الأحكام العرفية** يحتاج الرفاق إلى المساندة لمواجهة أصعب الظروف ، أما إذا تخلينا عن رفاقنا بحجة الاختلاف ، وتركناهم عرضة **للحملات البوليسية** بلا غطاء وأمان فإن فى مثل ذلك تفك الروابط والعلاقات الرفاقية وتنعدم الثقة المتبادلة . ويصبح ذلك أيضا نوعا من الإرهاب والحجر على الرأى .

أذكر أنه فى مؤتمر الجامعة الذى عقد للمطالبة بالأفراج عن **المسجونين السياسيين** ، كنت

أنا المتحدث باسم المقاومة الشعبية ، وأذكر الكلمات التى بدأت بها الحديث : **باسم الشعب لا باسم الحكومة** .. باسم **المسجونين السياسين** لا باسم **البوليس السياسى** . باسم الذين ضحوا بدمائهم فى **سبيل مصر لا** باسم الذين أثروا من **دماء المصريين** ..

وحين اشتد الحماس فى المؤتمر هتف **جلال كشك** وقال : الشعب رفع الراية .. وردد الطلبة الهتاف فأكمل : فلتحيا راية الشعب وتردد ذلك أيضا مما اعتبرناه تضليلا للجماهير وتدليسا عليها ، حيث جعلناهم يهتفون لشئ يجهلونه ويقصدون شيئا آخر غير جريدة الحزب **"رأى الشعب"** .

والفرق كبير بين الأستاذ **عبدالرحمن شاكر وجلال كشك** .. أحدهما قال رأيه وما يؤمن به ، ومن حقه أن يناقشه ، وأن يرعاه التنظيم الذى تفرغ للعمل به محترفا ثوريا ، ولا يتركه بلا غطاء أو حماية لمجرد الخلاف فى الرأى ، ومن حقنا أن نقرأ الرأى قبل أن نقرأ الرد عليه .. ومن أجل هذا كله فما يزال فى النفس شئ بالنسبة لتقرير الرد على **عامر** وشئ آخر فى النفس من الرد على **خالد محمد خالد** .

٢ - رأى شاكر عن ... تنظيم الضباط الاحرار

اجتمع **تنظيم الضباط الاحرار** فى اليوم التالى **لحريق القاهرة** .. ورأوا أن الموقف يتدهور ، وأن الزمام يوشك أن يفلت ، وأنهم يتوقعون الانفجار فى أى لحظة ، وكان هذا مضمون رأى **الأستاذ شاكر** .

كان **تنظيم الضباط الأحرار** قد بدأ بشكل مبدئى بعد حرب **فلسطين** ، ثم بدأ يتخذ شكل التنظيم الدقيق بعد انتخابات نادى الضباط ، وبعد أن استدعى **جمال عبدالناصر** للتحقيق معه بمعرفة **إبراهيم عبدالهادى** ، وكانت التهمة الموجهة إليه هى علاقته **بالإخوان المسلمين** .

وفى عام ١٩٥٠ بدأ التنظيم يطبع المنشورات **بمساعدة الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى "حدتو"** عن طريق **أحمد فؤاد** الذى أصبح بعد الثورة رئيساً لبنك مصر .

وهكذا تبين أنه فضلا عن علاقة التنظيم بالإخوان **جمال عبد الناصر وكمال الدين الحسينى** ، وغيرهما فقد كان لبعضهم علاقة **بالحركة الديموقراطية (خالد محى الدين ويوسف صديق)** وغيرهما .. كما كان لبعضهم علاقة بالجناح الثورى بالوفد **"ثروت عكاشة"** .

ولم تكن رؤية الضباط الأحرار ، ورؤية الأستاذ شاكر هى الوحيدة على الساحة ، بل إن **السفير الأمريكى "كافرى"** كان يرى أن **"مصر تسير فى طريق اللا عودة ، وليس هناك**

أمل فى الاستقرار ، ولا يمكن استبعاد عودة الشغب " .. ومعنى هذا أن نهاية النظام كانت حتمية ولا فرار من النهاية ، ولكن الأطراف فى هذه الحالة بعد أن استبعد الحزب الشيوعى نفسه كانت تخطط لانقلاب غير شيوعى ، حتى أن الإخوان اتصلوا بالضباط الأحرار وأخبروهم أن الانجليز أعطوهم الضوء الأخضر لاغتيال الملك ، أما الوفد قبل ٥١ فقد كانت خطة الاتصال بالانجليز للضغط على الملك لإجراء انتخابات جديدة يعود بعدها الوفد إلى الحكم . وحين حكم الوفد ازداد الشارع غلياناً ، وتدعم الكفاح المسلح شيئا فشيئا ، وطالبت الجماهير بإلغاء المعاهدة على نحو ما تصلنا من قبل .

٣ - حركة مباركة - انقلاب - ثورة .

حركة مباركه .. النظام والاتحاد والعمل .. كلمات محمد نجيب وشعاراته التى سمى بها استيلاء الجيش على السلطة ، أما أنها انقلاب أو ثورة ، فقد اختلف القائلون واختلف الموقف تبعا للقول . فإن كانت ثورة ، وجب تأييدها ، وإن كانت انقلاباً وجبت المعارضة ، وإن كانت حركة مباركة تمسحنا بها .. وإن غم علينا الموقف ، وتعذرت الرؤية .. انتظرنا وصبرنا حتى يفتح الله علينا .

نحن نتحدث هنا عن الموقف يوم ٢٣ يوليو .. قبل أى إجراء أو قرار أو تغيير تقوم به السلطة الجديدة .. ولهذا فقد تحددت المواقف بناء على رؤية سابقة :

أولاً : الحركة الديموقراطية للتحرر الوطنى "حدتو" أيدت بلا قيد أو شرط فالمطبعة ، وأحمد فؤاد .. وخالد محى الدين عناصر من الحركة الديموقراطية للضباط الأحرار لا يمكن تجاوز آثارها .. بل إنهم قالوا إن عبد الناصر كان عضوا بالحركة ، وكان اسمه "موريس" .

ثانياً : "الديموقراطية الشعبية" د.ش وحركة الوحدة قالوا اختلط علينا الأمر ، وعمت الرؤية ، فنحن الرؤس حتى تمر العاصفة .

ثالثاً : الإخوان المسلمون أيدوا ليس كتأييدهم لكل الحكومات فى ما سبق ولكن لأنهم على يقين من أن جوهر الضباط الأحرار إخوان وعنصر الحسم فى صفوفهم إخوان .

رابعاً : موقف الحزب الشيوعى كان واضحا ومحددا من اللحظة الأولى يوم ٢٣يوليو أنها انقلاب فاشى دموى استعمارى . وكان هذا الحسم نابعا من قياسات فكرية وسياسية ، فالانقلابات فى الدول المستعمرة كانت حتى ذلك الحين تتم بأصابع الاستعمار وألاعيبه ، وكان أى انقلابا فى أى دولة مستعمرة يعنى تغييرا فى شكل الحكم دون جوهره .. ويكون السبب الأساس

للانقلاب هو عجز النظام عن الحكم بأسلوب معين وهو يسعى الآن لتغيير الأسلوب فقط حتى يمكنه الاستمرار .

وقد تعلمنا من التجارب العالمية أن **الفاشية** تأتى إلى الحكم بسببين متواجهين أولها عجز الطبقات الحاكمة القديمة عن الحكم بأساليبها التقليدية وثانيها عجز الطبقات الساعية إلى السلطة بالثورة عن الوصول إلى الحكم والاستيلاء عليه بسبب ضعفها أو الاختلافات فى الصفوف أو عدم استكمال العدة وفقدان المبادرة .. حينئذ يجئ الانقلاب الفاش ، ليحمل نفس شعارات الثورة ، وليرفع أعلامها تضليلا ، وليستخدم اسم الثورة لإرهاب الجماهير .. فالفاشية ثورة مضادة .. ثورة ضد الثورة .. **انقلاب فاشى** .

والملاحظة الأولى على تحليل الحزب "**عصابة الفاشية والحرب**" تأتى من أن اعتبار النظام فى أزمة ، وأنه لا يستطيع الاستمرار فى الحكم . هذه الجزئية كانت جوهر تقرير **الأستاذ عبدالرحمن شاكر** ، وهنا نكتفى بمجرد الملاحظة .

وقد دعم "**طرح الفاشية هذا**" علاقة **الضباط الأحرار بالإخوان** ، وتوالت الأحداث بعد ذلك مؤيد هذا الطرح " **الفاشية** " فقد أفرجت **حركة الضباط الأحرار** عن كثيرين **المعتقلين السياسيين** ، وأبقت أبناء الحزب مثل "**مصطفى طيبة**" وبعض الشيوعيين الآخرين مثل "**فؤاد بليع**" وعبدالستار **الطويلة** واعتبر هذا تدعيماً لرأى الحزب .

كان **الرفيق خالد** "**الدكتور فؤاد مرسى**" قد قال فى الرد على عامر : "**إنه مشغول بالثورة فى كل صغيرة وكبيرة .. ولاشئ غير الثورة .. وتحت كل حجر يكتشفه تهب عليه ريح الثورة** " والآن فقد أصبحنا مشغولين بالفاشية ولا شئ غيرها .. وتحت كل حجر تهب علينا رياح الفاشية .

تحدثت مع **الأستاذ** عبدالرحمن **شاكر** فى شأن تقريره فعلمت أنه كان **مسئول الطلبة والعمال فى منطقة القاهرة** ، وكان عضوا **احتياطيا للجنة المركزية** . وقال : بعد تعيين **حافظ عفيفى** رئيسا للديوان خرجت الجماهير تهتف **ضد عفيفى وضد الملك حافظ عفيفى** ، بل إن الهتاف ضد الملك كان صريحا وعلانية : " **الغذاء والكساء ياملك النساء** " (ذكرت للأستاذ شاكر أن الهتافات ضد الملك وتحطيم صوره فى عيد ميلاده بالجامعة كان مبكرا جدا أيام حركة ١٩٤٦) .. وأضاف شاكر أعطيت توجيهاتى بأن ندعو القوى الوطنية لتكوين جهة لإسقاط النظام الملكى ، والاستيلاءعلى السلطة واستكمال مهام التحرير وجاء الرفيق " **طلعت** " – **مصطفى طيبة**

- وأعطيته التحليل ، وحينما عاد إلى قال إن الحزب يرفض وجهة النظر هذه ، فليس الحزب قادرا على أن يرفع شعار الثورة ، وهويكتفى بشعار **اسقاط حافظ عفيفى وليس الملك** .

وصدر قرار بوقف **عامر** وإبعاده عن النشاط .

كانت الأحكام العرفية قد اعلنت - وجاء **على ماهر** .. **فقبض على شقيق الاستاذ شاكر " زهير "** وهو يطبع منشورات يطالب فيها بإسقاط الملك .. ثم يضيف إن الدكتور " **رءوف فرج** " عرض على **شاكر** أن يستضيفه فى **المنيا** حماية له من الاعتقال .. **وفى المنيا** كتب تقريرا برأيه فى الأحداث قبل الحريق وقال إن التخلى عن فكرته أدى إلى ترك الجماهير بدون قيادة ، وكانت النتيجة أن الرجعية حرقت القاهرة ومعها أحرقت ثورة الشعب .

وطالب فى النهاية بعقد مؤتمر للحزب يناقش فيه هذا الرأى . واستلم التقرير **الرفيق غالب " داود عزيز "** وكانت النتيجة أنه أقصى نهائيا عن العمل الحزبى ، وقبض عليه فى **١٩٥٣/١/٢٦** مع قرار حل الأحزاب ، واعتقل مع أخيه " **زهير** " فى معتقل الصناعات الميكانيكة مع **حسين الغمرى وعادل حسين** .

٤ - مأساه كفر الدوار

بعد مضى أيام قليلة على **٢٣ يوليو** وجد الشعب المصرى نفسه أمام دليل حاسم لايقبل المناقشة . دليل من الواقع على صحة طرح الحزب " **انقلاب فاشى** " لقد كان من الطبيعى أن تتحرك الجماهير لتحقيق مصالحها إذ أعلنت **حركة الضباط الأحرار** أنها تقوم بالثورة لصالح الشعب وضد أعدائه .. ومن هذا المنطلق تحرك **عمال كفر الدوار والمحلة الكبرى** وغيرهم فى مجالات أخرى ، وإدارة المصانع هى الادارة القديمة الموالية للنظام القديم فأرادت تصوير حركة العمال بأنها معادية للثورة .. وتبنت الحكومة الجديدة وجهة نظر الإدارة . رغم أن العمال حرصوا على حراسة المصنع وأدواته . وحمايته من أى تخريب .

وقدم **خميس والبقرى** للمحاكمة على عجل ، ورغم أن الثورة كانت تفخر بأنها بيضاء بدون دماء إلا أن المحكمة حكمت عليهما بالإعدام بعد محاكمة سريعة غير عادلة أعلن فى بدايتها المدعى العام - **" إنما جزاء الذين يحاربون الله ويسعون فى الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض "** .

ورغم أنه ثبت أن الحرائق التى أشعلت كانت خارج عنابر العمل التى حافظ عليها العمال ومنعوا تخريبها ، وأن يد الإدارة كانت وراء هذا التخريب إلا أن الحكم قد صدر فعلا وأصبح الطريق إلى تنفيذه قصيرا

تلك هى إذا ثورة العمال والفلاحين .. اسما على غير مسمى كما تكون الفاشية .

ولكى ينفذ الحكم كان يجب تصديق رئيس الدولة عليه .. والرئيس كان **محمد نجيب** ، بعد ذلك قيل إن **عبد الناصر** لم يكن موافقاً على إعدام العمال .. خصوصاً وقد عرف عنهما أنهما من القيادات اليسارية فى المصنع . وأراد **محمد نجيب** أن يضرب ضربة أوسع .. فاستدعى العامل **خميس** ووعده بإلغاء حكم الإعدام بشرط أن يدلى باعترافات .. وأن يذكر أسماء قيادات العمال .. ولكن **خميس** قال له إنه يفضل الموت على أن يضحى بزملائه .. وقيل بعد ذلك إن مساعى **عبد الناصر** قد فشلت فى منع إعدام **خميس والبقرى** .. وكان معه فى مسعاه **خالد محى الدين** ، **ويوسف صديق** . وقيل إنهم اجتمعوا بأعضاء المحكمة ولكن المحكمة أصرت على حكمها ، وقيل أيضا انهم توجهوا إلى رئيس الدولة محمد نجيب ، فأصر على الإعدام حتى يكون عبرة لمن يريد أن يعتبر ، وفى ذات الوقت قيل ان محمد نجيب أصر على موقفه حتى يثبت أنه صاحب سلطة وسلطان .. وليس مجرد " طرطور " .

كانت الأحداث هذه سريعة متلاحقة فى الأيام الأولى بعد ٢٣ يوليو الأحداث والمحاكمة فى الأسبوع الثانى . وتنفيذ الحكم فى الأسبوع الثالث ، ومع أحداث **كفر الدوار** حوصرت مصانع **المحلة** ، **وشركة الغزل فى الاسكندرية** .. وهى المجالات التى نالها كثير من التنكيل وسفك الدماء فى أيام الملك .

ولهذا كانت هذه الأحداث تدعيماً لرأى الحزب بينما الذين أيدوا "**الثورة المباركة**" من التنظيمات الشيوعية " **حدتو** " قد هرعوا إلى كفر الدوار يدعون العمال للهدوء والسكينة ويخاطبونهم بمكبرات الصوت .

وقد صاحب هذه الأحداث حملة واسعة للتضليل مثل القول بفساد الأحزاب الصالح منها وغير الصالح . مما دعم طرح أن **الضباط الأحرار** ضد **الديموقراطية** ، **والحرية** .

٥ - البوليس على باب لجنة الامتحان

كنت فى أوراق البوليس القديمة من أيام الملك مطلوبا ، وكانت هناك قضية وكان الاتهام فيها هو " **محاولة قلب نظام الحكم الملكى بالقوة ، وتوزيع الأرض على الفلاحين** " وكان الظن أنه وقد ألغى النظام الملكى فى الواقع العملى أن تصبح القضية غير ذات موضوع .

ولكنى لم أفقد حذرى .. واعتبرت الموقف من هذه القضية دليلا يخصنى على صحة تحليل الحزب لحركة **الضباط الأحرار** .

وقد تزامن **امتحان معهد التربية** الذى تقدمت اليه فى **أغسطس** مع أحداث **كفر الدوار** ، فنصحنى البعض بعدم الذهاب للامتحان ولكنى ذهبت بقميص خارج البنطلون وقبعة إذا كان هذا يعتبر زيا تنكريا . وبينما أنا فى اللجنة فى آخر امتحان جاءنى من يخبرنى أن البوليس ينتظر بالباب ، فأنهيت الامتحان " وأرشدنى مراقب القاعة إلى باب شباك يطل على ردهة تودى إلى الإدارة .. ومنها خرجت إلى الشارع .. وحاولت ألا أسرع بشكل يلفت الانتباه .. ولكنهم أتوا مسرعين جريا ، فانحرفت فى أحد الشوارع الجانبية بحى المنيرة ، وأدخلت القميص فى البنطلون ، وأمسكت القبعة بفمى ومشيت فى هدوء أمثل خطوات الأعرج ، فمروا من جانبى يبحثون عنى .

ونجحت فى الامتحان ، وكان تقليداً أن يرسل المعهد أسماء الناجحين إلى وزارة التعليم لتصدر بها قرارات التعيين ، ثم تنشر فى بعض الصحف ، فذهبت إلى الأستاذ **عبدالرحمن الخميسى** ليتولى حذف اسمى فلا ينشر فى بعض الصحف وفى ذات الوقت ذهبت إليه ليخبرنى باسم المدرسة التى أعين بها .. وكانت **مدرسة عباس بالسبتية** بجوارالشركة التى كنت أعمل بها أيام كنت طالبا .. ولكنى تركت العمل فيها للصديق **إبراهيم أبو دياب** وظل يعمل بها إلى أن انتقل إلى **وزارة التخطيط** .

ومن الصدف الغريبة أن **مدرسة عباس** هى نفسها المدرسة التى كان يعمل بها **حسن البنا** بعد أن أنتقل من الاسماعيلية إلى القاهرة .

وقد مكثت بها شهورا .. واكتشفت فيها الصديق العزيز **حسين البرادعى** ، الذى كان نعم الصديق فى العمل ، وفى السكن ، وفى الحزب وفى السجن .. ولكن مدة حمله معه لم تطل . فبعد شهور اكتشف الحزب **جاسوسا** يعرفنى ، ويعرف مكان عملى ، فقرر أن أترك المدرسة والتدريس ، وأن أذهب إلى **الاسكندرية** محترفا ثوريا أوائل **العام ١٩٥٢** .

*** *** ***

*** ***

***

*

قابلني هناك الأستاذ محمد شعراوى الذى رتب لى الإقامة وأوصلني بالتنظيم وهو كبير إخوته الثلاثة من المناضلين ميسور ، وسيد ، ومصطفى ، الذين لم أعرفهم إلا فى السجن .

كان على أن أعمل فى جو مشحون بالعواطف الهادرة والتوتر المخلص ، فالاسكندرية ليست فقط مجاورة لكفر الدوار ، ولكن علاقات قربى تربطهما فكثير من عمال كفر الدوار يقطن فى الاسكندرية ، وأغلب الفنيين والخبراء كذلك فضلاً عن أن السجن الحربى بها كان مقر ضيافة خميس والبقرى ، وفيه عاشا أيامها الأخيرة .

وشيئاً فشيئاً أصبحت جزءاً من كل سداه ولحمته الإخلاص والتفانى .. رفاق واجهت معهم جو الإرهاب الفظ بروح الصداقة .. زكى عثمان الذى كان آخذ بيده ليرشدنى إلى الطريق ، فقد بصره ... ولكنه يحفظ الاسكندرية عن ظهر قلب ، بل كان يأخذ بيدى حين نذهب إلى كفر الدوار ، نلتقى عدداً من الفلاحين يقومون بالصلة بيننا وبين العمال ، حتى لا يحسوا بالعزلة ولا ترهقهم الوحدة فى وقت الكارثة . وشباب الجامعة فاروق طوبار ، وفاروق بلبول ومحسن الأعصر جامع الأسلحة والقنابل مع سعد زغلول فؤاد من الشاطئ الشمالى حتى السلوم لكى يسلمها لكتائب المقاومة فى القنال ، وعبد اللطيف هنداوى خبير المخابئ والأجهزة . وغيرهم فلم يقبض على واحد منهم طول وجودى فى التنظيم وإياهم .

***   ***   ***

***   ***

***

*

الـــفـــصـــل الـــســـادس

(١) رفـاق الاسـكـنـدريـة احـلـى الـنـاس

كنا نرى **الرفيق "الدكتور فؤاد مرسى" القائد الملهم** .. الذى اكتشف جوهر التقدمية ووجهها المصرى النبيل و الباسل بعد أن مرغها فى الوحل الأجانب من شذاذ الآفاق **يهوداً فرنسيين أو طليان** ، أو حتى مصريين يسيرون فى أعقابهم . ثم إنه حلو الأسلوب ، قوى التعبير ، جزل الكلمات ، ساحر الحجة مما أعطى للتفكير المصرى وجهه الأصيل ، بعد تهتهات الأجانب وتخبطات تابعيهم .

كنا نتمايل طربا حين نقرأ قوله لسليمان **"شهدى عطيه"** : شئ من المنطق الصورى يا **سليمان** إذا أعوزتك مبادئ الجدلية" .

كانت تلك الصورة للقيادة الواعية من عوامل التسليم بطروحاتها وتشخصيها للواقع . وحين تدلهم الأمور ، ويختلط الحابل بالنابل وتظلم مجالات الرؤية تأتى الكلمة المضيئة من قيادة مخلصه ، وهبت نفسها وعلمها للوطن .

وقد كان من بين عوامل الثقة بالقيادة هذا النمو السريع للتنظيم ، وهذه النوعية الفريدة من العناصر التى تعتبر نموذجا فكريا وأخلاقيا ونضاليا أينما حلت .

ثم هذا التوتر العصبى والنفس لدى بقية التنظيمات ، وتلك الحرب التى شنت علينا لأسباب دفنية كنا ندرك بواعثها وأهدافها .

كل هذا أعطانا الثقة فى التنظيم ، وكان عاملاً من عوامل الإيمان بالقدرة المصرية على شق الطريق فى أصعب الظروف وإجتياز المخاطر .

فى ظل هذه الرؤية ودعت المدرسة فى صمت بعد أن تركت مهام متابعة أعمالنا فيها للأستاذ حسين البرادعى .. لجنة التمثيل .. والخطابة الخ ودون أن يدرى أحد غيره غادرت إلى **الاسكندرية** .

كما أسعدنى أننا حولنا جو الإرهاب المظلم إلى جو ملئ بالعزم النابض المنير. جعلنا من أحداث كفر الدوار منطلقاً ، وأغرقنا **الاسكندرية** بالمنشورات ، وأهمها بيان الحزب ضد المحكمة العسكرية الذى صاغه **المرحوم حمدى أبو العلا** زوج السيدة **إنجى أفلاطون** .

كنا نختار المناطق المزدحمة ونضع المنشورات على سور الكورنيش لتوزعها الريح على الناس .

وبمثل هذه الروح واجهنا عبد الناصر أثناء لقائه بطلبة **جامعة الاسكندرية**، وكان قبلنا قد ذهب إلى **جامعة القاهرة وعين شمس** ، فقابله رفاقنا بشعارات المطالبة بالحرية والديموقراطية والهتاف ضد الفاشية .

وكانت منافسة رائعة بين شباب الجامعات ، استولينا على المنصة فى المؤتمر الكبير وانتشر رفاقنا فى الساحة يتبادلون الجهد .. وهتفنا ضد الإرهاب وبحياة الشهداء ، وبسقوط الفاشية ، وتجلى انتصارنا حين نشرت إحدى المجلات الحكومية صورة **عبد الناصر** وتحتها " **عبد الناصر يبكى ويقول : هل أنا فاشى ؟**

وفى **إيتاى البارود** واجه الفلاحون **محمد نجيب** بأرغفة **الخبز الأسود** فى أطراف العصى المرفوعة إلى السماء مما كان أكبر رد على شعارات التنويم والتضليل من نوع قطار الرحمة ، ومشروع الشجرة والهتاف " **بالاتحاد والنظام والعمل** " .

كنت أحذر الرفاق من الإفراط فى الحذر والحيطة التى تجاوز الحد ، والتخفى الملفت للنظر .. والتلفت المثير للانتباه .. كنت أقول لهم إن خسارة أحدهم تعنى خسارة المستقبل لعدد كبير . وكان اختيار المناضلين واختيارهم ، والدقة فى المواعيد .. وفى بناء التنظيم ..

(٢) أبى ينادينى باسمى الحركى

بالرغم من كل هذا الحذر سمعت صوتاً من أسفل العمارة ينادى باسمى الحركى . وكان فى البيت مختلفاً عن أسماء اتخذتها فى التنظيم .. لكل منطقة اسم .. هذا الصوت أعرفه .. نظرت من النافذة لأرى من ينادى فإذا هو أبى .

هرولت أقفز على درجات السلم .. سلم على وأخذنى إلى صدره .. طال اشتياقى إلى هذا الدفء الحنون .. وكان معه صديقى **المراكشى محمد عبد الرحمن السعدانى** .. الذى تعرفت به فى القاهرة حين جاء إليها هارباً من بطش **الاستعمار الفرنسى** وكنا قد اشتركنا فى جماعة نصرة مراكش ، وكان قد أتى باسم مزور ، وبجواز سفر مزور أيضاً ، وأراد الانتساب إلى **كلية الآداب** ،

أرشدناه إلى أن يعلن باسمه المزور عن رغبته فى تغيير هذا الاسم إلى اسمه الحقيقى ، ويأخذ بالاسم الجديد شهادة يدخل بها إلى الجامعة حتى يحصل بالاسم الحقيقى على الليسانس . وخلال دراسته تزوج من مصرية ، من أسرة كريمة وكنا فى حفل زواجه أنا **ومحمد شريف** الأصدقاء الأقربين ، وحين انتهى من **الليسانس** فى **القاهرة** التحق بآداب **الاسكندرية** ليحصل منها على الدبلوم ثم **الماجيستير** . وحين جئت إلى **الاسكندرية** دعانى لزيارته فى بيته **بالشاطبى** وأصر على أن أزوره كل أسبوع .

وكنت حينما تركت **القاهرة** فضلت ألا أخبر أحداً باتجاه سيرى .. ولكن أبى سأل عنى ، وحين لم يجب جواباً بدأ يبحث .. فى القاهرة سأل كل من يعرفه واستجوبهم .. وكان يدقق .. يسأل عن أسماء من أعرفهم ، وعن أماكن عملهم وإقامتهم .. واهتدى أخيراً إلى صديقنا بالاسكندرية وعرف محل إقامته فجاء إليه يسأله .. وقاده **السعدانى** إلى حيث أقيم .. وحيث نادانى باسم السكن .

صعدنا إلى حجرتى .. ودخل أبى .. ونظر مذهولاً إلى أكوام من المنشورات والمطبوعات والأجهزة .. وكنت على موعد مع الأستاذ **محمد شعراوى** لأعطيه نصيبه من منشور ، وكان الموعد فى **مقهى البورصة بالمنشية** .

أخبرت أبى أن على أن أذهب إلى موعد ضرورى ، ويبدو أن الانتظار فى هذه الحجرة بما فيها شئ مزعج ، فاقترح أن يأتى معى وحملنا لفافة أنيقة .. وركبنا الترام ، وشاهد أبى أحد الضباط جالساً فارتبك .. ولكنى طلبت من الضابط أن يحمل اللفافة عنى ففعل .. وأبى ينظر مندهشاً .. وحين وصلنا شكرت الضابط وحملت الحمل الثقيل وذهبنا به إلى المقهى .

كان الترتيب أن أقصد إلى طاولة يراها **شعراوى** .. أضع عليها اللفافة وبعد قليل أنتقل إلى طاولة أخرى تاركا اللفافة .. ثم ينتقل إليها شعراوى بعد أن يكون قد راقب الموقف من بعيد .. وكان أبى يشاهد هذا كله .. وسرنا خطوات ولكن الأستاذ **محمد شعراوى** لحق بنا ليسلم على أبى ويرحب به .

وعدنا إلى حيث يسافر إلى **المنصورة** .. وجوده معى خطر عليه لا أستطيع تصوره وسافر .. وما يزال صوته ينادى على .. يرن فى صدرى .

(٣) وداعا جميلة المدن

قضيت عاماً بالاسكندرية .. لم أغادرها يوماً إلا إلى حيث العمل فى كفر الدوار أو فى القرى المحيطة فى نفس اليوم .. وأصبحت الاسكندرية نفساً حلوا فى الصباح وملامح طيبة فى الغدو والرواح. حضورها الدائم فى العين والروح يجعل وداعها صعباً .

فى الرابع عشر من يناير ١٩٥٤ ، وفى أحد شوارع حى الابراهيمية ، جاءت سيارة من الشمال ، وأخرى من الجنوب ، وكأنهما على موعد .. واحدة من أمامى والأخرى من خلفى .. نزل ركابهما .. أحاطا بى .. وأمسكونى ، أيقنت ألا مفر وأن الحذر لا ينجى من القدر .. إذا فقد وقعت فى يدهم .. وبدأت مسيره أخرى بلا شراع ولا مجداف .. ليس على إلا أن أنظر إلى ما حولى .. وأتأمل الحركة والسكون . كنت قد جربت المبيت ليلة أو ليليتين فى أقسام طنطا ، وجربت المراقبة العسكرية .. ولكن .. الآن إلى أين يسيرون بى ؟ .. بلا شك فإنى مقدم على نوع آخر .. ومذاق جديد ..

كان معى حين قبض على شاب سمى لى " **توفيق** " .. لم يكن مريحاً .. ولم نكن نطمئن إليه ، كنا نشك فيه .. وقررنا قطع علاقتنا به فى هدوء .. وأخذت على عاتقى هذه المهمة ...

كان مفروضاً أن يكون آخر لقائنا به هو هذا الذى أوقفنى فيه .. كان موعدى معه جزءاً من ترتيبات القطيعة .. آخر أجزائها . ويبدو أنه ومن وراءه أحسوا بذلك فعجلوا بضربتهم وسبقونا ..

سألونى عن اسمى .. إذن فهم لا يعرفون .. أو ربما هم يدعون عدم المعرفة .. صبرا .. سوف تتكشف الأمور .. قلت لهم : إذا كنتم لا تعرفون من أنا فلماذا تمسكون بى ؟ **فى محافظة الاسكندرية** .. ألقوا بى فى الحجز ومعى " **توفيق** " هذا .

وقررت أن ألعب معهم لعبة الاسم .. من أنا ؟ بذلك أكسب وقتاً .. إذا لم أعد للموعد التالى فسيعرف الرفاق ويأخذ حيطتهم .. يستطيعون ترتيب الأمور ...

أسكت فلا يتكلم توفيق .. قلت له لماذا لم يسألوك عن اسمك ؟ .. أصابه نوع من الاضطراب ، أخفيت أنى ألحظه .. قلت له لابد أنك غير مقصور .. وغير مطلوب عندهم .. ابتسم فى بلاهة .. إذا لم يكونوا يعرفونى فسيكون هذا الذى يجلس أمامى هو الشاهد الوحيد على ..

أقنعته بأنى سأعطيه رسالة للخارج .. يبلغها للرفاق .. وعلينا أن ننكر أننا كنا معا فأنت كنت تسير قريباً منى .. وجودنا فى هذا المكان معا كان صدفة .. بذلك تخرج سالماً .. وتعود إلى العمل .. أعادوا طلب اسمى .. قلت ! ذلك يكون أمام النيابة .. بعد فترة طلبوه .. قال قائلهم .. النيابة تطلبه .. وعاد ليقول لقد نفذت ما اتفقنا عليه .. وطلبونى ذهبت إلى مكتب على بابه لافته .. إنه من مكاتب النيابة .. ولكنى أؤكد أن الذى يجلس إلى المكتب ضابط بوليس .. حسناً .. آن أوانى معكم .. سأقول اسمى الآن .

أفرج وكيل النيابة هذا عن " **توفيق** " أراد أن يعرف الرسالة فتجاهلت الأمر .. يبدو أنهم اتصلوا بالقاهرة .. إنه هنا .. هذا الذى ذهبوا إليه فى القرية ، وفى معهد التربية .. وفى المدرسة .. وبين هذا وذاك فى شوارع القاهرة .

على عجل أركبونى مكبلاً فى سيارة " چيب " قطعت الطريق إلى القاهرة .. وداعاً جميلة المدن .. وسلاماً إلى الرفاق .

سلمونى إلى **قسم السيدة زينب** ، وفى الصباح إلى **قسم الجمالية** .. ومنه إلى سجن مصر .. **عنبر جـ** فى السجن **للشيوعيين** ، كل من يأتى إليه يتسابق ويتنافس عليه سكان العنبر .. من أنت ؟ من أى تنظيم ؟ أين قبض عليك .

حتى إذا بدأت أستقر .. وبعد ثلاثة أيام من وصولى .. استدعونى ثانية .. أخذونى إلى **السجن الحربى بالقاهرة** .. سمعة هذا السجن طبقت الآفاق .. توقعت الهول فى كل لحظة ولكنه لا يجئ .. انتظرته ثلاثة أيام .. ما جاء . لست أدرى لماذا ؟

الأحداث التى تبقى ظلالها .. ثقيلة على الصدر .. جاثمة على الروح .. لا يمكن أن تنسى ، حتى بعد عشرات السنين .. بعضها فعلا يستعصى على النسيان .. وبعضها يكون من باب الشئ بالشئ يذكر تستعيده الذاكرة لعلاقته بأحداث محفورة فى الأعماق .

(٤) العودة للاسكندرية فى صحبته :

الصول ياسين.

كل الذين دخلوا **السجن الحربى بالقاهرة عام ١٩٥٤** وهم كثيرون لابد أن يذكروا **الصول ياسين** .. بنيان مكتنز .. ضخم .. ووجه يتحدى تضاريس الصخور .. وفم مغلق على أنياب .. ورسغ ملئ كجذع شجرة .. وكف هائل ..

لم يكن السجن الحربى **بالقاهرة** .. قد شهد بعد أحداثه الجسام .. ولكن صيته الذائع يثير التساؤل .. هاهى حلقة القيد فى يدى .. والأخرى فى يد **الصول ياسين** .

ماذا يجرى ؟

ركبنا سيارة " **چيب** " ومعنا جنديان بالبنادق .. لاحظت بينى وبين نفسى .. كان من الطبيعى أن أشارك فى القيد مع أحد الجنود .. فلماذا **الصول ياسين** ؟

السائق ينطلق .. نحن نتجاوز **العباسية** .. وهذه محطة مصر .. وصلنا إلى **كوبرى قصر النيل** .. إلى أين نحن ذاهبون ؟.

سألت **الصول ياسين** .. نظر إلى كأنه لا يفهم .. وبقى فمه مطبقاً كالقيد فى يدى ويده .

القاهرة تمر بنفس سرعة السيارة .. القاهرة حلمى القديم .. كم ذا سرت فى شوارعها وحاراتها .. مجرد حلم وذكريات .. والجيزة تمضى والهرم .. وهذا هو الطريق الصحراوى لم يعد ما يدعو لسؤال الصول ياسين ، أصبح وجهه كالصحراء .. لابد أنهم وجدوا بالاسكندرية ما يستدعى إعادتى إليها .. صوت السيارة يأكله صمت الصول ياسين ، وكأنه يضع العالم فى فمه ..

أبـــو شـــادى

وصلنا إلى السجن الحربى بالاسكندرية .. فى ثكنات مصطفى باشا .. سلم الصول ياسين قائد السجن ابو شادى أوراقا تفحصها . وقع على ورقة ، طواها الصول ياسين ووضعها فى جيبه . حيا القائد وضرب رجله فى الأرض .. توجه للسيارة .. وبها انطلق مع جنديين لا يحرسان أحدا .

كان هذا السجن مملكة لقائده " أبو شـادى " .. بين السجن والبحر سور يعلو الشارع فالبحر .. صوت البحر الزاخر ، ورياح يناير كالعاصفة القادمة من البحر .. حول السجن يقيم الجيش؟ وأشار أبو شادى .. لأحد الجنود فجاء .. وهمهم له .. وقال له ما لا أفهم .. سحب الجندى ذراعى ، ومشى بى نحو السجن .. وصعدنا للدور الثانى .. فى ركن الدور الثانى باب يفتح نحو الخارج .. والباب الآخر للداخل .. تلك هى الزنزانة .. لا .. فتحوا باباً آخر للخارج .. والباب الرابع للداخل .. من داخل زنزانة زنزانة .. أخذوا منى ما ألبس .. أعطونى ما لا يلبس .. سروالا فوق الركبة .. وقميصاً لا يستر بطنا أو ظهرا .. فى أقدامى وضعوا الأغلال .. وضعوا قيداً فى الرسغ الأيمن .. شدوه وراء الظهر .. وضعوا قيداً فى الرسغ الأيسر .. القيد الأيمن ، والقيد الأيسر خلف الظهر يتداخلان كحلقات التعاون .. ذلك يدعى " الخلف خلاف " .. ذلك ما قال الجند .. دفقوا ماء فى أرض الزنزانة .. أصبحت الزنزانة بركة ماء .. ثم انصرفوا .. هذا صوت الأبواب باب يغلق .. والثانى .. والثالث .. والرابع ..

ما أقسى اللحظات الأولى .. ما أتساها .. اللحظة حين تمر .. كنهار .. كالدهر .. أخطو فى بركة ماء .. أبحث عن سند فى ركن الزنزانة .. أطلب شيئاً لا أدرية .. ممن أطلب لا أدرى ، وضعاً للقيد يريح .. وأحرك رسغى لكن الألم يزيد .. ما أخشاه أنى لا أعرف شيئاً مما يحدث .. لا أعرف ما يجب على .. لا أعرف ماذا أفعل .. الألم يزيد .. هل أصرخ . لا .. إن القائد فى الخارج يسمع .. لا .. القائد يتمنى أن يسمع صوت الآه .

لو أن أعلم قبل الآن هذا النوع من الآلام المجنونة . ما حركت يدى .. ما حركت القيد على الرسغ .

(٥) وحيداً أسمع الصمت .. وأحاور الموت .

خلف خلاف .. هذا ما سموه .. تلك اسم طريقتهم فى التعذيب .. تتأوه منها أطراف الشعر .. وخلايا كل الجسم .. ومسام الجلد .. فى هذا الوضع لا يجد الإنسان سبيلاً للراحة إلا بالموت .. أسمعه يأتى .. ويعود .. بالخلف خلاف لا يقدر إنسان أن يجلس فإذا جلس المسكين .. أو حاول .. لا يقدر أن ينهض .. وتغطى الآلام على صوت الريح العاصفة تجئ من الشباك .. فى الزنزانة .. فى أعلاها شباك وضعوا عند زواياها الأربع .. أربعة قوائم . فى أعلاها ثبت لوح .. تأتى الريح ولا يأتى الضوء .. حدثت ضميرى .. فلأشغل نفسى بتأمل ما حولى .. لو ركز إنسان فى الألم لجن .. وتذكرت من الماضى قصة .. رجل من حكماء التاريخ أصيبت ساقة .. وإذا لم تقطع ساقه .. يسرى الموت إلى كل الجسم .. اختاروا وقت صلاته .. حيث يركز فى الله .. وفى معنى الشوق إلى الله .. تلك صلاة القديسين .. قطعوا رجل الشيخ .. وقد كان يصلى .. لم يدر . لم لم يشعر بالآلام .. ذلك ما يدعى بالتخدير الذاتى .. بالتركيز بعيداً .. فى شئ قدسى . ولدى كثير مما يجدر ذكره .. وأركز فيه .. أشياء أخرى تبعد عنى الآلام .. وتخدر ما حول الخلف خلاف .

أبتاه .. هل تسمعنى ؟ ناديتك باسمك .. وذكرتك إذ جئت تنادينى باسم آخر غير اسمى .. أماه .. وبقية كل الأهل .. والأصحاب بأركان القرية .. أتوحد بالشوق إلى أحداث الماضى .. بالصورة فى الوجدان ..

حين يصبح العذاب عالمك الأوحد .. فأنت القادر أن تهزم كل الآلام .. إذ يتمكن منك يحطمك .. حدثت النفس بذلك .. وبين أن يملكك أو تملكه شعرة رقيقة لا تعرف كنهها .. ربما هو نوع من الصدفة .. أو القدر أو حسن الحظ .. أو هو إلهام أن نعتاد الآلام .. أن نتعايش معها .

وأظل أحدث نفسى فى ذلك .. شئ كالإغماء أتى بالصبح .. كان حتما سيجئ .. وتفتحت الأبواب .. الباب الأول .. والثانى .. والثالث .. والرابع .. ما أحلى هذا الصوت .. إذ يأتى شئ آخر غير الريح .. وغير الخلف خلاف .

جاء ومعه مفتاح القيد فك الخلف خلاف وظننت كأنى سأعود كما كنت .. يا للهول .. لكأن يدى تجمدتا فى الخلف .. وأجرب نقل يدى .. كأنهما أثقال وجبال .. لكأنى إنسان يجمع أشلاءه ..

قال الجندى : هيا إلى دورة المياه .. الكلمة كانت حلما .. أسرعت إليها .. حاولت الإسراع القيد على الأقدام يعوق الخطوات .. كنت نسيت القيد على الأقدام .

ورأيت السجن من الداخل .. نفس **السجن الحربي بالقاهرة** .. غير أن مساجين مصطفى باشا من الجيش .. وليسوا من السياسيين .. نظرت إليهم أتأمل في صمت .. ووقفوا هم أيضاً ينظرون إلى .. فانهالت عليهم الصفعات والشتائم .

وأعادوني للزنزانة .. أعطوني طبقاً من عدس .. **ألقوا في العدس رمالاً** .. **أعطوني خبزاً** .. ثم انصرفوا .. وسريعاً ما عادوا .. حملوا آنية العدس .. وأعدوا قيد الخلف خلاف .

(٦) التحقيق : مطلوب دليل على التعاون

إنى أسمع صوت البحر .. وأصداء الريح على الجدران .. وأردد كلماتي في نفسي وأسير مع الصمت .. وأحاور دقات القلب .. وأداري أحزاني أعماق البركة .

وأظن الوقت قيودا .. والماضي قيدا والحاضر .

لكن الذهاب لدورة المياه .. والوقت المباح للطعام .. والسير خطوات خارج الزنزانة كانت ملاك رحمة .. وصوت مواساة .. في العالم شئ آخر غير القيد .

وتذكرت .. البرد .. وعاصفة البحر .. أنساني القيد الآلام .. لم أشعر بالبرد .

أخذوني إلى مكتب القائد .. رأيت إنساناً تذكرته كان في إحدى السيارتين يوم القبض على .. القائد يحدثه بأدب شديد .. إنه س.ع .. كان من **البوليس السياسي** مع **إمام ابراهيم وسمير درويش قبل ٢٣ يوليو** .. والمباحث العامة الآن .. مجرد تغيير في الأسماء .. طلب منى الجلوس .. هو يعرف أني لا أقدر أن أجلس .. أومأت إلى الخلف .. إلى القيد .. وكأن الشيطان يفاجأ بالقيد .. فينادي أحد الجند .. أحضر مفتاحاً .. وعلى عجل فكوا القيد .

حاول س.ع .. أن يوحي إلى بأنه لا يدري شيئاً عما يحدث .. كان القائد قد سار بعيداً .. يبدو أن الأمر تكرر فيما بينهما فأجادو الدور .

قال س.ع .. ليس هذا رأيي .. ذلك شأن السجن .. ونظر إلى ما أرتديه فتذكرت الملابس في الأيام الخالية .. قال لي : هذا أيضاً شأن السجن .. أنا لا أملك في أمر السجن شيئاً .. وليس لنا عليهم سلطان..

قال : أنا لا أريد سوى كلمات .. كلمات أعرفها .. أنا أعرف كل ما تظنه سرا . وما تظن أنك تخفيه .. لا حاجة بي لسؤال .

إنه فقط يريد دليلاً على التعاون .. دليلاً يعطيه الحق فى التدخل للتخلص من هذا القيد " الخلف خلاف " .

لم يكن لدى ما أعطيه .. بدا عليه التذمر .. كان شديد الثقة بأن هذا النوع من التعذيب يفعل المعجزات .. لا شئ يستعصى عليه بهذه الوسيلة .. كان يظن أنه سيعود منتصراً .. ولكن ثقته ضعت هباء .. أمر بالقيد .. واطمأن على إحكامه وبدأ يضرب بيده على مركز الأوجاع عند الرسغ .

وبعد يومين آخرين جاء ، وتعودت أن تمضى الأيام .. بطيئة لكنها تمضى على أية حال . وحاول مرة أخرى .. وذهبت محاولته سدى .. فقل لى إنه لا حاجة له بكلمة منى .. وإنه يعرف كل شئ .. قلت له ! ألست أنا الذى أخبرتك باسمى .. أنت لم تكن تعرفه .. فتميز غيظاً ولكمنى فى وجهى .. وأمر بإعادة القيود ..

ومر يوم .. وآخر .. وثالثاً .. يبدو أنه فقد الأمل .. أو ربما هو يطيل أمر العذاب عساه ينجح .

وأخيراً جاء .. أمر بفك القيود .. وقال للحارس خذه إلى زملائه ليجلس معهم .

(٧) من الكلاب إلى الذباب..

ماذا يعنى هذا الملعون وضيع الأصل .. خذه إلى زملائه .. هل وقعوا فى الشرك .. رفاقى لا يقعون .. ماذا يعنى .. تصاب آفاق كذاب .. أصحابى فى الشارع نور لا تطفئه العواصف .. أنا أعلم أنهم الآن فى أمان . ماذا يعنى .. ومشيت مع السجان .. أخطو أتلفت حتى أبصر شيئاً يرشدنى .. ماذا يعنى ..

هاهم زملاؤك .. ماذا ؟ فى نفسى قلت .. جلسوا فى الدفء بأيديهم أكواب الشاى ، وسجائر .. زملائى من نوع آخر .. لو جاءوا لاسمح الله .. سيكون " الخلف خلاف " بأيديهم وستعصف بهم الريح لكن الراسخ فى القلب يزداد رسوخاً .

اجلس .. وتلفت إلى الصوت .. هذا سعد أو نحس جاء .. ليرشدنى للزملاء!!. وجلست . زنزانتهم مفتوحة .. باب واحد .. تدخلها الشمس .. قال سعد : هم سياسيون مثلك .. فى نفسى قلت : مثلى فى ماذا ؟ فى الضلوع المملوءة بالكمد .. فى العدس المحشو بالرمل .. فى ماذا ؟ وتنبهت .. قالوا أهلا .. وجلست .. لم يشغلهم حالى كنت كأنى فى صالون .. وخشيت على الكرسى أن يتأثر .. بمياه البركة عالقة بهلاهيل ثيابى .. لكنى أجلس ..

قدموا أنفسهم لى .. الدكتور ف . م .. الدكتور ع . ط .. وانسحب المدعو س .. أتلفت

فى أرجاء السجن .. فإذا مسجون يتلوى حتى أنتبه إليه .. يحذرنى .. يضيع يده فوق الفم .. يمسك شفتيه .. هذا فعلا من زملائى ..

قدما لى شيئاً من الطعام .. شكرت كرمهم .. واعتذرت .. عندى ما يكفينى .. قدموا تفاحا .. فأبيت .. أنا لا أعرف معنى التفاح .

قل الدكتور ف : بعد المناقشة سيهدأ .. وسيطلب شيئاً من ذلك ..

وتحدث .. عن الخلافت بين المنظمات .. وأنها جميعاً أفكار على طريق واحد .. لها هدف واحد وإن اختلفت .

قلت لهم لكى نتحدث لابد أن نكون فى وضع متكافئ .. كما يقولون : على قدم المساواة .. ولكنى أنتظر القيد .. وهو ينتظرنى .. والزنزانة التى يسميها المسجونون الثلاجة تنتظرنى .. وحين نكون معا .. فى زنزانة واحدة .. يمكن أن نتناقش .

قال الدكتور ف .. حالة عدم الثقة تكون دائماً بعد البداية .. قلت له بل إن الثقة هى ما يجب أن يكون البداية .. فقال : إذا تفاهمنا سيذوب الجليد .

وساعده الدكتور الآخر .. قال :يجب أن نبحث عن نقاط التلاقى الفكرى .. وقال إن أفكارنا معروفة .. وخلافاتنا واضحة .. وبدأ يضرب أمثلة لما يعتبر أنه وجهة نظرى .. ويشرح الخطأ فيها خاصة الموقف من ٢٣ يوليو .. وأبصرت من بعيد مسجوناً يراقبنا .. أشرت إليه خفية وأمسكت شفتى .

غضب الدكتور ف .. لأنى لا أرد على زميله .. وأعلن انتهاء المناقشة .. لا جدوى من الكلام معه .. هكذا قال .

تقدم الجندى ناحيتى .. ووضع القيد فى يدى .. والمشهد يراقبه المسجونون .. وحين أكمل الجندى حبكة الخلف خلاف .. رأيت فى وجوه المساجين شيئاً يشبه السرور .. لقد نجوت ..

ولكنى سرت .. والحديد فى الأقدام يضرب الأرض كأجراس الكنائس .. وتأكد لى أن فى العالم أشياء أخرى أقذر من القيد " خلف خلاف " .

(٨) أحيانا يكون الموت حياة

عدت إلى زنزانتى .. وأغلقت الأبواب .. لأول مرة لم أعدها .. كنت فى عالم آخر .. لم يعد القيد يؤلمنى .. هذا هو التخدير الذاتى .. أذهلتنى مناقشة الزملاء!!. لم يتحدثوا عن ما أعانيه .. ولم يشغلهم

ما أقاسي . الهموم عبء ثقيل .. ما كنت أظن الإنسان على هذا النحو .. كأنهم مع س.ع يحاصرونني .. وأنا بينهم بلا حول ولا طول .. ولكن المساجين إشراقة نور .. وإطلالة من السعير على نسيم عليل .. آلامي ذابت في أحزاني .. ذلك معنى الشعر .

لمحت شعاعا من الشمس يتسلل .. يفلت .. يذهب على مياه البركة وينعكس على الجدران .. ذهبت إليه .. أردت أن أحتضنه .. حتى لامس رأسي .. وسريعا ذهب .. كما جاء ..

يا شعاعا أحبه	قد ضاع مني قربه
إن كان بعدك عني	يريد بعدا فحسبه
لا تحسبني عبدا	حتى يجافيه ربه
إن طرت عني فإني	أحب شيئاً تحبه
أحب ألقاك حرا	وفي الملايين دربه
*****	
طريا شعاع ودمدم	وكن رجاماً وجمرا
على الذين أرادوا	بالشعب أمرا وأمرا
دمدم عليهم بصوتي	وهز أركان مصرا
ولا تدع من عتل	يتيه عجبا وكبرا
إلا جعلت قفاه	من اللظى قد تهرا
*****	
عد يا شعاع رفيقا	على رفاق الكفاح
أنر عليهم طريقا	ساروا به في البطاح
قبل لهم كل صبح	عينا تريد الصباح
*****	
عاد الشعاع سريعا	إلى رفاق أباه
غدا يجلجل صوت	يصم سمع الجناه
غدا يضج طريقي	بالحق يعلو صداه
غدا سألقى رفاقي	غدا سألقى الحياة

كنت من قبل أقول .. أنا أتألم إذا فأنا موجود .. وكان التعذيب حتى الموت دليلاً على وجودي وحياتي .. والآن فقد أصبح الشعر دليلاً آخر .. إنه وسيلة للتركيز بعيداً عن الخلف خلاف والظلام .. والبركة والعواصف الرعناء .. وأخذت من الشعر الأداة الأمثل لتخفيف الآلام .

مرة هبطت حمامة على " صاج " النافذة أو على القوائم التى تحملها .. بجهد كبير تبينت ملامحها .. راقبتها .. فرحت بها تمنيت أن أحدثها .. وأن أعلم ماذا يغريها بهذا المكان .. لو أنها عرفت لابتعدت كثيراً .. وطارت الحمامة .

فى اليوم التالى جاءت .. هل هى تلك التى كانت بالأمس .. إلى أين تذهب حين تغادرنى .. ولمن تنشد ألحان حزنها .. أتنوح لعذابات الاخرين .. أم شوقاً إلى عشها .. وهل تعانى فى عالم الطيور مثل ما يعانى البشر .. ويلقى الإنسان من أخيه الإنسان .. ناديتها .

حمامة السجن آهاتى ممزقة ..

ولكنى خشيت أن يصيبها الحزن .. عندها من الحزن ما يكفيها .. قلت لها ..

غنى حمامة لا تحزنك بلوانا غدا سننشد و ليوم النصر ألحانا
طيرى إلى شجر حر ولا تقفى على حديدى فليس السجن أغصانا
هيا .. اذكرينا لدى قوم إذا ذكرت أخبارنا عندهم هبوا لذكرانا
إنا على العهد يا أختاه نذكرهم أبطال شعب أحالوا الماء بركانا
خاضوا معارك لا التاريخ ينكرها ولا العداة استقروا بعدها آنا
صبوا على صخرة الإقطاع سخطهم فأصبحت كالخزف المسحوق وهانا
وقاموا الغزو والاقطاع سانده وأوقفوا عمرهم للشعب قربانا
عابدين يذكر يوم السبت[1] موقفهم قادوا جحافل شعب سار غضبانا
يوم المؤامرة السوداء ما وهنوا وما استكانوا لذل بات شمتانا الخ

أصبحت صديقا للجندى السجين الذى يأتى مع السجان يحمل الطعام .. ويفتش معه الزنزانه .. حين خروجى لدورة المياه .. همس فى عجلة خوفا من السجان فى شباك دورة المياه سيجارة وشطاطة وعود كبريت .. لا تترك أثرا لها بعد التدخين . كانت سيجارة ملفوفة .. من دخان أعقاب السجائر التى يجمعونها أثناء العمل فى تنظيف حجرة القائد وما حولها .. ولكنى سعدت بها لأنها هدية من أصدقاء أعتبرهم زملائى .

---

(١) السبت يوم حريق القاهرة .

(٩) القائد يرجونى أن أحيا

فى يوم .. لا أدرى إن كان **العاشر** .. أو حتى **الثانى** .. لا أعرف كم كان .. **أحسست** بشئ فى أنفى .. شئ يتساقط .. فى ظلمة تلك الزنزانة حدقت .. أرهفت السمع ونظرت إلى الأعلى والأسفل .. لا يد لى تمتد إلى أنفى .. القيد الخلف خلاف وراء الظهر .. ورأيت دماء .. أنفى ينزف .. هل آن أوان خلاصى ؟ . ولأول مرة .. رغم قيودى أحسست البرد .. من قبل .. كان الإحساس القيد .. القيد فحسب .. الدنيا الآن برد .. برد يعرفه فبراير .. والبحر الأبيض يأتينى إعصاره .. عبر الشباك .. آذانى تنقلنى عند الموج .. كلى آذان .. قد كنت أنام قليلاً فى الركن أسند للحائط رأس .. والآن هذا النزف ماذا يعنى .. هل جاء أوان الراحة .. أتمنى أن أصرخ . لكن الكون يدور .. جدران الزنزانة تجرى من حولى .. أنا تائه .. أنا تائه .. أنا أحلم .

فتحوا الزنزانة فى موعدهم .. لم أسمع بابا يفتح .. ورأونى فى بركة دم .. حملونى .. فكوا القيد .. أعطونى شيئاً بالفم .. والدنيا من حولى غيم ..وضباب .. شيئاً بعد شئ .. وجه القائد يبدو .. يتحدد .. حركت يدى .. أين القيد ..

جاءونى بملابس مما نعرف .. مما يلبس كل الناس .. حين أتيت إليهم أخذوها .. واليوم .. عادت لى .. القائد يبدو مخذولاً .. يرجو ألا يأتى الموت .. من قبل لم أنظر فى وجه القائد حسا ومشاعر .. لكن ملامحه اليوم ترجونى أن أحيا .. بحنان أقبل نحوى .. **أعطانى كيسا** .. وأرانى ما فيه .. تلك ملابس ليست لى .. أنا لا ألبس غير ثيابى .. قال القائد ! قد جاء أبوك .. يسأل عنك .. أعطانا هذا لك .. وأفقت .. هل أصرخ .. لكن الصرخة ضاعت .. احتضرت فى الحلق .. يا أبتاه .. آه .. كيف عرفت مكانى.. القائد يصغى ويقول ! ماذا قلت ؟

ونظرت إليه .. قلت ! ماذا قلت ؟

استعصى القدم على الحذاء .. **قدماى ورمتان** .. قال القائد لا بأس فليذهب دون حذاء .. أن سأذهب .. ماذا يجرى ؟

أخذونى للمستشفى .. نظر طبيب فى عينى .. وفى الأنف ، واستمع لدقات القلب، قال لهم .. كيف تركتموه حتى صار هكذا .. كتب شيئا فى ورقة أعطاها لهم .. **وأعادونى إلى السجن** .

أدخلونى فى زنزانة أخرى بعيداً عن **الثلاجة** ، وفى جانب آخر غير جانب **"الزملاء"** الذين ناقشونى .. نمت على سرير دافئ .. نمت طويلاً .. واستيقظت لأجد طعاما بلا رمال وأكوابا .. والأطباق

والملاعق .. هكذا يكون السجن .. **ما أحلى المرض بلا قيد** .. بل **ما أحلى الموت بلا قيد** .

جاء جندى من **مساجين الحربى** لتنظيف الزنزانة - همس لى - حمد الله على السلامة وهرع إلى الباب ينظر .. هل يتبعه أحد .. وحين لم يجد أحدا أخرج من جيبه سيجارة . ليست من أعقاب القائد . أحلا ما دخنته فى حياتى .

هل تعلم ؟ قال وهو يعمل فى أرض الزنزانة .. كنت فى زنزانة خميس .. ومنها أخذ إلى الإعدام .. كنا نظن أنك ستلقى نفس المصير .. وبينما أنا تائه .. أردد فى نفسى زنزانة خميس . نحن نسميها الثلاجة .. قلت له : أعرف .

تعودت فى الثلاجة أن أقيس الأمور بأذنى .. فى مستقرى الجديد أستمع إلى نفس الأصوات .. إلا أن البحر بعيد .. والناس هنا أقرب .. ولكن أصوات المساجين ، وطوابير المعسكر .. ومناقشات .. وصوت الضرب .. وأنواع العقاب وأصوات السيارات تذهب وتجئ على الكورنيش .. عالم آخر .

وتذكرت أبى .. كيف جاء .. وماذا علم من أمرى ؟ وكيف استقبله القائد ؟ وماذا قال حين عاد ؟ آخر مرة رأيته كانت فى رحلة المنشورات إلى **مقهى البورصة** .. متي يستريح هذا الرجل ؟. من الذى دله على مكانى ؟ لعله ذهب إلى ابن عمه ، **الضابط الكبير بالجيش** ؟.. هو وحده الذى يمكنه معرفة مكانى ..ألم يكن يستطيع أن يتدخل ليرى الأبن أباه ؟.

لم أكن أستطيع المشى بلا مساعدة .. اعتمدت هلى كتف جندى مسجون من زملائى الأقربين . لأجلس فى الشمس أمام الزنزانة .. فوجئت بأن هناك سياسيين غير " **زملاء المناقشة إياها** " أذكر من بينهم المرحوم **مصطفى عبده يوسف المحامى** والأخ العزيز **عبد الصمد محمد عبد الصمد** العامل فى سباهى ، والذى جاء متطوعاً إلى **القاهرة** - بعد ذلك بسنين طويلة - ليشهد أمام المحكمة فى قضية التعذيب بما رآه فى السجن الحربى بالاسكندرية ثم رأيت الأستاذ **عبد الستار الطويلة** .. الذى أشار إلى موقع الزنازين ودرجات شاغليها .. الثلاجة .. وزنازين الناس العاديين مثلنا .. ثم هناك الزنازين الممتازة حيث يوجد دكاترة المناقشة ... وهى بعيدة فى الناحية الأخرى ..

(١٠) صوت أم كلثوم يواسينى

ما تزال ذكريات الثلاجة كابوسا .. فى اليقظة والمنام .. ولكن ليلة من ليالى الثلاجة لا تنسى .. **الخميس الأول من فبراير عام ١٩٥٤ موعد حفل أم كلثوم الشهرى قضيت معها السهرة** أستمع مذياع المعسكر . ومكبرات الصوت تذيع الحفل . وكانت نافذة الزنزانة وسيلة اتصالى بالحياة .. ومنها جاء صوت **أم كلثوم** .. كانت أغنيتها " **يا ظالمنى** " .. كأنها كانت تغنى لى .. تواسينى

وتخفف عنى وتنادى الظالم معى .. أنا أعرف معنى ندائها ولكنها لا تعرف معنى ندائى .. كل كلمة من كلمات الأغنية أوجهها كما أريد ، وأجعلها تعبر عن ما أشاء ، وأحملها معانى خاصة بى .. هذا الظلم الذى أذوقه .. والذى ذاقه من قبلى **خميس والبقرى** ، أم كلثوم تنادى ظالما لا أعرفه أما ظالمنا فأناديه معها.. إنه وحده فى مصر الذى يغضب حين يقال له يا ظالم .. " **وتغضب لما أقولك يوم يا ظالمنى** " .. هذا من الأغنية لى وليس **لأم كلثوم** .. وحتى اليوم .. فإننى حين أستمع إلى هذه الأغنية أفسر فيها الظلم والظالم بمقياس الثلاجة والقيد " **خلف خلاف** " .. كانت أم كلثوم فى هذه الليلة عامل تخفيف من الآلام .. توجه المشاعر بعيداً .. تذكرت معها وبها جلسات القرية .. فى نفس حفلاتها الشهرية .. حين يجتمع الناس .. ويعدون العدة لحفلها الذى لا يمكن أن يمردون انتباه ورعداد .

كثيرون كانوا يجتمعون خارج البيت الذى يكون فيه " **الراديو** " .. بعضهم يستمع باستغراق .. وحب .. أكثر من الذين بالداخل .. وهكذا كنت فى زنزانتى .. أسمع كما لم يسمع أحد فى حفلها .. أو فى المذياع فى شتى الأرجاء .. لم تكن بالنسبة لى أغنية حب .. ولا لحن حزن .. بل كانت صرخة غضب واحتجاج .

بعد تجربتى خجلوا من الصراخ

منذ وصلت **إلى زنزانتى الجديدة** وأنا أقضى الليل وأغلب النهار نائماً .. الإرهاق الشديد والوهن الزائد عن الحد .. وفى لحظات صحوى كنت أجلس قليلاً مع الزملاء .. وكثيراً أتحدث مع العساكر المسجونين .. ولكن أغلب الوقت كنت أفتح النافذة ، وأطل على البحر ... قال لى أحد المسجونين : بعدما رأيناك لم نعد نصرخ من القيد " **خلف خلاف** " .

*** *** ***

*** ***

***

*

الـــفـــصـــل الـــســـابـــع

١- الـعـودة للـسـجـن الـعـمـيـد

ذات يوم عاصف كان البحر متلاطم الامواج .. والسحب منخفضة ثقيله .. كأنها عباءة فوق الأمواج .. هكذا بدأ المنظر من بعيد .. وإذ أنا مستغرق فيما أرى .. جاءنى **جندى من المساجين** .. قال لى خذ منى سيجارة .. قلت له عندى سجائر . (كان يوفرها له الأستاذ **مصطفى يوسف والصديق عبدالصمد** .. ولكنى احسست أنه يجب أن أجبر خاطره فأخذت منه هديته .. وأنتظر كأنه يريد أن يقول شيئاً ..

قلت له إجلس الى جوارى على السرير فأبى .. وأخذ يحدثنى عن أنواع التعذيب التى عانوا منها .. وإن افظع هذه الأنواع هو " **الخلف الخلاف** " ما أن يوضع القيد فى اليدين خلف الظهر " **خلف خلاف** " حتى تعصف بالمقيد آلامه .. ويبدأ الصراخ .. والعادة فإن هذا العقاب يكون قصيراً .. وينتهى غالبا بأن يقول المعذبون ما يطلب منهم ، فيعترفون على الآخرين بما فعلوا أو بما لم يفعلوا ، وما تريد الإدارة أن تعرفه .. وبعد أن شاهد المسجونون تجربة الخلف خلاف معى بدأ بعضهم يخجل من الصراخ .. وشيئا فشيئا أصبحوا يكتمون آلالهم .. وكان هناك نوع آخر من التعذيب الجماعى .. إذ ينام المسجونون جميعا فى صف واحد على بطونهم ثم يقوم الأول من الصف ليسير على أجساد الباقين حتى يصل إلى النهاية ويقوم الآخرون واحدا إثر واحد يسيرون على جثث الباقيين ويوم رفض المساجين السير على جثة بعضهم قامت قيامة إدارة السجن وعاقبوا المسجونين بحفل ضرب جماعى موجع ..

وتردد قليلا ثم قال : منذ يومين وحركة غير عادية فى معسر مصطفى باشا والقيادة فى حال استنفار قصوى (حسب تعبيره واقفة على زبانها)

علمت من الاستاذ **مصطفى يوسف** أن معركة من أجل الديموقراطية تدور رحاها فى مصر كلها .. بين الجماهير وداخل قيادة النظام .. وتصاعدت المعركة حتى احتدمت على الصعيديين .. وأنه يعتقد أن دورا فى هذا الشأن تقوم به **المنطقة العسكرية الشمالية** .. وأن الدكاترة " **ف ، ع** " قد أخلى سبيلها .. وهذا يعتبر نوعا من التصرف مع **المسجونين السياسين فى حربى الاسكندرية** .. ولهذا يجب أن ننتظر ما سيحدث لنا ، وفى صباح اليوم التالى رحل **الأستاذ عبد الصمد إلى سجن العذراء** ورحل **عبد الستار الطويلة إلى سجن مصر** كل ذلك فى نطاق ترتيب الأحوال تحسبا لما تأتى به أيام الأزمة فى أوائل مارس .

وبالنسبة لى فقد كانت تحقيقات **س.ع** لم تنته إلا بالانهيار الصحى الذى حدث لى .. وأظنه قد توقف ليبدأ من جديد .

ولكن ما عرف بعد ذلك بأزمة مارس التى تصاعدت شعبيا بالمطالبة **بالديموقراطية** وفى صفوف القيادة بانقسام أدى **لجوء خالد محيى الدين إلى ثكنات مصطفى باشا بالاسكندرية** حيث خشى أولو الأمر من إمكان عدم السيطرة على **المسجونين السياسيين فى السجن الحربى** .

وحيث كان وجود " **الزملاء الدكاتره** " .. أدوات المناقشات والتخضيع والتركيع لحساب **المباحث العامة** .. كان وجودا رمزيا .. إذ أنهم كانو مجرد مقيمين فى مكان أمين لأداء مهمة معينة ، فقد كانوا أول الخارجين إلى بيوتهم .

وبقيت أنا حتى النهاية ، وكان مستند ترحيلى إلى **سجن مصر** مجرد خطاب بالحاقى به دون تحديد التهمة .. حيث لم تنته التحقيقات إلى قرار .

وحين وصلت إلى **سجن مصر** كنت فى حالة صحية سيئة ، وكان وجهى وجسمى مايزالان متورمين .. إضافة إلى حالة الوهن العام .

سجن مصر بين السجون هو العميد والرئيس غير المنازع .. زاره أغلب **الشيوعين والوفديين والإخوان** .. **ومصر الفتاة وكثير من المستقلين** .. فضلا عن زعماء فى التاريخ المصرى مثل **محمد فريد وكثيرين حين ثورة ١٩١٩** ، **وعباس العقاد** .. وغيرهم . وكان أيضا موطناً لسجناء قضايا الإرهاب والتجسس .. بالإضافه إلى سجن الأجانب الذى ظل إلى ما بعد **جلاء والقوات الأجنبية عن القاهرة** مركزا من المراكز الأساسية لسجناء الرأى والقضايا السياسية.

٢ - أزمة مارس النفس الديموقراطى الأخير

حين وطئت أقدامى **سجن مصر** .. أحسست بأننى قد أفرج عنى ، وذلك لسببين السبب الأول هو أنى لم أكن أتصور أنى ساخرج حيا من **السجن الحربى** ، فأسلوب التعذيب معى كان أسلوب قتل . وتصفية على البارد كما يقول خبراء الإجرام والسبب الثانى أن **سجن مصر** فى النهاية هو سجن مدنى ، له قواعد ولوائح ، وهو فى قلب القاهرة ، وبه أعداد كبيرة من السياسيين يمكن التنفس بينهم .

وكانت المدة القصيرة (ثلاثة أيام) التى قضيتها فى سجن مصر .. هذه المده كانت كافية لإعطاء الاحساس بأننى أعود إلى بيتى .

استقبلنى الرفاق بنوع من الاستغراب والتوتر ، وكان السؤال ماذا حدث يتردد على ألسنتهم .. دون أن أستطيع إجابة .. فاقترح بعضهم أن يتركونى أستريح .. وصحبنى **محمد متولى عوض** .. وهمس فى أذنى .. لا تتكلم كثيرا أمام أى مخلوق .. للسجن حساباته .. ولا حظت أنهم ينظرون إلى وجهى ويتأملون كثيرا فى هيئتى .. وأحضر واحد منهم مرآه نظرت فيها واستغربت حالتى منذ زمن طويل لم أنظر فى مرآة ، ولم أرحتى وجهى فى زجاج نافذه .

كان التورم فى وجهى أحسه بيدى .. ولكنى لا أستطيع أن أراه .. ولكن الرأس الحليق . وتورم الوجه .. وانتفاخ العينين . كل هذا أعطانى صورة تجعل الآخرين يسألون ماذا جرى .

وقبل أن أتحدث .. بدأت همسات تتردد .. وتعلو شيئا .. أين كان ؟ لابد أنهم عذبوه .. ماذا قال ؟ .. لماذا جاء إلى هنا أولا ؟ ثم لماذا أخذوه ؟ .. ثم لماذا أعادوه ؟

والأحداث كما حدثت يمكن أن تكون سببا فى هذه التساؤلات .. فالفترة **من ١٤ يناير** .. حيث قبض على **بالاسكندرية** . ثم رحلت **للقاهرة** .. ثم أعدت إلى **حربى القاهرة** – ثم إلى **حربى الاسكندرية** ؟ .. ثم الإعادة إلى القاهرة .. كل هذا يحتاج إلى شئ آخر . لا أستطيع أنا إعطاءه لا فى الحكايات ، ولافى تخيل الأسباب . هذا الشئ يجيب عنه الذين اعتقلونى ونقلونى من مكان لآخر .. وليس عندى إلا أن أحكى ما حدث لى .. وعلى الآخرين أن يجدوا فى الحكاية ما يريدون.

طالب الرفيق **وديع وهيب** بتكوين لجنة تحقيق .. وبدأ يثير الشكوك حول عدم معقولية هذه الدورة من الذهاب والإياب ، فضلا عن سؤاله : ماذا كان موقفى ؟ أنقذنى الأستاذ **عبد الستار الطويلة** .. فقد تحدث للناس عن ما حدث فى **الحربى بالاسكندرية** ؟ .. وتحدث عن موقفى بما يكفى لإغلاق باب التساؤلات ولكن **عبد الستار الطويلة** .. ليس عضوا فى الحزب .. ويجب .. وسيتحسن .. ونحن نرى .. ومن أجل إلخ مما لا ينتهى

ولكن دينا لا أستطيع سداده ظل فى عنقى للأستاذ **عبد الستار الطويلة**. وعلى كل حال فقد أعطت عودتى حيوية للمناقشة فى القضية المثارة ، كانت **أزمة مارس** قد بدأت بالفعل .. إجتماعات .. واجتماعات مضادة .. ولكن جرحا عميقا فى نفسى من سيل التساؤلات الذى واجهنى .. وماذا لو أن الأستاذ عبد الستار الطويلة لم يكن موجودا ..

وذات ليلة .. وقفت على شراعة " **باب الزنزانة** "، وتحدثت عن رحلة العذاب **بالحربى** فى **الاسكندرية** .. وعن الحمامة التى زارتنى ووقفت على حديد النافذة وأنشدت قصيدة : غنى حمامة لا تحزنك بلوانا . غدا سنشدو ليوم النصر ألحانا وأنقذتنى القصيدة من **القيل والقال** حيث أصبح

الأمر متعلقا برؤية إنسانية لعذاب فوق الطاقة .. لم يكن له نظير من قبل .. وبذلك انحصر تفكيرنا فيما يحدث فى الشارع .. والاجتماعات .. والاجتماعات الأخرى .. والمظاهرات وبدأت التساؤلات .. هل هى هبه جماهيرية ، أم أنها تحركات فى إطار السلطة تهدف إلى تصفيات فيما بين القيادة ؟

كانت **هبة مارس** قد اتسعت وامتد نطاقها إلى أبعد من مجرد خلافات داخلية وإن كانت عن هذه الخلافات تركز همها – كل جانب لأسبابه – على إخماد التوجه الجماهيرى الباحث عن الديمقراطية .. **فعبد الناصر** أخذ من البداية موقف العداء من حركة الجماهير واعتبرها تبغى تصفية السلطة .. وإعادة الجيش إلى ثكناته وإقامة حكم مدنى .. **ومحمد نجيب** أراد استغلال الجماهير للحصول على نصيب أوضح فى السلطة .. بدلا من وجوده الهامشى الذى أوشك على النهاية .. حيث يعتبر الجانب الآخر أن وجوده قد استنفد أغراضه وأنه أصبح غير ذى موضوع .

وكان موقف **خالد محيى الدين** مؤيدا للجماهير فى نوع من الحذر حتى يبقى الحبال بينه وبين **عبد الناصر** .. وليس ذهابه إلى **ثكنات مصطفى باشا** الذى أدين له بعودتى إلى سجن مصر إلا نوعا من الحيطة .. حيث يكون هناك بين جيش يحتمى به .. ويثبت أن **الحركة الجماهيرية** بعيدة عنه بعده عنها .

كانت **حركة مارس** من توابع الزلزال الذى هز المجتمع قبل **حريق القاهرة** ، وقد أثبتت هذه الحركة العداء الأصيل للديموقراطية ، ورفض المشاركة الجماهيرية للسطلة بأى وسيلة أو بأى قدر .

وأصبحت حواس الشم وقرون الاستشعار موجهة إلى هذا النوع من التحرك تجهضه قبل اكتماله .. وتراه .. أو ترى خياله فى أبسط الأمور .

حتى أغنية يامصطفى يا مصطفى أنا بحبك يا مصطفى يتم حظرها لأنها تشير إلى النحاس باشا الذى كان اسمه مصطفى ، وأى نوع من **الكتابة الأدبية أو القصصية** يشتم منه المعارضة للنظام يتم قمعه ووأده .. واشتد عود الرقابة بكافة أنواعها .. الرقابة على الأفلام .. وعلى الصحافة ، وعلى المطبوعات ، وعلى الإجتماعات والندوات والجلسات الخاصة .. وتم تكوين جهاز لتحليل النكته والكشف عن مصادرها .

وهكذا تأكد ما قاله النحاس باشا حين أخبر بأن الجيش ينوى إبعاد الملك أو اغتياله .. فرفض المشاركة مع الجيش فى هذا الأمر .. لأن الجيش إذا دخل السياسة لن يخرج منها .. وهو فعلا لم يخرج .

وخلال هذه المناقشات جاء الفنان وليم اسحق ومصطفى طيبه من سجن طره .. وفى أقدامهم الحديد يسيرون به فى العنبر .. وينامون به إذا ناموا وأقمنا حفلا لتكريمهما قلت فيه .

لا .. لن يحطمنى الحديد — أنا لا أخاف من القيود
هاتوا حديدكم وصبوه — فذا لحن النشيد
غلوا يدى فهل غلطتم — ما افكر أو أريد
ستزيد آمالى وتصفوا — كلما ألمى يزيد

(٣) ادعاء صديق

منذ وصولى الى سجن مصر وأنا مشغول بأمر أبى وأسرتى .. وكان يشغلنى أنهم لو جاءوا وأنا فى حال صحية سيئة فسوف تركبهم الهموم .. لذلك أجلت إخطارهم بموقعى الجديد حتى تتحسن أحوالى .. وحينما أرسلت لهم جاءنى أبى وأمى .. زارونى من وراء الاسلاك بعد أن أجهدتهم محاولة الحصول على تصريح .. فلست تحت التحقيق ، ولهؤلاء نوع من الزيارة .. ولست من المحكوم عليهم ولهؤلاء نوع آخر من التصاريح .. ولست معتقلا .. فقد جئت من الاسكندرية الى سجن مصر بخطاب إيداع نظرا للظروف وقتها .... واستطاعا الحصول على تصريح .

لم اسمع من أمى كلمة واحدة .. كانت الدموع تخنقها .. أما أبى فقد سأل عن أحوالى .. وطمأنته .. وسألنى عما احتاجه فشكرته .. وسألنى سؤالا غريباً :

هل أخذت من صديقك (م . ع) أموالاً .. قلت له لا .. قال إن عمك يطالبنى بتسوية الأمور مع صديقك الذى يدعى أنك أخذت أمواله وهو يريدها .

كان هذا الصديق من أصغر **أعضاء النادى** .. وكانت ظروفة العائلية فى غاية السوء بعد موت ابيه وأمه فجاة .. وتركاه على رأس أخوته بلا معين فى الحياة وكافح حتى تعلم ورعى أخوته حتى وقفوا على أقدامهم .. ولكنى لم آخذ منه مالا .. حتى يطالبنى به .. وقلت لأبى دع هذا الأمر لى .. وانتهت الزيارة ..

(٤) الدهماء أعمدة الحكم

لست من الذين يؤمنون للمتعلمين بموقع ممتاز على بقية الشعب ، فربما كان بين المتعلمين من هو أقل شأنا وأحقر نفساً من أمى شريف .. **ولكنى أقصد بالدهماء** هؤلاء الذين يبيعون ولاءهم .. ويؤجرون جهدهم دون نظر لاثر مايفعلون على شعبهم ووطنهم .. وسواقط القيد ، غير معروفى الأصل فى الحركات السياسية أمرهم معروف مشهور ، والسياسة عندهم بورصه بيع وشراء للمبادى والآراء .. ولكن أن يعتمد النظام على مظاهرة " **صاوصاو** " اختصار "**الصاوى أحمد الصاوى**" على ما

أظن ذلك الذى قاد مظاهرة عارمة يطوف بها على نقابة المحامين فيهتف يسقط المحامون الجهله ، ويطوف بها مراكز النخبة الاجتماعية فيهتف بسقوط السنهورى ، ويحشد الدهماء تحت شعار أو شعارات معناها " تسقط الحرية " .. ذلك شئ مذهل ، وبه تأكدت أننا هنا فى السجن ليس لأن آراءنا مرفوضة ، وليس لأننا أخطر على الحكم من الآخرين . بل لأن لنا رأيا .. والثورة لا تتسع لغير رأى القائد ؟!! كان سجن مصر يموج بأنواع مختلفة من البشر بينهم الشاب والشيخ ، والرجل والمرأة ، والعامل والفلاح والطالب ، والاستاذ الجامعى ، وفيهم الوفدى ومصر الفتاة والمستقلون ، وفيهم من لايعرف لماذا جاء .. حتى الحرس الحديدى الذى كان يعمل مع الملك ولحسابه كان يمثله " مصطفى كمال صدقى " الذى كان متزوجا من تحيه كاريوكا .. والتى كانت هى الأخرى فى سجن النساء .

هؤلاء جميعاً بمختلف ألوانهم أذهلتهم مظاهرة "صاوصاو "

ولكن أغلب الايراد .. أى الوارد إلى السجن من ضحايا النظام كان من بين مناضلى الصراع ضد الفاشية والحرب .. وكان من بين هؤلاء نوع جديد غير الأنواع السابقة وهم التلاميذ صغار السن .. الذين دخلوا السجن كأنهم يقومون بلعبة ولايعرفون أنها لعبه خطرة حتى على من هم أكبر منهم سنا وتجربة .

وبدأ النظام يأكل أنصاره مما أثر على خريطة نوعيات الرأى السياسى .. أصبح أعضاء " حدتو " " الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى " يتوافدون .. والذين أحنوا الرءوس حتى تمر العاصفة لم يتمكنوا من رفع رءوسهم إلا فى السجن .. والإخوان المسلمون بدأوا بعد أزمة مارس كما يسمونها تأتى بشائرهم الى عنبر " ب " .. لقد انفك رباطهم بالضباط الأحرار بعد أن أزروا محمد نجيب .. والساحة عند القيادة لاتتسع إلا لرأى القائد .

كنا نستقبل الوافدين بمشاعر مختلطة .. الفرحة بهم لأنهم الدليل على أستمرار النضال فى الخارج .. والحزن لأنهم أصبحوا فى السجن ، وشيئا فشيئا بدأت الصورة كل يوم تأخذ وضوحاً وألواناً جديدة ، فالطلبة اصبحوا من كل الجامعات ، وبين كل الكليات وجاء الفلاحون .. وطلبة المدارس الثانوية والمتوسطة من كل الاقاليم .. وبدأت أعداد من العائلة الواحدة .. عائلة شعراوى أربعة ، وعائلة كيرولس أربعة ، وأثنان من عائلة أبو طالب ، ومن النوبة ، ووفد الطلبة من مدارس ملوى ، وأصبحت أعداد المسيحيين بين المناضلين بارزه وواضحة ، ومجموعات من عائلات ، ففضلا عن عائلة كيرولس يوجد ثروت الياس وأخوه ، وصبحى وهبه وأخوه وغيرهم وغيرهم .وبهذا التنوع دانت لنا أسباب العزة والفخار، واصبحنا وجه مصر الثورى والحضارى ، ومارسنا فى

حياة السجن اسلوبا يعبر عن بشرى بالمستقبل **لافرق بين عامل وأستاذ جامعي ، ولا توجد أدنى حساسية أو شبهة حساسية بين مسلم ومسيحي وأبناء الصعيد والنوبة مع أبناء القاهرة والاسكندرية** . الكل سواسية كأسنان المشط .. من تأتيه الامكانيات والزيارات من أهله لايملك ولايتمتع بأي ميزه أكثر من هؤلاء الذين انقطعت صلاتهم بأسرهم .. وبالرغم من هذه المساواة في كل شئ فقد كان القادرون يتنافسون على زيادة الكميات والامكانيات .. وتنويعها حسب الاحتياجات .

وأصبح السجن بهؤلاء المناضلين وثيقة على سمو الفكر التقدمي وإنسانيته ، ودليلا لا يدحض على وحدة المصريين وأصالتهم ، وعلى حيوية الحزب ونموه .

(٥) الانقلاب على الاخوان

منذ فبراير وهبة مارس تسارعت أحداث وجرت أمور ، فبعد ابعاد محمد نجيب ، وهزيمة **هبة مارس** الداعية للديمقراطية أزدادت في السلطة حمى الاستئثار والانفراد وبدأت الفجوة مع الإخوان تتسع يوماً بعد يوماً ، واتسع نطاق تبريرات القمع والضرب بيد من حديد على كل من يعارض ، أو يشتم من ناحيته روح المعارضة ، وأصبحت الصحافة والاعلام مجرد " **كورس** " للسلطة .. وفي ذات الوقت بدأت المفاوضات حتى شملت أغلب المصريين ، واعتبرت الديموقراطية هي أخطر أعداء النظام .

حين أيد الإخوان **الضباط الأحرار** كانوا كشأنهم في السابق ساعين الى السلطة .. كان **عبدالناصر** عندهم مثلة مثل **اسماعيل صدقي والنقراشي والملك .. والألمان والانجليز** مجرد سبيل الى الحكم .. **أيدوا ٢٣ يوليو** وهم يظنون أنهم يحركونها .. ويتقدمون عن طريقها خطوة خطوة الى الحكم .. وكشأنهم دائما يراهنون على **الجواد الخاسر** وبجوادهم **محمد نجيب** سعوا للانفراد بالسلطة .. وبدأت الفجوة بينهم وبين **عبد الناصر** تتسع .

إنه في فترات التوتر والقلق الاجتماعي والسياسي يجب أن ننظر في أحوال الفكر وإذا ما كان يسير في قنواته الموازية لقنوات النزاع في المجتمع .. يكون علينا بعد كل ما يستجد أن نسأل أنفسنا كيف نفكر .. وكيف نعبر عن فكرنا .

نحن إذا أمام تناقص في السلطة إذا مالا حظنا دور الاخوان الآن وفي الماضي اسلوبهم هو تأييد حذر وتقية .. أو مرحليا تسللا وتعمية على الجماهير وهم لا يعترفون بتعدد الرؤى والمناهج .. ذلك فكر ديموقراطي لاصلة لهم به .. أنهم كما كانوا دائما أداة خلل اجتماعي لاتكامل .

وحين اتسع نطاق **المعارضة** للمعاهده بلغتنا فى السجن أنباء الجبهة التى سعى إليها الحزب مع الأخوان ، ونبأ مظاهرة الجامعة التي سارت من الجيزة قاصدة **مقر رئاسة الجمهورية فى عابدين** .. ورغم أن **الجيش والبوليس** اعترضا المظاهرة بين **كوبرى الجلاء وكوبرى قصر النيل** وتعاملا مع الطلبة بوحشية إلا أن المظاهرة سارت الى عابدين وامتلأ الميدان بالغاضبين وعلى رأسهم **عبدالقادر عودة وكيل جماعة الاخوان** ، والممسك بكل خيوطها التنظيمية والفكرية قبل الهضيبى نفسه .. الذى كان قد أختير مرشدا لحل مشكلة تتعلق بوحدة الجماعة فاختير كواجهة وكحل وسط ..بينما كان **عبدالقادر عودة** هو الشخصية المركزية الأولى .

وكانت هذه المظاهرة سبيلا لاستعراض القوة من جانب **الإخوان** ، حاول **عبد الناصر** أن يخرج اليها فى **ميدان عابدين** ليمتص آثارها .. إلا أنه وهو فى شرفة عابدين رأى جمعا هادرا غاضبا لم يستطيع أن يوجه إليه كلمه حتى أشار لهم عودة فسكتوا ولم ينس **عبد الناصر** لعودة ذلك.

* * *   * * *   * * *

* * *   * * *

* * *

*

الفصل الثامن

(١) شهود على المواجهة الدامية

ربما كانت مظاهرة عابدين هذه هى العمل الجدى البارز للجبهة **بين الاخوان والشوعيين** ، رأى فيها **عبد الناصر** لعبا بالنار من جانب الإخوان .. ورأى فيها الإخوان إظهاراً للعضلات واستعراضا للقوة .. وكانت النتيجة المرجوة من هذه المظاهرة مختلفة باختلاف أطرافها .. الإخوان الذين لم يتخلوا منذا نشأتهم عن السعى للسلطة كانوا يعتبرونها خطوة – على الأقل – فى سبيل كبح غلواء **عبد الناصر** أزاعم بعد مواجهة مارس وأزمة الديمقراطية **والشيوعيون (الحزب الشيوعى المصرى)** كان يريد توسيع المواجهة مع **عبد الناصر** واسقاط المعاهدة على الاقل أو إسقاط عبد الناصر إن أمكن .

وابتدأت عمليات القبض والاعتقال يتسع مداها مما اعتبره الاخوان رسالة اليهم بشأن **مظاهرة عابدين** .. أنه ماض فى طريقة دونهم ورغما عنهم ... وكان حادث المنشية .

تعجل الأخوان إنهاء المواجهة بطريقتهم الخاصة .. **القنابل .. والسيارات المفخخة ، والديناميت والاغتيال والنسف** .. كما يشهد بذلك تاريخهم ، ولكن **عبد الناصر** نجا من **حادث المنشية** ، ونادى الجماهير المحتشدة فى ميدانها اثبتوا فى أماكنكم .. أنا الذى علمتكم العزة والكرامة . وقبل أن يتفرق الحشد كانت حشود الاخوان تساق إلى السجون .

قال الشيوعيون إنها تمثيلية .. وأن **عبد الناصر** افتعل مشهد إطلاق النار لينهى المواجهة لحسابة ، ويتخذ من الحادث ذريعة للانفراد بالسلطة دون الإخوان ولكن الإخوان تسابقوا إلى الاعتراف بالحادث ، وقالوا إنه من أعمال الجهاز السرى .. والذين اعترفوا قالوا إن اعتراضهم كان تحت الضغط والتعذيب ولكن الدلائل كانت تتضح شيئا فشيئاً .. وتشير إلى أن الأخوان تعجلوا نهاية **عبد الناصر** .. فعجلوا له نهايتهم .

وسارع كثيرون منهم لاخلاء ذمتهم وتبرئة ساحتهم .. وقدموا قوائم بما يعرفون من أسماء ، وما يكنون من اسرار ، مستخدمين نفس وسائل واسلوب البنا من نوع : " **ليسوا إخوانا وليسوا مسلمين** " حين أراد تجنب آثار **عمليات الاخوان الارهابية** .. واستخدم **عبد الناصر** من بين الذين تنصلوا من الاخوان من شاء واستبعد من شاء .

وازدحمت السجون بالآلاف منهم .. الحربى .. والقلعة وغيرهما .. حتى إذا ضاقت السجون بما

رحبت تم إخلاء عنبر " جـ " فى سجن مصر من الشوعيين وارسلهم الى **القناطر** أو **أبو زعبل** ، وكذلك تم إخلاء عنبر " ب " من المسجونين العاديين .. وتوافدت الى العنبرين حشود الاخوان .

قبل ذلك بقليل كانت أعداد من الذين يتم التحقيق معهم فى **السجن الحربى** من الاخوان يأتون الى **سجن مصر** . . ويوضعون مؤقتاً فى **عنبر** " ب " وإذ كنت فى مستشفى السجن أتى اليها عدد من الاخوان عذبو بطريقة النفخ .. وأدى أسلوب التعذيب هذا إلى تمزق فى احشائهم وانتفاخ فى البطن ، وسواد يغطى مسام الجسم ويأتى من تحت الجلد .. واخبرت الرفاق بما رأيت .

وقررنا .. **الدكتور شكرى عاذر والدكتور ثروت إلياس** ، وأنا أن نصـور هذه الجرائم البشعة باعتبارها عملا ضد الانسانية لايجب أن يمر دون تسجيل .. وفعلا تم إحضار كاميرا ، وقمنا بالتصوير ، وأخرجنا الأفلام الى الخارج ولكن للأسف الشديد ضاعت هذه الوثيقة .

وبسبب خطاب إلحاقى **بسجن مصر** الذى جئت به من الحربى **بالاسكندرية** لم يمكن تصنيفى مع المعتقلين فأذهب الى **أبو زعبل** ، ولا مع المتدمين فى قضايا سواء حكم عليهم أو هم تحت التحقيق فأذهب الى **سجن القناطر** .

وبقى معى أثنان لاسبابهما الخاصة الأول **الفنان وليم اسحق** الذى جاء من سجن طرة للعلاج ولم يستكمل علاجه ، والثانى **الاستاذ أحمد فؤاد التهامى** الذى كان هو الآخر مريضا تحت العلاج .

وضعونا نحن الثلاثة فى زنزانة واحدة فى عنبر واحدة فى **عنبر** " **جـ** " ، وحشدوا فى بقية الزنازين آلاف الإخوان .

وبنفس سرعة الاعتقال والتعذيب والتحقيق تمت المحاكمات ، وبنفس السرعة أيضا صدرت الاحكام . الكثيرون حكم عليهم بمدد متفاوته . ثم يأتى المحكوم عليهم **بالاشغال الشاقة** .. ثم كان الذين حكم عليهم الاعدام وهم الذين وضعوا فى **سجن الاستئناف بباب الخلق** .

وذات يوم .. وذات ليله .. والناس نيام .. وليم كان يحدثنى .. إنه يحب السهر حتى فى السجن .. واحمد التهامى بين اليقظة والنوم .. فتح باب العنبر .. وسمعنا اصواتا ثقيلة .. أحذية جنود **البوليس الحربى** .. واحد .. أثنين .. هب .. هب وتردد الصدى فى ارجاء العنبر .. صف العساكر الداخلين لايريد أن تنتهى .

يضعون أمام كل زنزانه جنديا بيده مدفع رشاش .. وصلوا آخر زنزانه فى **الدور الثالث** . الصمت يسود الموقع .. بينما يجرى العمل بسرعة فى تثبيت مكبرات الصوت .. ومد اسلاكها .. انتهوا

من وضع مكبرات الصوت فى كل زوايا السجن .. كان الظن انهم سيقومون ينصب محكمة ميدان .. أو إطلاق النار عشوائيا على الزنازين ومن فيها .

ولكن عملية التجارب فى مكبرات الصوت غيرت قليلا من توجساتنا .. وتساءلنا ماذا سيذيعون علينا .. أخيراً جاء صوت أجش غليظ يطلب من جميع المسجونين الاستماع الى البيان الذى سيذيعه .

حكمت المحكمة العسكرية بالاعدام على . **عبدالقادر عودة ، يوسف طلعت ، ابراهيم الطيب ، هنداوى دوير ، محمد فرغلى ، محمود عبداللطيف .**

وظل يقول : **عبد القادرعودة** كان وزنه قبل الاعدام كذا وبعده " **كذا** " وظل نبضه لمده "**كذا**" ونقل من سجن الاستئناف إلى سجن مصر ليتسلمه أهله .. وهكذا بالنسبة للآخرين النبض والوزن الخ .

كانت توجساتنا حين البوليس الحربى أقل بكثير مما يجرى .. همجية .. وبربرية فوق الاحتمال وأبعد من كل الظنون وأسوأ الاحتمالات .

انتهى البيان الشنيع وانسحب الجنود بمدافعهم الرشاشة .. الأحذية تضرب الأرض فيتردد صداها .. واحد .. اثنين وخرجوا .. ثم أغلق باب العنبر .

هذا النسق من دروس العزة والكرامة مع النفخ والتعذيب ، والقيد خلف خلاف ، ومالا نعلم تعجز الشياطين عنه .. يثير القرف التقزز . أى صنف هؤلاء من البشر ؟

عـزاؤنـا للاخـوان

اغلق الباب .. لحظات صمت رهيب .. بدأ العنبر يهتز ويرتجف بنشيج وشهقات ودموع جماعية ، وآهات مكتومة .. لكنها تهز الاركان . ونحن الثلاثة فى زانزانتنا مذهولين .. كل منا تدور فى رأسه دوامات .. وفجأة **قال وليم سحق** : هل سنظل نتفرج .. يجب أن نفعل شيئا .. **قال فؤاد التهامى** وماذا يمكننا أن نفعل ؟ .. قال وليم نتحدث إليهم .. نواسيهم .. نسكت بكاءهم هذا .. قلت هذا ما يجب ولكنى أريد التصويت على هذه المهمة ، ورفع وليم وفؤاد يديهما .. وكان على تنفيذ القرار .

من شراعة الباب ناديت .. " **أيها الإخوان** " .. " **أيها الأخوان** " .. بدأ الصمت يتسلل إلى الأحزان المرهقة .. وأخيراً ساد الصمت .. واسيتهم .. عزينهم .. طلبت منهم أن يصبروا حدثتهم عن التماسك .. حذرتهم من الانهيار .. الانهيار هو مايقصدونه بهذه الأعمال الوحشية .. ذهب الذين ماتوا .. ويريدونكم أحياء كالأموات .. تلك أدواتهم لتدميركم معنويا وإنسانياً .

وبينما أنا أتكلم .. فتح باب العنبر والجنود يهرولون الى الداخل و بأيديهم والمدافع .. من خلفهم ضباط بأيديهم مسدسات مشهرة .

وسار أحد الضباط .. وخلفه جندى بالمدفع بفتح الزنازين واحده بعد واحدة ويسأل :

من الذى كان يخطب ؟ .. وحين وصل إلينا .. فتح الباب .. وأطل الضابط يسبقه مسدسة وكان الى جوار الجندى الذى يفتح الأبواب **الصول محمد عبدالغنى** من قوة السجن لا البوليس الحربى .. سارع باغلاق الباب وهو يقول للضابط هؤلاء ليسوا من الإخوان .. أنهم شيوعيون .. وهكذا عادوا .. وأغلق باب العنبر .. وساد صمت .

قال **وليم اسحق** .. المصيبة أن **الإخوان** كان يمكن أن يدلوهم علينا .. وساد صمت .

(٢) أعظم المتكلمين

فى اليوم التالى جاء إلينا من سجن الاستئناف **الأستاذ** عبد الرحمن الخميسى .. ولم يجدوا له مكاناً غير زنزانتنا .. حدثناه عن ما شاهدنا وسمعنا .. وقلنا .. وتحدث **الخميسى** .. كان **من أعظم المتحدثين** .. وأكثرهم قدرة على امتلاك الألباب .

قال بصوته العريض .. وأسلوبه المعبر .. وهو يهز رأسه ويفحصنا بعينيه !

كل الذين حكم عليهم بالإعدام شاهدتهم من شراعة الزنزانة فى سجن الاستئناف . شاهدتهم واحدا واحدا وهم يؤخذون كل من زنزانته إلى حيث المشنقة .. وأخذ يصفهم كيف ساروا .. وماذا قالوا .. وطريقة سيرهم .. وأسلوب سير العساكر بهم .. من الصعب على أى إنسان غير عبد الرحمن الخميسى أن يلاحظ كل ذلك وأن يحكيه : أول من أخذوه كان **عبد القادر عوده** سار بينهم شامخاً ، منتصب القامة ثابت الخطى رافضاً أن يمسك بذراعه جندى يسنده إذ يسير .. وظل طول الطريق يهتف :

ولست أبالى حين أقتل مؤمناً على أى جنب كان فى الله مصرعى ..

وظل يردد هذا البيت حتى وصل إلى غرفة الإعدام فصاح : اللهم اجعل دمى لعنة عليهم . وظل يردد الدعاء حتى النهاية .

بعده جاء **يوسف طلعت** .. سار صامتاً يمسك بذراعيه جنديان .. ولم ينطق بكلمة . وكذلك **إبراهيم الطيب ، وهنداوى دوير .. أما الشيخ فرغلى** فلم يكن يستطيع السير ، فكانوا يضعون أيديهم تحت ابطه ويجرونه جرا .. وحتى فقد كان لا يكاد يبصر أمامه .

كان **الأستاذ عبد الرحمن الخميسى** معجباً بما قمنا به نحو الإخوان ، وقال إن هذا هو الواجب الذى يحتمه الإيمان بالإنسان وبالحرية ، وبالدفاع عن المظلومين أيا كان موقفهم الاجتماعى .

وصباح اليوم التالى رحل إلى أبى زعبل .

كان عدم ترحيلى إلى **أبو زعبل أو القناطر تجربة قاسية** .. أقسى ما فيها أنها تذكرنى بالحربى فى الاسكندرية ، فقد تعودت أن يكون سجن مصر منتدى للمناقشة والحوار وتبادل الآراء . كنا نسميه **الديمقراطية الشعبية** ، وكان أهم شئ فيه بالنسبة لى أننى يمكن أن أرى أبى ، وأخشى أن يدور دورته المعهوده ، ويسأل عنى فى كل مكان يسمع أننا انتقلنا إليه .. ليتنى أستطيع إدخال الاطمئنان إلى قلبه ..

(٣) فى زنزانة مع الوفديين

بعد عمليات الترحيل بقيت أتلقى الأحداث .. كان **التهامى ووليم** قد ذهبا إلى **طره وأبو زعبل** وكان بعض المعتقلين من **الوفديين** قد جمعوا فى زنزانة ووضعونى معهم .. فى الدور الأرضى قريباً من باب العنبر ، وكان هذا من المزعجات بالنسبة لى .. خاصة إذا فتح الباب ليلاً .. وقد جاء من سجن القلعة **الأستاذ داود عزيز ، وعبد العزيز عوض ، وطوسون كيرولس والدكتور روف نظمى** .. كان ذلك فى الخامس من ديسمبر بعد شهر ونصف قضوها فى القلعة ذاقوا هناك أشد أنواع العذاب .. دخلوا إلى العنبر منهكين يجرون أقدامهم ، بملابس ممزقة ، وأجسام متورمه ، وكان معهم ، الصول محمد عبد الغنى ، أعطاهم فرصة للذهاب لدورة المياه ، وناديته من الشراعة أرجوه أن يفتح لى لأراهم .. إنهم أصدقائى وأعطانى الرجل الفرصة وحذرنى أن يرانى أحد من **زبانية همت** .

الصول محمد عبد الغنى من رائحة الديمقراطية الشعبية .. أيامها كان يأتى بابنه معه لأعطيه دروساً فى العربى وأذاكر معه التاريخ أحيانا .. ولست أنسى له موقفه يوم تعذيب الإخوان حين سارع بإغلاق الباب علينا قبل أى مناقشة وحين ذهبت مع الآتين من القلعة إلى دورة المياة رأيت آثار التعذيب على أجسامهم وفي عيونهم ، كان **ظهر رؤف نظمى ممزقاً** كأنه تم تشريحه بسكين .. .. وحين سألتهم عن ما أستطيع أن أقدمه لهم طلب داود عزيز سيجارة أخذتها من أحد المعتقلين معى وأعطيتها لداود .. قلت له إن **همت** يفرض على السجن إرهاباً فظيعاً . إنه يحاول معرفة كل صغيرة وكبيرة .

حين فتحت لنا زنزانتنا فى الصباح لنذهب إلى دورة المياه أسرعت إلى زنزانه قريبة اعتقدت أن

الذين جاءوا من القلعة وضعوا فيها .. ولكنى رأيتهم كل واحد فى زنزانة وقد وضعت عليهم حراسة خاصة .. أمسك بى حارسهم وصمم على أن يذهب بى إلى همت .. وعلى باب العنبر قابلنا الصول محمد عبد الغنى .. ذعر لما يحدث وطلب من السجان أن يتركنى فرفض .. فأقسم عليه بالطلاق أن يتركنى .. فأعادنى إلى العنبر .

(٤) أخيراً إلى أبو زعبل

فى آخر ديسمبر .. ها أنذا موعود بالرحلة فى عز البرد .. نحو أبو زعبل كان طريقى ، والكاهل تثقله ذكرى الترحيل .. كم ذا رحلنا .. وينوء القلب بثقل الأحداث .. أيام " **الخلف خلاف** " وأيام الإعدام .. وبكاء الآلاف يهز الجدران .. ورفاقا كالبلسم .. كالسوسن ، كندى الورد الطاهر . كالأنسام .. كالسيف يقولون الحق .. وكالميزان .. متى يتاح لن أن أرى وليم .. والآخرين جميعاً ؟

فى صحراء أبو زعبل يقبع أوردى الليمان .. عنابر أربعة العنبر مثل التابوت .. تصطف عنابر هذا **الأوردى** كتوابيت القتلى فى الحرب .

فى عنبر واحد **أبناء حدتو** .. هم جاءوا للعالم قبل الحزب .. فى الثانى نحن أما الثالث فيضم .. من أحنوا الرأس أمام العاصفة وآخرين .. الديمقراطية الشعبية ، ونحو الحزب .. والوحدة .. والعنبر الرابع أخلاط ممن لا انتماء لهم .. سميناهم طنجة ، المدينة المفتوحة .. لا يسأل زائرها عن جنسيته .

أيام سجن مصر الأخيرة ملأت قلبى حزناً .. أحمل فى قلبى أنات الجدران ، وصدى الأحزان .. ورنين نشيج الإخوان .. والآتين من القلعة ..

ودخلت العنبر .. هذا هو **سعد زهران** .. الطريق من الباب ممتد حتى النهاية وعلى الجانبين مصطبة ممتدة واحدة أمام الأخرى .. سعد يجلس مسنداً ظهره للحائط .. وهذا **غنيم مصطفى** ابن عنابر السكك الحديدية وابن جزيرة بدران .. **ودانيال عبد الله .. وأسعد نديم .. ومحمد لبيب .. وسعيد القلعاوى .. ونجيب سدراك .. كثيرون كثيرون** .. ورأيت فتى صغيراً .. ضئيل الحجم .. قال لى سعد هذا محب حكيم قيصر أصغر أبناء المعتقل .. من أسيوط ..

على الطلاق انفع عربجى

كانت العنابر تفتح فى الصباح فينطلق المعتقلون فى الساحة الفسيحة .. ويصبح الناس فيها دوائر إلى جوار دوائر .. ذلك سوق الأفكار والذكريات .. ومجال لقاءات أبناء الإقليم الواحد .. هذا جمع من أبناء المنصورة .. وهنا أبناء الاسكندرية **زكريا البسيونى ابن كرموز يقف مع شحاته عبد**

الحليم من حدتو .. كلاهما فى فريق " الفولى بول " ويوسف كمال قريب يوسف صديق بطل الجمباز والعقله يقف مع أبناء بنى سويف وفى نهاية اليوم يعود الجميع إلى عنابرهم .. يغنون ويتسامرون .

نوافذ العنبر منخفضة من يسير فى الخارج يرى منها نزلاء العنبر صفاً صفاً مرصوصين خصوصاً فى النصف الأخير من الليل .

كان اللواء البشلاوى مدير الليمان يتعمد أن يمر فى وقت متأخر من الليل .. يرى ويسمع ، ويتفرج من نوافذ العنابر على القاطنين المرصوصين .. وفى ليلة رأى بعض المرح فى عنبر " ٣ " نادى عليهم : ناموا يا وزراء المستقبل ياأولاد الـ ..

أطل على العدل .. زعيم نقابى وقال له .. وأنت ماذا تصلح ؟ .. عربجى ؟ فرد اللواء : أنا ما أنفعش عربجى يا على يا عدل .. طيب .. على الطلاق أنفع ..

لم تكتف إدارة المعتقل بهذه المساحة من الحرية .. بل إنها كانت تحضر شرائط سينمائية لعرضها على المعتقلين .. لكل عنبر يوم .. أظهرت السينما أشياء كانت خافية .. حب البعض للأفلام .. والبعض يراها وينساها .. وآخرون يعلقون نقداً وشرحاً ومقارنة .. وهناك من يضيق صدره بها .. ويبحث عن مكان هادئ يختلى فيه بنفسه .. ليرى شريط ذكرياته .

كان زعيم المشاهدة بلا منازع الأستاذ عبد الستار الطويلة .. رأيته فى الاسكندرية بالحربى . وفى سجن مصر .. ومن قبل شاهدته على غلاف مجلة المصور .. وقد أطلق لحيته .. وتحت الصورة عبارة غريبة " راسبوتين الحركة الشيوعية ".

كنت أحمل له فى قلبى امتناناً خاصاً .. فهو الذى رآنى فى الحربى .. ورد عنى تساؤلات مؤلمة .. ولكن صورة المصور وما كتب تحتها لم يغادر رأسى .

كان يحضر الفيلم الواحد أكثر من مرة .. يستأذن أهل العنابر الأخرى ليستضيفوه لمشاهدة نفس الفيلم الذى شاهده فى عنبره .. حين جاء إلينا للمشاهدة . استأذن فقلت له تفضل يا أستاذ عبد السلام .. صاح غاضباً : اسمى عبد الستار .. فأعتذر له وأقول : تفضل .. وفى كل مرة يحضر إلينا تتكرر هذه المقدمة لمشاهدته عندنا .

(٥) عروسة همت

جاء همت .. لا يأتى معه الخير .. الناس يتناقلون النبأ فى دهشة وانتظار ضجة فى عنبر واحد .. ماذا يحدث ؟ هجوم وعساكر .. يبدو أن هناك تكديره . الخبر اليقين عرفناه حين جاءوا إلينا ..

عنبر(٢) فتح الباب .. أعداد من الجنود بالشوم يهجمون على كل شئ .. الناس .. وما معهم من ملابس وغيرها .. العساكر يضربون الناس والأشياء .. ويجمعون ما يقابلهم ويلقونه أرضا .. العنبر أصبح خرابة ملأى بمخلفات المعركة . حين انتهوا من تخريب العنبر أخذوا عينة عشوائية من المعتقلين إلى **همت** .

همت يجلس إلى جوار العروسة .. والعروسة جهاز خشبى يصلب عليه الناس .. ويجلدون حتى يقول همت غيره فيأتون بآخر .

كل ملابس المعتقلين أخذت منهم ووضعت كوما هائلاً إلى جوار العروسة .. أعطوا كل معتقل ملابس سجن .

بعض الذين يجلدون يؤخذون إلى زنازين التأديب .

قبل حضور **همت** كانت الحرية التى عاشها المعتقلون من أسباب التفاؤل والأمل فى إفراج قريب .. تغذيها وجهات النظرالموالية للدولة .. وقاطنى طنجة " **عنبر ٤** " .

ولكن **همت** جاء .. كما لو كان يريد أن يجهض آمالهم ويقضى على موجة التفاؤل .. وقد أصبح زوار الأسلاك المطلة على الإدارة قليلون .. كانوا من قبل يتزايد عددهم وكنا نسميهم **منظمة السلك** .. إذ كانوا يقفون فى انتظار قوائم الإفراج .. ويراقبون ما يحدث فى الإدارة ، ويحللونه طبقاً لآمالهم .

همت ثقيل الوطأة كريه الأنفاس .. يترك شعوراً يختلف باختلاف وجهة النظر .. فهو عند أناس يتصرف من دون أوامر .. ومن خلف ظهر المسئولين .. وعند آخرين هو يد السلطة الباطشة المعادية للشعب ، وعند منظمة السلك عدو الآمال والأحلام .. ولكنه عند الجميع وحش فاقد الحس .. والأخلاق والضمير .

بعد أيام أو أسابيع جاءت أنباء **صفقة الأسلحة التشيكية** بعد **مؤتمر باندونج** فانتعشت الآمال من جديد .. ونمت وازدهرت منظمة السلك .

* * *   * * *   * * *

* * *   * * *

* * *

*

الفصل التاسع

(١) وداعا لتحليل الفاشية

جاءنا المهندس نعيم محفوظ أحد قادة الطلبة فى جامعة القاهرة حتى تخرج من **كلية الهندسة** .. كان فى القناطر .. حيث أكبر عدد من قيادة الحزب فى السجون . وحين وصل .. اختلى بسعد زهران .. وتحدثا طويلا .. كنا نعرف أنه لابد أن يسأله عن الحال فى **القناطر** ، وعن الأحوال خارج السجون .. حيث أن القناطر أكثر السجون صلة بالخارج .. حيث يذهبون إلى المحاكمات .. وتأتيهم الزيارات .. ويقرأون الصحف .. فهم الأقرب إلى الشارع ، وإلى القيادة فى الخارج .

· أخبره المهندس نعيم عن الضربة الأخيرة ، فداحتها من حيث نوعية المقبوض عليهم ومراكزهم القيادية ، وكذلك من حيث العدد .

علمت من سعد زهران بعد لقائه بنعيم أن محمد شريف مقبوض عليه فى القناطر . وكانت صدمة بالغة التأثير على نفسياً .. فقد قال لى نعيم بعد ذلك إن محمد شريف كان قد عين معيداً بكلية الاداب .. ولكنه شارك فى حركة أساتذة الجامعة فى حركة مارس .. وكتب مقالا فى احدى المجلات الطلابية عن مجانية التعليم ووجوب تطويرها . وأنه كان مع الذين طردوا من الجامعة لآرائهم .. وأنه عين فى مدرسة شبرا الثانوية .. وقبض عليه وهو الآن فى القناطر .

ونظرا لعلاقتى بمحمد شريف .. وخوفى الدائم عليه فقد كانت حالتى النفسية سيئة لأخبار حبسه . وكانت تأتينى فى النوم أحلام أرى فيها أعدادا كبيرة من الناس يسيرون كأنهم فى جناره وقد فتحت رؤوسهم من أعلى .. ورشقت فيها أقلام كثيرة . ويظل الموكب يسير حتى أستيقظ مفزوعاً .

المهم فى مأزق سعد زهران أن نعيم محفوظ جاء له برسالة من الحزب يخبره بأن خط الحزب الخاص بالفاشية والحرب قد تغير .. وأن الحكومة الآن فى نظرنا **هى حكومة وطنية** ..

ولقد كان معتقل أبو زعبل من أكثر مواقع السجون ارتباطا بشعار الفاشية والحرب . حيث كنا فى عنبر مستقل . وكانت المحاضرات والندوات الليلية تنتهى بفاصل من الهتافات بسقوط الفاشية والحرب .. ربما حدث مثل ذلك فى سجون أخرى ، ولكن أبو زعبل كان مجالاً للمظاهرات والهتافات أكثر من أى موقع آخر .

وكان التماسك الفكرى .. ووحدة الرأى مما يتميز به عنبر " ٢ " .. وبعد **صفقة الاسلحة ومؤتمر باندونج** كانت المناقشات على قدم وساق بين كل التنظيمات .. ونظرا لعزلتنا عن الحزب وعن

ومؤتمر باندونج كانت المناقشات على قدم وساق بين كل التنظيمات .. ونظرا لعزلتنا عن الحزب وعن الخارج وعن بقية السجون فقد كان التمسك برأى الحزب واجباً يومياً .. نعبر عنه وندعو له .. وندافع عن آخر كلمة جاءتنا .

ويبدو أن هذا الحال قد أصبح يمثل مشكلة ومأزقا .. **أولاً** : كيف سنخبر أعضاء الحزب .. ثانياً كيف سنقنعهم بعد أن ترسخ فى أذهانهم وحفر فى وجدانهم شعار تسقط عصابة الفاشية والحرب ، وثالثاً كيف سنواجه " **الحركة الديمقراطية** " التى تبنت شعار وطنية الحكومة من البداية .. وكيف سنواجه هجومها الفكرى على الأعضاء .. بادعاءات أنهم أصدق فكراً ، وأعمق وعياً ورؤية للواقع ؟.

خصوصاً وأنه حينما أذيعت أنباء **صفقة الأسلحة** .. وكثرت التعليقات عليها فى الإذاعة كان أنصار وطنية الحكم يطلقون نكاتهم علينا بأن سعد زهران يأمر بإغلاق الإذاعة حتى لا نسمع الأنباء .

والحقيقة أن هذا المأزق نفسه واجهه الحزب فى الخارج .. فحتى عندما عقد مؤتمر باندونج وزع الحزب منشوراً بعنوان " **فاشى مصر المفلس يبحث عن المجد فى باندونج** " ولم يمض سوى قليل بعد المؤتمر حتى عقدت صفقة الأسلحة وتغير رأى الحزب . لكنهم فى الخارج لا يوجدون فى عنبر " ٢ " ولا يواجهون **عنبر** " ١ " أثناء فتح الأبواب نهاراً .

وكان سعد بين أمرين أحلاهما مر .. الأول أن يظل محافظا على آخر ما يصله من رأى الحزب .. وأن يفسر الأحداث على ضوئه .. ويعطى ملامح التغيير شيئاً فشيئاً . والثانى أن يخطر الرفاق بفحوى **رسالة القناطر** .. وأن يفرض الالتزام إلى أن يحدث الاقتناع .. وعلى أية حال فقد كان التغيير جوهرياً .. كان انقلابا من النقيض إلى النقيض ..كان رؤية استراتيجية أخرى تنبع من الجذور .

لم يكن ذلك مأزق **سعد زهران** فحسب ، بل كان مأزق الحزب كله بدأت أعراضه منذ الرد على " **من هنا نبدأ** " مروراً " **بالرد على عامر** " ثم تحليل " **الفاشية والحرب** " وصولاً إلى التحليل الأخير عن وطنية " **ثورة ٢٣ يوليو** " .

وخلال هذا المأزق وصل المعتقل عدد من المفكرين والصحفيين والأدباء .. كانوا فى زيارة **للصين الشعبية** وبينما هم فى طريق العودة ولدى وصولهم إلى مصر قبض عليهم حين لامسوا أرض الوطن .. **واقتيدوا إلى أوردى ليمان أبى زعبل** .

من بين هؤلاء كان **محمود عبد المنعم مراد الكاتب بجريدة المصرى قبل ٢٣ يوليو** ، وشقيق محمد عبد المنعم مراد المدعى العسكرى فى **قضية خميس والبقرى** وممثل الاتهام ..

وكذلك كان معهم الأستاذ عادل أمين المحامي والمدافع عن الحريات .. وأظن كان معهم الأستاذ سعد التائه وآخرين لا أنكرهم .

كان هذا الوفد يدعى إلى كل عنبر ليتحدث عن مشاهداته فى رحلة الخارج ورؤيته للوضع السياسى فى الداخل .. وبينما هم فى عنبر " ١ " الخاص بالحركة الديموقراطية " حدتو " سألهم ابراهيم عبد الحليم : " ازى ماو " " وازى صحته " .. وضج أعضاء الوفد بالضحك .. وألف عبد الرحمن الخميسى زجلا .

ابـرا محمـد أبـو حنتيته	يعنى ابراهيم عبـد الحليم
فـافـا وما فا وشـله زيطه	يـعنـى جمـال غـالى
شلة وافـش جنـب الحيطـة	
تـشـن تـون تـزن تـون	الـخ

وحين جاء الوفد إلى عنبرنا ركزنا الحديث معهم عن الديمقراطية .. كانت قضية حساسة معهم .. فهم من أصحاب الرأى .. ورحلتهم إلى الصين أو غيرها لا تستدعى اعتقالهم .. هذا الاعتقال الذى كان عدواناً على الحرية وعلى الديمقراطية، مما يعطى لرؤية الحزب مخرجا من مأزقه ومأزق سعد زهران .

(٢) إنـى أشـم ريـح الـشـارع

جاء إلينا اللواء " سيد والى " والضابط " ناصف " وأحضروا معهما الجرائد والمجلات التى تتحدث عن التغييرات والتوجهات السياسية الجديدة بعد صفقة الأسلحة .

وفى هذه الأيام أذيعت نصوص الدستور الجديد الذى أقر إلغاء الأحزاب وتكوين الاتحاد القومى مما يعتبر بناء وترسيخاً لمؤسسات الدولة فى معارضة الديمقراطية .

هذا الكم المكدس من الأحداث المتلاحقة أعدنا قراءته وترتيبه وتفسيره .

أولاً : تكديرة همت كانت عملية " قرص الآذان وعملية تأديب للذكرى .

ثانياً : نقل المهندس نعيم محفوظ من القناطر حيث الصلة بالحزب وحيث القيادة بالسجن لنقل التغيير فى فكر الحزب .. وفك الحصار .. وتقريب مسافات الرؤية .

ثالثاً : فتح الراديو وإحضار الجرائد لمتابعة التغيير فى السلطة .

رابعاً : زيارة اللواء سيد والى الذى كانت له صلات بكثير من المعتقلين ، وبالذات سعد زهران .. وذلك لتحسس ردود الفعل بالذات فى " عنبر ٢ " .

خامساً : اعتقال وفد المفكرين والصحفيين لإثبات موقف الدولة المستمر من الديمقراطية .

سادساً : إذاعة مواد الدستور ليعلم القاصى والدانى طبيعة الحكم وأسلوبه .

وأعتقد أن تأميم العمل السياسى منذ ٢٣ يوليو قد سبق كل أنواع التأميم سواء بالنسبة لقانون الإصلاح الزراعى ، أو التأميمات التى جاءت بعد ذلك .. وحصر العمل السياسى فى مجال واحد محاط بأسوار الدولة وفى نطاق رؤيتها السياسية أحادية الجانب .. ابتداء من هيئة التحرير وانتهاء بالاتحاد القومى والدستور الجديد . المهم أن منظمة السلك عادت إلى الازدهار .. وأصبحت أولى المنظمات فى السجن .. وهم الآن يصطفون فى انتظار قوائم الإفراج .

واستدعى الأستاذ عبد الرحمن الخميسى لمقابلة أنور السادات .. وكذلك سعد زغلول فؤاد زميل السادات أيام القنابل والتفجيرات .. وحامل الأسلحة من الشاطئ الشمالى إلى الفدائيين مع عبد المحسن الأعصر . ثم الإفراج عن أسعد نديم .. ثم جاءت الكشوف تترى . وانحيا منظمة السلك .

وفى يوم ١٨ يونيو سنة ١٩٥٥ خرجت آخر دفعة .. وكنت منها وأغلقت أبواب أوردى ليمان أبى زعبل .. إلى لقاء قريب .. وأوان لن يغيب .

***   ***   ***

***   ***

***

*

(٣) الافـراج مـع الـتـشـريـد

(١) فـى بـحـر مـتـلاطـم أبـحـث عـن شـاطـئ .

حين أغلقت **أبواب الأوردى** من ورائنا سألت نفسى لماذا أفرج عنا ؟ مع أن كلمة إفراج نفسها تعنى مهانة للإنسان .. الافراج عمل تطوعى ممن يملك **الاعتقال والحبس والتعذيب** .. ولذلك فإن السؤال يسبقه سؤال آخر . لماذا اعتقلنا ؟.. والحلم الكابوس الذى كان يعاودنى بعد اعتقال محمد شريف والذى كنت أرى فيه جموعا من الناس . فى صفوف مرصوصة أدمغتهم مفتوحة ، ومرشوق فيها أقلام ..

تلك هى صورة مجتمع الرأى .. يكون فيه الأمر والنهى .. الاعتقال والإفراج . والرأى لصاحب الأمر .

توجهت إلى قريتى . ملاذى الأخير أرجو أن أنظر إلى وجه أبى وأمى وجها لوجه دون أسلاك أو قضبان بيننا .. وبعد الاستقبال .. وفرحة العودة .. والتهانى بالسلامة ذهبت السكرة وجاءت الفكرة .. ما هو العمل الذى يمكن أن أعمله لأعيش .. ليس لدى أى دخل أو مورد .. وأبى الذى عانى كى أتعلم ، وقطع البلاد طولا وعرضا من ورائى ليرانى وأنا هارب .. ويطمئن على وأنا مسجون .. هذا الرجل يستحق أن أحمل عنه عبء إعالة نفسى ..

خلال مدة الهرب والاعتقال جرت فى النهر مياه ومياه .. فقد اتفق أبى وأعمامى على أن يستقل كل منهم بأسرته .. وتصادف بعد خروجى مباشرة أن حضرت معهم عملية القسمة وتوزيع الأملاك ، والمحاسبة على الماضى .. ورأيت عناصر الحساب وفيها ما أنفقته فى التعليم يوماً بيوم .. وشهراً بشهر وكذلك الأمر بالنسبة لأبناء أعمامى .. وكانت عملية التخالص هذه مؤلمة لى .. ودافعاً لأن أبحث عن شاطئ آمن ، أجد فيه قوتاً يخفف العبء عن أبى . ورأيت عمى يقود مظاهرة لحساب الشخص الذى ادعى على أنى أخذت منه مالا .. وحدثنى عنه أبى فى السجن .. وطالب أبى أن يدخل ذلك فى حسابات التخالص . ولكنى طلبت منه أن يترك لى تسوية الأمر مع هذا الإنسان .

واجتمعت به .. وقلت له ماذا تريد ؟ . وكان له وكلاء فى الاجتماع كما كان لى .. وأمسكنا ورقة وقلما لنحصى أمواله عندى .. فإذا به .. لا يتجاوز فى ادعاءاته **مبلغ عشرة جنيهات** . ورفضت المساومة .. وكتبت له بدينه على إيصالا وقع عليه وكلائى ووكلاؤه شهوداً . **وتركت القرية إلى القاهرة** أبحث عن عمل . وأنا أحصى أنواع المساندة التى قدمناها لهذا الدائن .

... قابلت صديقاً من دار العلوم هو المرحوم درويش محمد درويش عضو نقابة المعلمين وأحد المشرفين على المعاهد القومية والمدارس الخاصة .. قال لى : الحكومة لا تريدك مدرسا .. خشية الرأى الآخر على أبناء المجتمع .. ولكن يمكن أن تعمل معنا في إدارة شئون الطلبة بإدارة المعاهد القومية .. كخطوة أولى .. نضعك بعدها فى إحدى المدارس الخاصة .

وجاءت الخطوة الأخرى فى مدرسة أجنبية بالزمالك تديرها السيدة الفاضلة زينب البشرى ، بنت عم الأستاذ طارق البشرى وهى أيضاً بنت عم زوجة الصديق محمد شريف .. وساعد الأستاذ درويش فى إصدار القرار من إدارة المعاهد القومية .

(٤) البحث عن وطن

كان وضع المدارس الأجنبية تحت إدارة مصرية انجازا وطنياً ، وكان يفترض أن يتبع ذلك ، إصلاح للمناهج ، ودراسة التكوين الإنسانى لطلبة هذه المدارس ، إنهم أبناء فئة من المجتمع ، شهدت تغيرات اقتصادية وسياسية تمسهم ، وقد أصبح الآباء ، وقد جردوا من وضعهم الاجتماعى كطبقة حاكمة ، يعيشون فى عزلة عن شئون الوطن ، وتمتلئ قلوبهم بالعداء والكراهية للحياة الجديدة بما تحمل من قيم إنسانية وثقافية جاءت بديلاً لقيم بائدة .

كانت مدرستى الجديدة إحدى هذه المدارس ، كانت مملوكة لأجنبى يدعى موران ، أغلب العاملين بها من الأجانب ، ولغة البلاد فى وضع هامشى ، والمناهج عموماً لا رقابة عليها ، وبالتالى فقد كانت هذه المدارس مركزاً لخلق فئات معزولة عن الوطن وعن المواطنين ، تنظر إلى الشعب بوجه عام من موقع التعالى والازدراء .

وتلك على أى الأحوال كانت قيم الآباء ، وكانت أيضاً قيم الأجانب الذين أنشأوا هذه المدارس ، لخدمة طبقة بعينها ، ونشر قيم تناسب هذه الطبقة .

وكان بهذه المدرسة فرنسى يدعى " بروللى " .. كان أحد ثلاثة قفزوا من باخرة حربية فرنسية كانت تعبر القناة متجهة إلى الهند الصينية لمواصلة الحرب الاستعمارية القذرة هناك ، قفز إلى القناة ، ولجأ إلى مصر ، حيث كانت الحرب التى تخوضها فرنسا تسير فى طريق الهزيمة وكانت " ديان بيان فو " معركة " جياب " المنتصرة تخلع قلوب المرتزقة الفرنسيين الذاهبين إلى الحرب .. وهكذا تقفز إلى القناة ثلاثة منهم بروللى .. الذى أصبح مربياً ، وغدا اليد اليمنى لصاحب المدرسة .

فى بداية عملى واجهت نفورا مستفزا من أبناء الطبقة التى كانت حاكمة : حفيدة اسماعيل صدقى ، وبنات وأبناء زنانيرى وخياط ، ومراد ، والجيار ، ودرية شفيق وغيرهم ،

كانوا بما ورثوه عن الآباء ، وبما دعمته المدرسة ينظرون إلى مدرسى اللغة العربية نظرة مهينة .

من الصعب هنا الحديث عن وطن ، فتبعا لآبائهم هم غرباء يعيشون فى منفى معزول لا يمت للواقع بصلة ، وبالطبع فإن العناصر الأجنبية تنمى النفور والعزلة والكراهية .

ولكن الإرادة الجديدة اكتفت بوضع اليد ، وتسليم الأمور الإدارية لعناصر مصرية ، دون فهم لأدوارهم ، أو تحديد لضرورات التغيير .

من حسن حظى أننى عملت مع مديرة من أسرة ذات تقاليد وطنية وفكرية .

كان رفض الطالبات لى استفزازياً ، مهيناً ، وكان الرد على ذلك حاداً وقاطعاً ، بما يمثل استفزازاً مضاداً .. وتنتهى الأمور بعد أن تتصاعد إلى مديرة المدرسة التى تدعو إلى نوع من الحكمة يسهل مرور الأزمات وتجاوزها .

رفضت أولاً أن يكون التعليم مجرد تلقين ، فكنت أعمد إلى ربط المعلومات اللغوية والأدبية بالمجتمع ، وأشرح الفرق بين مجتمع وآخر ، وأن ما يعبر عن فترة من التاريخ لا يمكن أن يكون صورة أبدية مستمرة وباقية .

أنا نفسى كنت من المنبوذين الباحثين عن وطن ، أعانى من أعراض الاغتراب الذى يعانى منه الطلبة والطالبات .. أسبابهم مفهومة .. وأسبابى على النقيض .. ولكن هناك شيئاً مشتركاً . حاولت معهم أن نجد ما نحلم به للوطن ، فالمشاعر الإنسانية لا يستعصى عليها تطلع إلى مستقبل أرقى فكرياً ، وحضارياً ، يتجاوز السخائم ، وينأى عن الأحقاد .

ولذلك كانت دروس اللغة العربية نوعا من البحث الدائم عن الحقيقة ، واستخداماً لمعطيات فى نفسى ... دراسات المدرسة : ماذا تعنى شعارات الحرية والإخاء والمساواة فى الثورة الفرنسية ، .. بالطبع فنحن ضد الظلم فى الماضى .. وفى الحاضر ، وفى المستقبل .. ولكن الأمور يجب أن تقاس بموضوعية .. بالفعل هناك مشكلة .. كيف نتخطاها .. كيف نجنب الوطن تبعات أعمال الآخرين ، كيف تظل ولاءاتنا للوطن فى القلب وفى الروح .

ذكرت لهم مرة واقعة حصار عمال العنابر .. وقطع الماء عنهم والنور .. ثم إطلاق النار عليهم عشوائياً .. من الذى يستطيع تبرير ذلك إنسانياً .. وقلت إن حافظ إبراهيم الشاعر تحدث عن هذه الواقعة وقال مخاطباً المسئول عن المذبحة :

ودعا عليك الله فى محرابه   الشيخ والقسيس والحاخام

يارب أحي ضميره لينوقها فصصا وتنسف روحه الآلام

رئيس وزراء ووزير داخلية مذبحة العنابر كنت أتحدث إلى أبنائهم .

وبهذا حققت أولاً مستوى من الاحترام لمدرسي العربية ومستوى من الالتزام بالقضايا الإنسانية . و كان **الأستاذ " محمد عبد الغني حسن "** الشاعر الكبير مفتشا للغة العربية فى المدارس الأجنبية وحين كنت فى الفصل أتحدث للطالبات فوجئت به داخل الفصل .. فثرت عليه ، وطلبت منه الانصراف إذ لا يجوز اقتحام الفصل دون استئذان ، وفعلا خرج ، وعاد مستأذناً فدخل ، وكنت أتحدث فى أمور خارج المقرر كالعادة ، فاستمر الدرس فى سبيله المعتاد ، وظن **الأستاذ " عبد الغنى "** أن التلميذات سيواجهن ضياعاً دراسياً مؤكداً ، فأخذ يتأمل الواجبات . ومواضيع الإنشاء .. وحين رآها ظن أن آخرين قد كتبوها للطلبة ولكنه تاكد بعد ذلك أن هذه هي أعمالهم .

واشتكى للمديرة من شدة مواجهتي له ، فالتمست لى العذر .. يجب مع هذه النوعية من الطالبات أن تتأكد شخصية المدرس .. إنها حالة حرب يا **أستاذ عبد الغنى** .

كان عدد الطلبة والطالبات صغيراً ، ولكنهم نجحوا جميعاً فى **الثانوية العامة** حينما تقدموا لامتحانها .

مرتب الاستاذ ربع مرتب السائق

كان طلبة هذه المدرسة ينظرون الى حكام **ثورة يوليو** باعتبارهم سفله ورعاعا وأو باشا أما نظرتهم لى فكانت تظهر من استفزازتهم .

سألتنى إحدى التلميذات : ما هو مرتبك يا أستاذ فأجبتها بالصدق فقالت : إنه ربع مرتب سائق عندنا .. وضحكوا أيضاً .

سألت أخرى : يا أستاذ .. شل دود المش " **منه فيه** " .. وكانت بنت أحد أثرياء أسيوط .. قلت : اسألى اثرياء الصعيد .. نص لحمهم من دود المش .

كن يتنافس فى أسئلة الاستفزاز .. وينتظرن بشغف الإجابة .

أصبحت مسئولاً عن المطبعة :

قبل " **الافراج** " كانت معالم معركة مقبلة قد اكتملت فى رأس قيادة الحكم . كان البنك الدولى قد رفض تمويل السد العالى .. واختمرت مسألة تأميم القناة ، وبعد " **الافراج** " بأيام أعلن القرار فى **الاسكندرية** .. وتجمعت نذر معركة مقبلة مع الاستعمار ، وبالتالى فقد كان " **الافراج** " لتخفيف الضغط الداخلى فى مواجهة الضغط الخارجى .

وبعد الافراج عنى دون سبب مفهوم .. وبدون مناقشتى فى الأمر صدر قرار حزبى بأن أكون مسئولا عن المطبعة ، وبدون أن يكون لى رأى فيما أطبع .. وأن أقوم بتوزيع المطبوعات مع ما يتكلفة ذلك من نفقات كان على أن تحملها .

مقدمات وحدة التنظيمات الشيوعية :

كان تغيير خط الحزب من الفاشية والحرب الى الوطنية فى أعقاب **صفقة الاسلحة التشيكية ومؤتمر باندونج** تقريبا للفوارق بين التنظيمات . كما كان عدم اعتماد الديموقراطية فارقاً بين رأى التنظيم وأسلوب الحكم إرهاصا بالحل ، وقد مرت **المعركة الوطنية ضد الاستعمار** أثناء العدوان الثلاثى دون أن يبدو هناك أى فارق فى الرؤية ضد الاستعمار بين التنظيمات والحكومة وقد كانت السرعة التى حدث بها الغزو الاستعمارى والذى انتهى بالهزيمة بنفس السرعة عاملا مساعدا على عدم ظهور فوارق فكرية أو تنظيمية بين التنظيمات والدولة ، التى استثمرت انحسار الغزو وما اعتبرته انتصارا لها تستأثر به وتستخدمة سلاحا فى مواجهة التنظيمات مع ماسبق من مآثرها فى السجون .

وفى عام **١٩٥٧** بدأت الاستعدادات على قدم وساق فى كافة التنظيمات للوحدة . كانت هناك تنظيمات ثلاثة رئيسية : **الحزب والحركة الديموقراطية والديموقراطية الشعبية** وكانت حول التنظيمات الثلاثة مجموعات أو حلقات صغيرة اتخذت لنفسها أسماء مثل وحدة الشيوعيين . وطليعة الشيوعيين .. الخ .

ومن آليات الوحدة أن تكون النسبة فى تشكيل قيادات الوحدة حسب النسبة فى عدد الأعضاء ..

وقد بدأت الاستعدادات بسعى التنظيمات الثلاث الكبرى الحزب ، وحدتو ، وطليعة العمال إلى جذب المجموعات الصغيرة لضمها استعداداً لإجراءات الوحدة بين التنظيمات الكبيرة حتى يمكن زيادة الأعداد والحصول على أكبر عدد فى المراكز القيادية ، وقد استطاع الحزب المصرى أن يجتذب بقايا المنظمة الشيوعية المصرية " م . ش . م " التى كان قد توقف نشاطها بعد أن تركها الزعماء اليهود وسافروا إلى الخارج دون أى إعداد أو توجيه لمتابعة النشاط .. وقد تولى **الأستاذ محمد سيد أحمد** إخطار أعضاء التنظيم بعد سنوات من التوقف بأنه لا يوجد تنظيم أصلا . ودعاهم إلى الانضمام للحزب .

انتخابات مجلس الأمة : نموذج للعمل المفتقد .

بينما التنظيمات تبذل ما لديها من جهد وطاقة فى اتجاه الوحدة كانت الانتخابات لمجلس الأمة فرصة جماهيرية وسياسية وديموقراطية يجب أن تحظى باهتمام وجهد وطاقة أوفر .. تلك هى المناسبة الحقيقية لإبراز الوجه الديمقراطى للمعركة الانتخابية ، وهى أيضاً المناسبة لغرس فكرة الديموقراطية

بين الجماهير التى أحبطت آمالها فى **هبة (مارس ٥٤)** . وقد قدم الدكتور فائق فريد نموذجاً للعمل الذى كان ينبغى أن تكرس له التنظيمات الشيوعية ما وسعها من جهد .

فى ديسمبر ١٩٤٩ سافر إلى لندن ليتابع أنباء بلاده . انتخابات الوفد ، والمفاوضات والغاء المعاهدة ، وشارك فى تكوين اللجنة الوطنية للمصريين فى بريطانيا .

وجاء ٢٣ يوليو ٥٢ فأيدوا الثورة ولم يقبلوا الانضمام إلى هيئة التحرير وساندوا **هبة مارس ٥٤** وقرروا فى مؤتمر موسع عودة الجيش إلى ثكناته واعتماد الديموقراطية نظاما لحكم البلاد .

وانتقدوا **معاهدة جمال هيد** وربطها لمصر بأمن الشرق الأوسط الاستعمارى وحين عاد الدكتور فائق إلى مصر وجد علاقة الدولة بهيئة التدريس متوترة بعد أن عوقبوا على موقفهم فى مارس ٥٤ بفصل الكثيرين وحين حدث العدوان ساندوا الدولة وحاولوا إصلاح ذات البين بين هيئات التدريس والحكومة .

وبهذا التاريخ الوطنى والفكرى المتميز ، والبعيد عن اندفاعات وتخبطات التحاليل من فاشية إلى وطنية بلا قيد ولا شرط الخ بهذا التاريخ تقدم **الدكتور فائق لانتخابات ٥٧** ، وفى يده تاريخ ربع قرن من العلاقات الواسعة بأهالى دائرته على اختلافهم ومعه للترشيح ستة عشر من المواطنين ، فأدار معركة نموذجية سانده فيها كل التقدميين وأساتذة الجامعة حتى عميد كلية الهندسة وواجه خلال المعركة مخططات التعصب الدينى .. ورغم ضراوة المعركة التى استخدمت فيها أسلحة مشروعة وغير مشروعة إلا أنه نجح باكتساح . وفى مجلس الأمة حيث برزت كتلة يمنية فقد ساهم فى تشكيل اتجاه يسارى خاض معه معارك مثل معركة أو قضية نواب مديرية التحرير التى أرادت الكتلة اليمنية فصلهم تصفية لحسابات انتخابية حيث رشح **الدكتور القاضى نفسه ضد والد كمال الدين حسين** فى بنها ونجح وكذلك قضية البحث العلمى حين واجهوا كمال الدين حسين .. وهزموا وجهة نظره ، فاستقال .. وقضية مواصلات القاهرة ، وقضية المسجونين السياسيين ومعاملتهم فى السجون حيث رد **زكريا محيى الدين** بأنهم ليسوا سياسيين بل مسجونين اجتماعيين !!

وبعد مضى عدة أشهر حافلة بالمعارك انتهزت الدولة **مشروع الوحدة مع سوريا** وحلت المجلس ، وفصل الاتحاد القومى أغلب أعضاء اليسار من عضويته .. وحين أراد **الدكتور فائق** العودة للجامعة بعد حل المجلس ماطلت الدولة ، وإزاء مسانده أساتذة وعميد كلية الهندسة صدر قرار عودته للجامعة **فى** فبراير ١٩٥٩ .. ولكنه اعتقل بعد أسبوعين .

*** *** ***

الفصل العاشر

أزمة اليسار المستحكمة

فبعد خروجنا فى ١٨ / ٦ / ١٩٥٦ جاء العدوان الثلاثى ... ولا توجد فى التاريخ فرصه لليسار أغلى ولا أكثر مناسبة من مثل تلك الظروف لكى يمارس سياسة وتنظيماً يؤديان إلى وجود مستقر فى المجتمع ليسار يستحيل خلعه خصوصا أنه جاء فى أعقاب معركة داخلية فى صفوف اليمين آدت إلى ضرب الإخوان ... وإجهاض أملهم فى الاستيلاء على الحكم ... مما جعلهم يهتفون فى السجون تحية للغارات الاسرائلية الفرنسية الإنجليزية (لا عدوان إلا على الظالمين) .

وفيما يبدو فقد وجد القاده بعد باندونج وصفقة الأسلحة أنهم أصبحوا غير ذوى موضوع ، فجمال عبد الناصر يسبقهم فى إتخاذ قرارات تربكهم ، فإذا كانوا يوم ٢٣ يوليو قد اختلفوا حول توصيف استيلاء الجيش على السلطة فأصبحوا بين مؤيد ومعارض ومتوقف عن الحكم حتى تنجلى الغمة ... فإنهم بعد السجن ، والمعاناه ... وقد جاءت قرارات سارعوا جميعاً إلى تقارب فكرى وسياسى اساسه تحليل السلطة ... والإقرار بوطنيتها ، متجاهلين قضية الديموقراطية ... وجعلوا منها مجرد مضغه يلوكونها حين تقتضى الأحوال بينما هم فى حقيقة الأمر لا يعرفون كيف يمسكون بطرف القضية ، ولا كيف يثيرونها .

وحين يتحرك الشارع فر اتجاه الديموقراطية يجهضون الحركة بإدعاء أنها استفزاز للسلطة ، وأعتقد أن حل الحزب قد استقر فى أذهان القيادات عقب صفقة الأسلحة ...

وكانت قضية وحدة التنظيمات ، مأساة أخرى أو ملهاة ... فمما لاشك فيه ان الوحدة هذه لازمة وضرورية ، ولكن فى إطار تقدم مرسوم ، مبرمج للحركة ... ولكن التخبط السياسى والتنظيمى سادا أول أيام الوحدة ... فضلا عن أنها تمت بلا أسس تحقق بقاءها . ومنذ اللحظة الأولى لها كان التخطيط للانقسام ... وحتى فى الجزء الذى تبقى بعد انفصال "حدتو" وبقاء المصرى "طليعة العمال" معا . فقد تم الإعداد للإستيلاء على اللافتة ، وحرمان الآخرين من مجرد الانتماء إليها .

وبهذه التنظيمات ، وبقياداتها هذه واجهت التنظيمات مشاكل الوحدة السورية، وقضية القومية العربية ، بينما القواعد تشغلها قياداتها بقضايا تعطل الفكر والعمل وتثير المشاحنات الداخليه . فمثلا حينما انقسمت "حدتو" عقد " ١٤ " من قادة "طليعة العمال" إجتماعات ناقشوا فيه تسييس انقسام حدتو باعتبار ان هذا التسييس يؤدى إلى انقسام " الحزب القديم" وتستقل " الطليعة " بملكية اللائحة . والذين عارضوا هذا الاتجاه وأهمهم أبو سيف يوسف رأى أن إخراج الحزب ليس لمصلحة الطليعة .. يجب أن يبقى ليكون هو اليمين وتكون الطليعة هى اليسار .

بهذا المستوى كانت تناقش القضايا فى اطار السعى إلى السيطرة والتآمر للانقسام ، وبينما كانت القواعد الحزبية تتقارب كان فزع القيادات وإسراعها للانقسام يتضح .

وبالرغم من عجز القيادات وتخبطها فقد كانت القواعد تخوض معارك وتآمر القيادات بوقف هذه المعارك حتى لا تستفز السلطة .

وجاء ت انتخابات عام ١٩٥٧ وكانت عين الحكومة علر تحركات الشارع ... وأدركت الحكومة مما يجرى أن الوحدة لم تدع إلى وضع كل التنظيمات فى خيط واحد يمكن الإمساك بطرفيه فشنت حملة هيستريه على الشيوعيه والشيوعيين والتقى أنور السادات بمحمود أمين العالم وطلب منه حل الحزب إذ لا يكفى التأييد بلا قيد ولا شرط ... وكانت تلك إشارة أولى للقيادات بما تحمله الأيام القادمة .

ثم أرسل النظام إشارة كاملة شاملة فى خطاب عبد الناصر فى ٢٣ ديسمبر هدد فيها الشيوعين بالمصير البشع .

وجاءت الاشارة الثالثة فى مقال محمد حسنين هيكل الذى دعا فيه صراحة لاعتقال الشيوعين بعبارة "وضع الأقفال على الأفواه" .

ورغم أن الكثيرين فى القواعد فهموا هذه الإشارات ومعانيها إلا أن القيادات كانت تحتفل برأس السنة ، وتبتهج بمقدم العام الجديد ١٩٥٩ .. ولم يطلع الصبح عليهم إلا وهم جميعا فى السجون ... وعبر حلمى ياسين عن الموقف فقال : حتى بعد القبض عليهم كانت القيادة متفائله ، وقالت حدتو : إن الأمر لا يعدو سوء فهم .

كان يجب أن يدركوا أن حمايتهم لا تأتى من التأييد ، وإنما تأتى من وجود الرأى الآخر الذى هو ضمان التوزان ، وضمان الصحة للمجتمع ... وكان يجب أن يعرفوا أن ترك اليمين . منفردا بالأمر والنهى دون حاجز اجتماعى لا يجعله ثابتا عند درجة معينة على اليمين . إنه لا يتوقف ... وهناك دائما يمين على اليمين ... واليسار يعبر عن مصالح الجماهير يوقف هذا الاتجاه ... وبدون ذلك تكون

الديموقراطية من المستحيلات .

لسنا نبحث عن مجتمع يسارى ، أو حتى عن **مشاركة اليسار فى السلطة** .. تلك مرحلة ليست لنا أدواتها وإمكانياتها ... إن مهمتنا كانت وجود يسار فى المجتمع تعبيرا عن واقع لا يمكن تجاهله .

إن إخراج **اليسار** من دائرة الوجود الإجتماعى سواء بعجزه أو بفعل فاعل من خارجه يؤدى إلى تجاهل الفئات الدنيا من المجتمع ... ويخلق عدم استقرار متواصل يسير نحو كارثة حتى بالنسبة لليمين نفسه . وهذا هو ما أدى إلى إهدار كل إنجازات **يوليو** .

٢ - حيـن لا يغنـى الحـذر

منذ خطاب عبد الناصر فى عيد النصر وأنا أرتب شئونى .. نقلت سكنى ... وذهبت إلى المدرسة فى حذر شديد ، وأسرعت إلى تلميذه تخبرنى أن **عادل سيف النصر** قبض عليه ... وجادت أخرى لتخبرنى أن **محمد عباس سيد أحمد وإلهام سيف النصر** قبض عليهما ... إذن فعلاقاتى خارج المدرسة معلومة .. ولا مجال للعودة للمدرسة .. كان **إلهام سيف النصر** مسئول منطقة الجيزة المركزى .. أما مسئول المنطقة فكان **عبد الله كامل** .. ويوما بعد يوم علمت بالاتساع الهائل لضربه **رأس السنة** .

رغم تقطع وسائل الاتصال .. وأخيرا قابلت أحد الرفاق .. فأخبرنى أن كل شئ قد تغير .. لم يعد هناك حزب ، بل حلقات ضيقة منعزلة ، وأخبرنى أن **منطقة القاهرة والجيزة** قد ادمجناه تحت قيادة كلها "**من طليعة العمال**" ، وأنهم أخذوا منه موقفا على أساس أنه يمينى ... واتفقنا على أن نلتقى لنتدبر الأمر ولكنه لم يحضر فى الموعد ... وهكذا مرة أخرى أصبحت بلا عمل فى المدرسة والحزب .

كنا قبل رأس السنة فى منطقة الجيزة قد تقاربنا والتقينا إلى حد كبير فكريا وسياسيا مع مجموعة **الدكتور مختار السيد** ، وكانت تناقضات المنطقة ككل مع المسئول هى النشاز الوحيد فى العمل ، وكان هذا المسئول قبل الوحده فى أحد التنظيمات الصغيرة ... وكان ينتقل من "**النواه**" إلى " **النجم الأحمر**" معه آخر .. وفى عملية الوحدة هذه مثل غيرها كانت تسبقها وحدات مع المنظمات الصغيرة بمنطق النمو الذاتى .. انضم مسئول المنطقة مع الآخر إلى حدتو .. ثم إلى الوحدة الأخيرة ، وحين انقسمت حدتو نقل موقعه إلى " **الطليعة** " ، ليصبح رئيسا مسئولا **لمنطقة الجيزة**، ويصبح زميله عضوا فى اللجنة المركزية ، وحين علمت بدمج منطقة الجيزه **فى القاهرة** ... وبتشكيل هذه المنطقة الجديدة ، وبالموقف الذى أخذ من الأعضاء على أساس أصولهم التنظيمية السابقة تأكدت أنهم قرروا عدم الاتصال بى ... وعبثا حاولت أن أجد سبيلا للتفاهم مع أحدهم .. فنحن فى الشارع بلا عمل ، والباقون فى السجن ، وهذا الوضع لا يغنى فيه الحذر شيئا .. حيث يكون

الإنسان مشغولا بتأمين نفسه ، وبالبحث عن وسائل الحياة ، ... كنا نلتقط بعض الأفكار عن الحزب ومواقفه فنعلم أن الرأى قد تغير بعد الضربه وأنه حتى لو نجحنا فى الاتصال بالتنظيم فإننا لا نستطيع أن نعرف لماذا وعلى أى أساس غيرت المجموعة التى استولت على الحزب - والتى عزلت أعضاء لا تريد التعامل معهم - غيرت رأى الحزب وقد علمنا أن هناك بيان من الحزب بتاريخ ٩ يناير قد صدر فى هذا الاتجاه .

قابلت صدفة أحدا أعضاء المنطقة وطلبت منه اتصالا بالمسئول فأعطانى موعدا لم يحضر إليه ... وهكذا بقيت فى الشارع .. من مكان إلى آخر .. ثم ذهبت إلى المنصورة .. وقبض على بها ... ورحلت فوراً إلى سجن القلعة ، وبعد أيام رحلت إلى الفيوم .

٣- رهـــيــن المـحـبـســيـن :

كان أبو العلاء المعرى يسمى رهين المحبيسن ... أو هكذا كانوا يسمونه ، أما المحبس الأول فكان اختياريا .. إذ ضيق بإرادته على نفسه ، فحرم عليها أنواعا من الطعام والشراب مما يعتبره الآخرون هو الطعام ولا طعام غيره . وكان هذا التطبيق الاختيارى محبس أبو العلاء الأول فى الحياه .. وفى الشعر فقد ألزم نفسه ما لا يلزم فنيا .. وضيق بإختياره فى القافيه والأوزان ... فكان هذا مكملا فى الشعر المحبس الأول فى الحياة .

أما المحبس الثانى الاضطرارى المفروض عليه بغير إرادته ، فكان فقدانه البصر .. وقد تحدى فى إطار المحبس الإجبارى غيره من المبصرين فى كل المجالات العلمية والفلسفة ، والأدبية فى إطار تحدى المحبس الإجبارى نفسه وقال فى ذلك

وبصير الأقوام مثلى أعمى فهلموا فى ظلمة نتصادم .

وقد كنا نحن فى محبسين مثل أبى العلاء أحدهما جاء باختيارنا ثمنا للسير فى الحياة بحثا عن العدالة الإجتماعية والاشتراكية .. وبسبب هذا الاختيار ، اصطدمنا بالنظام وألقى بنا فى السجون ، فكان هذا محبسنا الأول الاختيارى .

أما المحبس الثانى فقد فرض علينا حين أصبح الخلاف فى الرأى بين صفوفنا مبررا لسيطرة تصل إلى حد القهر ، وحبس غير مبرر يفرضه البعض على رفاق المسيرة .

ولا يمكن فهم المحبس الثانى إلا من خلال وقائعه .. التى يجب أن تطرح تحت الضوء لتقرأ فى النور.

أولاً : حين فرضت علينا العزلة عن الحزب فى الشهور الثلاثة ، التالية لضربة رأس السنة ، وشكك فى ولائنا ... وفى أفكارنا على ما بينت من قبل .

ثانياً : حين ذهبت إلى الفيوم كنت فى الدفعة الثالثة من الذين ذهبوا هناك ووضعتنى إدارة

المعتقل فى عنبر "١" فوجدت هناك الدكتور عبدالرازق حسن ، والدكتور لويس عوض ، ومحمود السعدنى ، ولطف الله سليمان ويوسف حلمى ، ومحمد الخفيف ، و سعيد خيال ، ماجد عطيه ، ولطفى الخولى ، تعرفت فى العنبر ، على بعض زعضاء الحزب المصرى القديم .. فشكو لى من أن الحزب فى المعتقل قد جعل زميلا معينا مسئولا للعنبر .. وهو رغم إخلاصه إلا أن خبرته ، وصغر سنه ... تجعله غير قادر على التفاهم مع هذا الجمع من الأساتذة المثقفين.

وكانت بالعنبر حياة قوامها إمكانيات جماعة المثقفين هذه باعتبارهم أصحاب الدخول والصلات العائليه ، بل أنهم كانوا يعطون العنابر الأخرى من الإمكانيات ما لا يمكن تجاهله ... وكان لمعى يوسف هو المسئول عن الحياة العامة وتنظيم توزيع الإمكانيات .. وبهذا واصل هؤلاء الذين يزعمون أنهم فقط هم الحزب مواصلة حبس أخر غير حبس الحكومة علينا . إذ عزلونا عن التنظيم داخل الفيوم .

٤ - معتقل الفيوم :

ولكى نفهم معتقل الفيوم يجب أن نعرف صورته .

أولاً : عنابر مستطيله مرصوصه متوازيه لها نوافذ منخفضه ومفتوحه دائما بحيث يرى السائر فى الخارج كل شئ يحدث فى العنبر .

ثانياً : لكل معتقل رقم مكتوب على الحائط فوق فراشه وتكون الملاحظة من النوافذ بالأرقام ... وينادى فى الصباح على من تسجل أى مخالفه بالرقم .

ثالثاً : ممنوع تحرك أى معتقل من فراشه أو التحدث مع جاره .

رابعاً : لائحة الجزاءات (وهى لائحة غير مكتوبة فرضتها الادارة) .

١ - **المخالفة الجسيمة للتعليمات** : تؤدى إلى الحبس الانفرادى .

٢ - **الضرب نوعان** : أ - باللف حول الدائرة المزروعة أمام الإدارة والتى يلتف حولها عدد من العساكر يجرى المذنب حول الدائرة (يسمونها "الصينيه") ويتوالى الضرب عليه بالعصى من العساكر الملتفين حول الدائرة .

- **الضرب بالفلكه** : ذلك إذ يوضع القيد الحديدى فى الدين ويجلس المذنب القرفصاء محضتصنا الساقين .. وتوضه عصا غليظة تحت الركبة يحملها من الطرفين إلى أعلى جنديان فتصبح رأس المسجون إلى أسفل ، ورجلاه تتلقيان الضرب بالكرباج والضابط يعد واحد أثنين الخ حتي إذا اكتفى يقول "كفاية" فيفك وثاق المذنب ، ويؤمر بالجرى حول الصينيه ليضرب من العساكر الملتفين حولها ، حتى يأمر الضابط بالتوقف .

خامساً : التعذيب النفسي : وذلك بان يطلب الضابط من المعتقل أن يصرخ بأعلى صوته ... وأن يطلب العفو **ويقول "في عرضك يا بيه"** .

كان أكثر مندوبي العنابر حركة هو **"لمعي يوسف"** لأنه حين يحدث سوء تفاهم مع الإدارة يتصدى لمعي ...ويتقدم فورا إلى جواره **الدكتور فائق فريد** ، **ولطفي الفولي** ... وأحيانا **الدكتور محمد الخفيف** ... وبذلك تصبح المناقشة جماعية يقوم فيها مثقفوا عنبر "١" بالدور الأساسي مما يماثل حماية لمسئول العنبر .

ولكن هذا لا يعني أن المثقفين لم يكن يصيبهم شئ من التعذيب ، فقد ضرب الفنان **حسن فؤاد والدكتور عبد الرازق حسن ، والدكتور فائق فريد والدكتور لويس عوض ، والمهندس جلال حمودة والمهندس فوزي حبش** الخ .

الشاويش غطاس : وكان الشاويش غطاس علامة من علامات الفيوم لا يمكن نسيانها ... فهو خلف كل ضابط ... وأمام عسكرى من عساكر الدرجة الثانية ، يقوم بمهمة السباب والشتائم ، والضرب بنفسه أحيانا كما حدث مع **الدكتور لويس عوض** .. والشاويش غطاس هو الذى يوقظ عساكر الدرجه الثانيه من النوم صباحا ... إذا يطيح فيهم ضربا وركلا ، فيقومون مذعورين لكي يصبحوا في حالة تأهب لضرب المعتقلين .

الامتناع عن الطعام : كانت نوعية الطعام رديئه ومنحطه وقليلة أيضا . وحين يشتد الكرب من التعذيب يتخذ من رداءة الطعام وسيله لرفضه حتى يمكن استدعاء مسئول من **محافظة الفيوم** لمناقشة المعتقلين والوصول إلى حل بحيث لا يتم الاستمرار في الامتناع عن الطعام .. وبالمناسبة يتم أيضا الحديث في أحوال المعتقلين وأصناف التعذيب .

التزوير في اتجاهين : كان المسئول الحزبي يتحدث عن قرارات للحزب في عنبر واحد منها مثلا أن الحزب أخذ قراراً بمواجهة عمليات الضرب والتعذيب والرد عليها بالمثل ... وفضلا عن أن هذا القرار لم ينفذ إطلاقا ، فقد كان يبلغ لمن يراهم هو أعضاء الحزب ... أما الباقون فقد استمر عزلهم عن هذه القيادة العنترية الوهمية حماية لثورية سياسية موهومة والشجاعة في المواجهة معدومة . وكان هذا يعتبر تزويرا وافتئاتاً على الواقع .

أما الاتجاه الثاني فكان ترك المعذبين من غير الأعضاء التابعين للقيادة بلا رعاية أو متابعة لحالتهم بعد التعذيب .

حدث هذا حين أخذت ووضعت في الفلكه وضربت بالكرباج على قدمي حتى سالت منها الدماء ثم أمرت بالجري حول " **الصينيه** " ... وفي النهايه أعدت إلى العنبر فلم يسأل عني أحد من الحزب . وكان هذا تعذيب آخر .

وفى إحدى مرات الامتناع عن الطعام جاءت الإدارة إلى عنبر "١" ... حيث كان من المعتاد أن تناقش الإدارة قادة هذا العنبر من المثقفين فى شئون المعتقل كله ... بينما قيادة الحزب لا وجود لها فى الصورة ...وحين حضرت الإدارة إلى عنبر واحد وطلبوا من الدكتور فائق والخفيف ولطفى الخولى إصدار توجيهاتهم باستلام الطعام رفضوا .. فأخذوا الثلاثة وأوقفوهم أمام عساكر بالسلاح مستعدين لإطلاق النار ، وقال الحكمدار من المديرية للطفى الخولى لا داعى لأن تعرض نفسك لهذا الأمر مهددا بإطلاق النار إذا لم يتم استلام الطعام .. ورفض الثلاثة إطاعة الأوامر ... وتساءل لطفى الخولى عن سبب تحذيره له ، فقال له أنت تعرف ... إنك يمكن أن تخرج قريبا .. وقد جاءت إليك زيارة من قبل لم يسمح بمثلها لأحد غيرك ... إنها زيارة على أعلى المستويات . (وقد ترددوا فى العنبر أنه هيكل جاء إلى المعتقل وقابل لطفى الخولى كما قابل المسئولين) وهذا هو ما جعل للطفى الخولى حصانة خاصة داخل المعتقل وفى التعامل مع الإدارة .

وتبين فى النهاية أن مسألة ضرب النار كانت تمثيلية يقصد منها الوصول إلى قرار من الثلاثة باستلام الطعام .

وهكذا فقد كانت القيادة الحقيقية للمعتقل توجد فى عنبر واحد .. وليس من بين أعضاء هذه القيادة حتى ممثل فى العنبر ... وبالتالى فقد كانت القرارت العنترية من نوع ما يسميه الحزب الاضراب عن الطعام الذى لم يكن إلا امتناعا محدودا يؤدى إلى تخفيف التعذيب يوما أو يومين تعود بعدهما الأمور إلى ما كانت عليه وهكذا ... وتناقش الأمور دائما فى عنبر (١) مع أناس غير حزبيين وعلى الزعم من هذه الحماية للطفى الخولى إلا أنه أخذ مرة إلى الحبس الانفرادى كنوع من العزلة عن بقية المعتقلين حتى لا يتصدى مع بقية المثقفين لمواجهة الإدارة .

وقد كان الدكتور فائق يتصدى للمواجهة أيضاء سواء فى وجود لطفى أو فى فترة أستبعاده فى التأديب .. وقد تصدى الدكتور فائق فريد لحكمدار المحافظة حين اعتدائه على المناضل محمود عطا الله رئيس نقابة عمال كفر الدوار .

*** *** ***

*** ***

* * *

*

الفصل الحادى عشر

١ - الترحيل إلى الواحات ... الحجلة

الحجلة بكسرة تحت الحاء والجيم وتشديد اللام المفتوحة ... اسم غريب على السمع لا وجود له فى القاموس المدنى ربما كانت تسمية تركيه لسلسلة طويلة "جنزير" يبلغ طوله أكثر من عشرة أمتار ركبت فيها حلقات القيد الذى يوضع فى اليد على أبعاد متساويه ... قيد واحد ليد واحدة كل نصف متر تقريبا .

فى أول الجنزير توضع يد جندى ، ثم يربط كل معتقل فى قيد حتى نهاية الجنزير فيكبل جندى آخر .

كنا نحو الستين فى حجلتين ... قيدنا فى سجن الفيوم ... لاندرى أين نذهب ، الطابور الأول يمشى نحو سيارة نقل مغلقة ... الجندى يصعد أولا ثم المعتقلون حتى الجندى الآخر ... ثم السلسلة الأخرى فى عربة ... غلقت الأبواب ... نحن وقوف نهتز لا نعرف كيف سنجلس . مقعد خشبى طويل فى جانب السيارة .. ومقعد مقابل يربطهما مقعد خلف السائق ، عالجنا الموقف وجلسنا ... سيارة ... تلو الأخرى ... الطريق طويل من الفيوم إلى بنى سويف حيث نزلنا بنفس طريقة الصعود ... سرنا فى طابورين يحرسنا صفان من العسكر ... وأمام الصفين يسير الضابط ... وكذلك خلف الصفين فى ميدان المحطة جمع من أهل بنى سويف ... بعد خطوة يتزايد عددهم ... فيصيب الرعب الضابط، ينهون الناس عن القرب من الصفين ... صاح الضابط الكبير كان يجب أن نخطر الأمن هنا ليخلى الميدان ... الناس يتزايدوان عددا من حولنا فكر أحد منا أن يهتف ... لكن الصفعة أغلقت الفم ... ورأى الناس فصاحوا واهتاج الموقف ... وازداد توتر ضباط الرحلة ... ووصلنا إلى المحطة ... حرسوا أبوابها ... لا يدخل أحد من هذا الجمع ... اتجه الركب إلى رصيف القطار ... جاء ليتجه جنوبا .. وجهتنا نحو الواحات .. فتحت أبواب عربيتن .. مما يستخدم فى نقل البهائم .

وبنفس طريقة ركوب السيارات دخلنا العربة .. الضابط أشفق على الجنديين فحل وثائقها من الحجلة .

ليس مهما أن أذكر آلام الرحلة .. كل الآلام تجئ .. هذا النائم يؤلم .. يتألم ... يستقيظ .. هذا يتحرك .. يتوقف عن كل الحركات فيؤلم ... أسعدنا حظا من كان القيد الأول له يجلس فى حرية أما أهل الوسط فعن اليمين قيد وعن الشمال .

نسى القائد في **الفيوم** أن يعطينا شيئا نأكل .. أى طعام ... وتهالكنا حتى جاءت محطة الوصول ... تدعى " **المواصلة** " عندها يوجد طريق الواحات عند قرية قريبة من **نجع حمادى** .

أوقفنا الحراس استعدادا للنزول ... واحدا ... واحدا ... واحدا ... الأول كان **عبدالستار الطويلة** ، نزل إلى الرصيف .. الثانى كان **شعبان الحدق** .. نزل هو الآخر .. لكن القطار تحرك .. سائقه لم يكن يعلم أن النزول بالحجلة يأخذ وقتا طويلا .. وساد هرج ... من فى الخارج يجرى .. من فى الداخل يتشبث بالعربة ، والقطار يسرع شيئاً فشيئاً ... من فى الخارج يتعثر .. من فى الداخل يتشبث والعجلة تجر المتعثرين على أرض الرصيف .. **عبدالستار** يقع بين القطار والرصيف ، ويجر **شعبان** وراءه والضباط فى ذهول .. تلك إذا مذبحة ... مجزرة لا يدرون عواقبها .. ينادون السائق .. لايسمع .. السرعة تزداد .. من فى الداخل يتشبث .. أخرج أحد الضباط مسدسه أطلق نحو السائق طلقة ولحسن الحظ أطل على الركاب .. ورأى ما يذهل .. تلك مصيبة .. وتوقف .. كان **عبدالستار الطويلة** يحمله جنزير الحجلة وتشبث من بالداخل .. وكذلك **شعبان** ... **عبدالستار** وضع الأقدام على كتلة حديدية مركب فيها عمود العجل .. طبعا هو لا يعرف ماذا فعل .. **شعبان الضخم** يجثم على عبد الستار يحمله الجنزير المشدودين الداخل فى العربه .. وقف قطار الموت .. لو أن الجنزير التف على العجلة لسقطنا تحت قطار الموت .. أو قطعت الأيدى .. خرج **شعبان** من الجب ... صعد يصيح أولادى .. **أولادى .. عبد الستار وقع أولا وصعد أخيرا ... خرج ينادى الزملاء .. التراب الذى يثيره القطار حين يسير تراكم على وجهه .. ظهره ممزق من أعمدة الحديد المثبتة فى أرض المحطة لأسلاك التحويلة .. وملابسه خرق سوداء وممزقة يخرج عبدالستار .. مازال ينادى يصرخ "حد من الزملاء جراله حاجة" ؟** .. "حد مات" ؟ وشعبان مازال ينادى أبناءه .. شئ مثل الصرع أصاب الناس .

مزقت القيود أيدينا من الشد والجذب .. كنت التالى عند الباب .. أتشبث به أدعو من فى الداخل لمزيد من جهد فى الشد ... حتى لاتحصدنا العجلات . شبح الموت رأيناه ..

الضابط أخرج مفتاح القيد .. أطلقنا ... فجلسنا .. **عبدالستار بجوارى** ... ناديته ... هنأته بسلامة الوصول إلى الرصيف ..

جاء قطار الواحات .. وركبنا دون حجلة ... وتحدثنا .. كل أحاديث الركاب حول قطار الموت .. حدثنى **عبد الستار** عن رؤيته للموت يجئ .. يتخايل للعين .. ويلف مع العجلات .

أدرك **عبد الستار** أنى أدعوه باسمه فنتذكر أيام السينما فى **أبوزعبل** حين كنت أناديه عبدالسميع .. قلت له هل تصدقنى إذا قلت لك السبب قال نعم .. ذكرت له الصورة التى كانت على غلاف مجلة المصور وقد أختفى خلف ذقن أطلقها .. وتحتها "**راسبوتين الحركة الشيوعية**" .

كان قد نفض عن وجهه بعض تراب القطار .. فأصبحت له ملامح .. ابتسم وقال :

أما الصورة فكانت لى .. وأما الذقن فكانت نوعا من التنكر إذ كنت هاربا .. وذكر لى أنهم قالوا فى المصور إنه تزوج يهودية .. نعم وطلقتها .. وتزوجت مصرياً آخر ... أماما وصفونى به فتلك دعاية مسمومة .

قلت له .. أيا ما يكون الأمر .. لقد سامحتك إذ رأيتك تخرج من تحت العجلات مشغولاً بزملائك .. تريد الاطمئنان عليهم .

وأصبحنا صديقين .. قال لى سأحتفظ بهذه الملابس أذهب بها حين نخرج إلى روز اليوسف .. وأقضى بها أول يوم من أيام عودتى للعمل .. وقد فعل .

ظلت بيننا علاقة وطيدة تتخللها مشاكل وخلافات .. كنت إذا ناديته خلال المناقشة "يا أستاذ عبدالسلام" يعرف أن خلافاتنا أصبحت عميقة .

ويضحك كثيرا ... ويستمر فى الخلاف .

وإذ نحن نتحدث .. نتسلى .. ننس هموم الرحلة القاتلة وأشباح الموت ... كنا فى وسط الصحراء .. اطمأن الضباط والعساكر .. لا يستطيع أحد أن يهرب الآن ، ولن يحاسبهم أحد على عدم استعمال الحجلة .. وتلفتنا .. شاهدنا منظراً طبيعيا غريبا ... وادى البطيخ مئات ومئات من قطع الصخور كالكرة .. مثل البطيخة متناثرة على أرض رميلة مستوية .

تخرج من بينها أنواع من الخضرة فى أجزاء متفرقة .. وراقبنا الطيور والحيوانات وفى محطة الوصول حملتنا السيارات إلى سجن المحاريق معقتل الواحات الشهير .

٢- صوت صارخ فى البرية

إذا فهذا هو المستقر .. لاشئ من حولنا سوى الرمال .. ومن بعيد تبدو شجيرات هزيلة وبعض الغربان تحوم فى سماء خالية .. السجن بلا أسوار .. السور هو الصحراء .. الكل متعب من عناء الرحلة .. لكن مراسم الاستقبال تدعو لوقوف طويل .. شئ من التوجس فى انتظار المجهول الذى تتبدى ملامحه شيئا فشيئا . ذلك الآتى من بعيد فى زى المسجونين .. وليم أفرايم .. نسميه المدير .. أناقه ... وهدوء .. ودبلوماسية فى التعامل مع الإدارة .. لماح يعرف ما يرى ويذهب إليه .. حمل عنا عبء مراسم الاستقبال .. وليم جاء مع المسجونين القدامى من سجن جناح بعيداً عن هذا السجن .. كانوا هناك يعيشون فى عزله بعيدا عن أشباح المسئولين ... لكن "همت" ذهب إليهم .. ودمر كل ما أنجزه ..

ونقلهم من جناح إلى المحاريق ليكونوا فى استقبالنا .

لم يعد الموقع غريبا عنا .. واختلطت هواجس الرحلة من الفيوم بفرحة اللقاء فى الواحات ... حكينا قصة الرحلة ... بعدها ما أجمل أن تجد ما تقول .. والأجمل أن تجد من يسمع .

حمل الرفاق عنا ما تحمل .. وأراحونا فى الحجرات .. وتولوا إطعام الجائع .. وأكواب الشاى .. أهل الواحات يسمون السجن بأسماء أخرى .. القصر .. نحن الآن من السكان . . فى هذا القصر .. وكانا جئنا من قبر .. وجه رفاقى يشبه نور الفجر .. يشبه ظللاً ونسيما بعد هجير قائظ .. يشبه آمال الصدر المكنونة .. أصبحنا نتثاءب .. نتمطى .. وخرجنا ننظر آفاق الصحراء ... **محمود السعدنى** .. بيده عصا طويله .. يتوكأ عليها .. ويسير وحده بعيدا يصرخ "**صوت صارخ فى البرية .. مهدوا طريق الرب**" .. كما كان يقول المسيح .

وجاءنا رفاق جناح .. تحدثوا عن أيامها الذاهبة .. وتحدثنا عن أيام الفيوم .. كانوا يحيون حياة السجن الحر .. السجن بلا قيد أو سجان .. السجن وفيه كتاب .. والأقلام .. والألوان .. وفرشاة الرسام .. **وليم اسحق** .. **وداود عزيز** .. رغم المشقة .. والبعد .. وطول طريق الأسفار .. كان الأهل يزورون الأبناء .. رغم البعد .. .. يجئ الشوق .. ويحمل أعباء السفر .

وحكوا عن "**همت**" حين أتاهم فى الوحات .. ومن قبل فى ليمان طره .. دائما "همت" .. وجه الشؤم ونذير العذاب .. حرق الفن .. وكل الكلمات المكتوبة وملابسهم ...وأتوا من قلب الصحراء إلى الصحراء ليكونوا فى هذا القصر يبدأون من البداية وبدأنا بعد الذكرى .. وحكاية آلام الماضى .. نمشى للمستقبل .. لا شئ يضيع .. حتى فى الصحراء .. الحرية فى الصدر وفى الوجدان .. وفى الآفاق الممتده .. أهلا .. أهلا **يا أبناء الفيوم** .. أهلا ... أهلا .. يا أبناء جناح .

يوما بعد يوم يأتى الوافدون من مراكز التجميع .. الفيوم .. والقلعة ... وأسيوط وقنا ... عدد المسجونين يتزايد .. وكذلك أعداد المعتقلين أصبح الرسامون كثيرين **وليم اسحق** ، **وداود عزيز** **وحسن فؤاد** ، **وسعيد عارف** ، **وسعيد عبدالوهاب** ، **وزهدى** .. والشعراء جاء **فؤاد حداد** ، **وعبدالمحسن خياط** .. ومن كتاب القصة والمسرحية جاء **محمد صدقى** ، **وألفريد فرج** **وشوقى عبدالحكيم** .

ومع كل دفعة تجئ تأتى المباحث فيكفهر جو السجن .. وتضيق الصحراء بما رحبت .. ويصبح إغلاقه الأبواب وتغيير التسكين .. وإساءة المعالمه ، وأحيانا الضرب والتعذيب ..ولكن حين تذهب المباحث يبدأ الجوخ الصفاد وتعدد الأمور إلى ما كانت عليه .

السفاح يعيث فسادا

لو أننا تابعنا سيرة **همت** بين السجون لرأينا عجبا .. كانت أولى تجاره مع الشيوعيين المحكوم عليهم في **طره** .. كانوا قد أضربوا عم الطعام ، وتحرك من حول إضرابهم أهالي المسجونين .. وحتى يسكت صوت الاحتجاج ذهب إليهم .. وابتكر التعليق على العروسة بعد إجراء ما يلزم من ضرب وتعذيب وإحراق .. وكان التعليق على وكان بين المعلقين على العروسة **الأستاذ وليم** اسحق بجسمه النحيل وتكوينه الرقيق .. علقه من بديه في ناحيه .. ورجليه في ناحيه أخرى وتركه في الشمس الحارقة ، ثم ذهب بعد ذلك إلى **سجن جوا مصر** .. وفرض على السجن جوا قاتما .. وإرهابا مظلما .. ونجاحه في طريقة إعلان أنباء الإعدام .. ثم جاء إلينا في أبي زعبل ، فضرب وحرق وأتلف كل شئ .. وعلق على العروسة .. وجلد على الظهور فأدماها . ثم ذهب إلى الواحات ليهدم ويحرق .. وينقل المسجونين من جناح إلى "القصر" في المحاريق.

ولكن أبشع غزواته كانت في أبي زعبل عام ١٩٥٩ في إطار الحملة المسعورة ضد الشيوعيين .. فعذبهم هناك حتى الموت .. وذهب ضحيته شهدي عطيه الذي لفظ أنفاسه على مرأى منه ومسمع إذ هو يعذب .

والآن .. **همت** جاء .. جاء يخرب ما تبنيه الكلمة .. وما تبصره العين أفرغ كل زنازين السجن من الأشياء أجلسنا صفاً صفاً .. نخرج مجموعة بعد مجموعة .. **همت** يجلس على منصه عاليه شيدت له .. منصه همت بعيدة .. يقف على طول الطريق إليها صفان من العساكر بأيديهم هراوات وعصى ، وسعف النخيل .. والمعتقلون يمرون واحدا واحدا بين الصفين يتلقون من العساكر وهم سائرون ضربا عشوائيا كيفما اتفق وهم سائرون .. مشوار طويل .. يصل المعتقل أخيرا أمام **همت** .. ينادى عليه سجان .. اسمك .. وسنك .. وعملك .. اخلع ملابسك .. يأخذونها إلى كومة من الملابس .. ويعطى ملابس السجن .. والضرب لا يتوقف في كل المراحل .. يحمل الملابس التي أعطيت له ويعود من حيث أتى بين الصفين والعصا والهراوة وسعف النخل .. حتى يدخل إلى الزنزانة .. وبينما بعض المعتقلين يجرى بين الصفين ، يتعثر .. أو يضرب في الساق فيقع .. أو يختل توازنه بضربه على الرأس .. حينئذ ينهال عليه الضرب من كل الأنحاء .. ولا يتوقف حتى يقف ويجرى تحت الضرب أيضا .

أسمك : **محمود المانسترلى** .. صنعتك ، ضابط بالقوات المسلحة .. يشتد الضرب .. يتهمونه بالكذب .. يقال مرة أخرى : صنعتك .. فيقول ضابط بالقوات المسلحة .. يشتد الضرب حتى يأذن همت بانصرافه.

اسمك : **محمود القويسنى** .. صنعتك ضابط بالقوات المسلحة .. ينال ما ناله المانسترلى .

اسمك : **نبيل باسيلى قرنفلى** .. يعنى إيه قرنفلى يابن الـ .. ينال جزاءه ويعود .

كان معى **زكى عثمان** .. كبير السن .. فقد بصره .. شغلنى أنا أنظر إلى الدفعات الذاهبة والعائدة .. كيف سيذهب ؟ وكيف سيعود ؟ .. كيف سيجرى بين الصفين ؟

والضربات .. إن عثرت أقدامه كيف سينهض .. وعزمت على شئ .

أبصرت **زكى عثمان** يؤخذ فى دفعة .. أسرعت إليه . . وتراجع واحد من بين الدفعة لأحل محله .

طلبوا منى أن أترك ذراعه ، وأن أسير وحدى لكنى تشبثت بذراعه .. قلت لزكى سنجرى أنا وأنت معا .. بأقوى ما نستطيع .. بأقوى ما تستطيع يجب أن تجرى .. لا تخف شيئا فإنى معك .. فى بداية الصف أوقفونا أمرونا أن نسير فرادى بين الصفين .. لم أتركه .. ضربونا .. وأخذنا نجرى نفلت قبل أن يوقفنا أحد ، وحتى لا نجرى فرادى أمام همت سألونى .. أسمك .. عنوانك .... عملك .. تحت الضرب .. انظر فى الأرض .. لا تنظر للجالس فى الأعلى .. **"همت يخشى نظرات العين"** - اخلع ماتلبس .. خذ ما يعطى لك .. أحمله إلى العنبر .. لكنى لا أتحرك .. الضرب يزيد .. ماذا يوقفك .. قلت لهم هذا لا يقدر أن يمشى وأشرت إلى عينى .. حتى أنهوا إجراءات السفاح .. وحملت الأشياء لى ولزكى .. وجريت معه عائدين .. عاريين بين الصفين .. والعصا والضرب .. حتى عدنا للعنبر .

فى كل العالم لا شئ يساوى أن تمسح آلام رفيقك .. أن تسنده بيد الرفق .. بأعطاف حانيه .. أخرجت لزكى عثمان ما يلبسه .. لم يكن العرى مثيرا للحزن .. ولا للخجل .. بل كان كأن الانسان تخلى عن كل الدنيا .. أصبح روحا صافيه ..

ولبست ثياب السجن .. وتأمل كل منا صاحبه فى الزنزانة ، .. وانطلقت ضحكات .. الكل يقهقه .. كل ينظر فى رأس الآخر .. الرأس شوارع .. طرقات محلوقة .. وجوانب فيها ما مازال الشعر .. وتذكرت .. كان الحلاق لدى همت .. يضرب فى الرأس بلاترتيب .. المجد لهذا الإنسان .. هذا لنوع من الصلب .. لا يهتز لهمت أو أسياده ..

وأقمنا ليلا ننسوا الآلام ، ونضمد جرح المجروح .. حتى جاء الصبح ..

أخذونا نحو فناء السجن .. وجلسنا فى صفين .. مثل الأمس ..

ماذا يجرى .. ماذا دبر همت .. ظن البعض ظنونا .. ليس لدينا ما نفقده اليوم .. هل سيعيد

السفح تجاربة بالأمس .. قف .. زعقت أصوات مسعوره .. فوقفنا .. سر . .

انظر للأرض .. سرنا صفين .. وحوالينا صفان من الجند .. وأمام الموكب حشد من قادة يوم الأمس .. **همت** .. ومباحث أمن الدولة .. وخرجنا من باب السجن إلى الصحراء .. كانوا قد بنوا السور حول السجن .. وحفاة سرنا .. نتعثر فى الأشواك بأقدام عارية .. وخيالات تذهب وتجئ .. أين ستذهب ؟ ماذا ينوى هذا الكلب المسعور .. والرمل يميد بأقدام الطابور .. والأوهام تخلق .. أين تكون نهاية هذا السير .

قف .. انظر للأرض .. أعطونا بعض فئوس .. طلبوا منا جمع الأشواك ، وإعداد الصحراء لكى تزرع ..

وانصرف القادة .. تركوا حول الساحة كل جنود الأمس .. لكن الأمر تكشف .. لم تعد الأوهام تحلق فى الآفاق .. حسنا .. وسنعمل .. وسنزرع أرض الصحراء .

لا أنس أبداً " **سعد التائه** " يتألم .. طول حياته .. لم تلمس أرضا قدماه .. والآن على الشوك **سعد** يمشى .. يتألم .. قلت له .. سأنظف من هذا الشوك مكانا تعمل فيه .. من قبل .. وأنا طفل كنت أسوى خطوط القطن .. وكان الحصى مدببا كالمسامير .. وكنت أسير عليه .. لا أدرى كيف .. ولكنى سرت .. والآن .. الأمر لهمت .. وسيمضى .. فى حال سبيله .

ورجعنا بعد الظهر إلى العنبر ، أدخلونا الزنازين .. طلبو منا اثنين لحمل الطعام وتوزيعه .. واثنين لتنظيف الطرقه .

وتطوعت لتنظيف الطرقة حتى أبقى خارج الزنزانة .. أحدث الباقيين فى الزنازين الأخرى .. وأقوم بنوع من الاتصال مع الرفاق المسجونين فى العنبر الثانى .

٤ - واس يـــازمـــلا

كانت الصحف ممنوعة .. ولم نكن قد رتبنا نوعا من العلاقة بالعالم الخارجى بعد زيارة همت .. وكنا كل يوك نخرج للصحراء .. نجمع الأشواك بلاجدوى .. ولكن عبد **الستار الطويلة** اكتشف منجما .. أوراق مبعثرة من الجرائد القديمة بجوار بيوت الضباط .. يجمعها ، ويرتب تواريخها .. وكانت الأحوال قد بدأت تتحسن والأبواب تظل مفتوحة بعد العودة من المزرعة كما كانوا يسمون عملنا فى الصحراء .. فوجئت بإبراهيم **الشناوى** ينادى " **واس يازملا** " ويشير إليهم ليتجمعوا .. ثم يقف **عبد الستار الطويلة** بين الذين تجمعوا ويقرأ عليهم نشرة أخبار.

إبراهيم الشناوى قريبى .. أمه بنت عمى تقريباً .. وهو من قريتنا تعلم فى كلية الزراعة أصبح الآن عضوا فى وكالة أنباء السجن برئاسة **عبد الستار الطويلة** واختصار اسم الوكالة " **واس** " وبدأت الدائرة تتسع حول **عبد الستار** حين يقرأ النشرة .. وبدأت الوكاله تتطور .. صحيفة مهربة .. أخبار من راديو .. الخ

أدت وكالة " **واس** " دورا كبيرا فى ظروف صعبة .. وأصبحت نموجاً لمبادرات عدة فى مجالات مختلفة .. إذا كان الخروج إلى الصحراء الذى أريد به التعذيب والإيذاء فى حقيقة الأمر يمكن أم يكون مفيدا .. حيث يكون الناس جميعا فى مكان واحد وهذا شئ لا يحدث حين نعود إلى الزنازين .. وحيث يمكن استغلال حالة الاسترخاء التى تحدث لعساكر الحراسة .. والذين بدأوا يتناقص عددهم .. ويبحثون عن مكان للراحة حول المعتقلين .. ولا يفهمون لعملهم هذا أى نوع من الجدوى .

بدأت بعض التجمعات السماع بعض المحاضرات فى التاريخ .. وفى اللغة .. وفى الأدب والفن وفى السياسة .. وهكذا تحولت عملية الخروج إلى ساحة جامعية .. ثم تطورت بعد العودة .. إلى محاضرات متخصصه مثل محاضرات **الدكتور فايق فريد فى " السوبرناطيقا "** ومحاضرات **الدكتور فؤاد مرسى عن البنوك** .. ومحاضرات **الدكتور عبد العظيم انيس عن القومية العربية وفى الرياضيات** .

وأسوة بوكالة " **واس** " للآنباء بدأت تصدر مجلات مسموعة .. وأصبح كل اتجاه حزبى يصدر مجلة من هذا النوع .. **مثلا مجلة الطريق** وكان مجلس تحريرها **أديب ديمترى وأمير اسكندر وفتحى عبد الفتاح ومحمود القويسى** وكلهم من اتجاه واحد داخل الحزب .. **وكذلك فعلت حدتو** .. وأخيرا صدرت مجلة الأفق .. ويشرف على تحريرها **فيليب جلاب .. والفضل فى هذا النشاط كله** للبداية .. **واس يازملا** .

٥-المـــــزرعـــــة

بينما نحن بجوار مساكن الضباط .. جاءنى صبى من **القرية البرامون** .. يعمل عند أحد الضباط الذى أحضر معه زوجته إلى الواحة أبصرنى الصبى وجاء مسرعاً فعرفته .. حدثنى عن القرية وعن أخى أحمد .. وقال لى إنه يعمل عند الضابط (...) وعلمت أن زوجة هذا االضابط أبوها ابن خال أمى .. ولكن زوجها من اسرة اسكندرانيه لا أعرف عنها شيئا .. وطلب منى أن أطلب أى شى أريده من قريبتى ... وفوجئت بالضابط يستدعينى على انفراد ويسألنى عن حالى وما أريده ..

كنت مع **ابراهيم الشناوى** قريبى **خريج كلية الزراعة** قد فكرنا فى تحويل الجهد المبذول فى الصحراء إلى جهد مثمر .. وكانت إلى جوار منطقة عملنا عين ماء يسيل ماؤها ليتبدد فى الصحراء ففكرنا فى استغلال هذه العين تكملة لتخطيط لم يظهر منه شئ إلى حيز التنفيذ .

وهكذا حينما سألنى الضابط عن ما أريد قلت له : تستطيع أن تخدنا فى حدود عملك .

فيمكن أن تقترح على مصلحة السجون أن تمدنا **بثورين وقصابية ومحراث** .. نستطيع بها أن ننشئ مزرعة تمد السجن بحاجته من الخضراوات .

الاضـــــراب

كان من الطبيعى حين برزت فكرة الاضراب أن تعرض للمناقشة ، وكان طبيعيا أيضا حين تناقش أن يكون هناك مؤيدين ومعارضين .. وقد كان هناك بين كل لفرق فى المعتقل من يؤيد الاضرب كما كانت هناك قله فى كل بصفوف تعارضه.

وقد كان فى صفوف الذين سموا أنفسهم قيادة الحزب موقفان : الأول : يرى أن الاضراب عن الطعام موقف لايليق بالمعتقلين السياسيين لأنه كفاح سلبى يقوم على تجويع المناضل وإرهاقة ، وإضعاف قوته على تحمل السجن . فضلا عن أنه أسلوب يغذى وهم الإفراج " **وبوسع نطاق منظمة السلك** " .. وهناك آخرون فى هذا الاتجاه أيضا " **اتجاه خط الحزب** " يدعون أن الخلافات فى صفوف المعتقلين سياسياً تعتبر عائقا فى طريق نجاح الإضراب .. ومعنى هذا أنه يريد تحميل " **الرأى الآخر** " مسئوليه عدم الإضراب .. أو عدم استخدامه .

وفى تيار المعارضة داخل الحزب كان هناك اتجاه كبير للإضراب ، بل كان هناك متشددون فى هذا الاتجاه .. كما كان هناك معارضون لإضراب واسع النطاق

وتقرر يوم بدء الإضراب ، وتكونت لجنة طبية من **الدكتور مختار السيد ، والدكتور عبد المنعم عبيد ، والدكتور شكرى عازر** على أن يكون الدخول للإضراب بناء على رؤية طبية لحالة المضرب عن الطعام ومقدار سلامته البدنية التى على أساسها يحدد إذا كان يمكن دخوله فى المرحلة الأولى أو الثانية أوالثالثة أو الأخيرة .

وكان هذا الرأى وهذه اللجنة ضربا لفكرة تصنيف الناس حسب معتقداتهم السياسة وأن الرأى السياسى له دور فى تحمل الإضرب أو عدم التحمل .

وبهذا دخل الدفعة الأولى فى الأضراب ثمانية ثلاثة منهم يحملون فكرية خط الحزب هم

الدكتور فوزى منصور والدكتور عبد المنعم عبد والدكتور حسين كمال الدين أما المعارضون لخط الحزب فكانوا خمسة هم محمد شعراوى وأخوه سيد شعراوى ومتولى بحر عبد الرحيم عثمان والدكتور رءوف نظمى .

وفى اليوم الثالث وعلى نفس الأسس دخلت الدفعة الثانية وعددها مائة وعشرون . وقد شارك الفلسطينيون فى الاضراب اعتبارا من الدفعة الثانية لأنهم اعتبروا أن الإضراب عن الطعام لازم وضرورى لإشارة قضيتهم .. وتبعت هذه الدفعة الثالثة ثم الرابعة

وظل الاضراب ناجحا ومتماسكا يتوسع يوما بعد يوم .. والإدارة تتجاهل وترفض حتى وجود طبيب يكشف على المصريين ويسجل حالتهم الطبية .. وبدلا من ذلك وتحت ضغوط العائلات التى تحركت تأييدا للإضراب فقد جاءت وفود من مصلحة السجون ، ومن المباحث العامة ترير الضغط من أجل إنهاء الإضرب .

وكانت حالة الدكتور رءوف نظمى تتدهور .. أصابة الجفاف .. ولكنه قاوم بعنف محاولة الأطباء إعطاءه الجلوكوز .. وكذلك كانت حالة شفيق اسماعيل .

وفى اليوم الثانى عشر دخلت الدفعة الخامسة .. وزاد عدد المنقولين إلى مستشفى الواحات من الدفعات السابقة .

وأخيرا جاء مفوض من رئاسة الجمهورية لمناقشة المطالب .. وانتهت المناقشة بموافقة على حقوق المعتقلين .. وانتعشت بالاضراب به عملية إثارة القضية فى الخارج .. وأحبطت به تشنجات المزايدة الثورية ، واعتبار أن رأياً سياسياً واحداً هو الثورى دون الآراء الأخرى .

٦ - فتح باب الصراع (المفتوح من قبل) .

حقيقة الأمر أن الصراع السياسى فى المعتقل لم يكن مغلقا ليفتح .. ولكن قيادة الحزب أرادت أن تفتح الصراع لكى تسيطر على كل الآراء أو لتدفع المعارضة إلى خارج الحزب .. وهكذا فقد صدر قرار القيادة بفتح المفتوح ذراً للرماد فى العيون وكان العنوان الرئيسى للصراع السياسى هو خط الحزب .

وقد أصاب هذا الحظ عمليات بتر وترقيع وترميم منذ اللحظة الأولى لضربة رأس السنة . فبيان ٩ يناير كان تغييرا فى خط الحزب .. وكلما قبض على مجموعة من المناضلين جاءوا بتغيير جديد فى خط الحزب آخرها كان خطة "عباس" (أبو سيف يوسف) .. وفى مقابل التغيير فى القيادة طبقا

لاتساع نطاق الاعتقالات كانت توجد إجراءات فى المجتمع تؤدى إلى تغييرات فى الرؤية مثل **تأميمات ١٩٦١** .

وعلى الرغم من أن أغلبية الحزب بعد انقسام " حدتو " كانت من أعضاء الحزب المصرى الأول إلا أن الأقلية فى القيادة كانت ترى أن أغلبية أعضاء المصرى فى السجون ، وأنهم فقدوا علاقتهم بالخارج .. أى أن الحزب لم يتصل بهم .

ورغم أن الأغلبية من هنا ومن هناك الآن فى السجن .. إلا أن القيادة فى السجن تصر على فرض فكر الأقلية ، مستعملة فى الصراع المفتوح لغة خطاب لا تجوز مثل وصف وجهة نظر بأنها تلعق أحذية البواجوازية الخ ما هو مثل ذلك من نوع أنهم يجب أن يعدموا باعتبارهم عملاء .

واستخدمت فى الصراع المجلات المسموعة ، فأصبح الصراع الداخلى مفتوحا ليس للأعضاء فحسب أو ليس صراعا داخليا وإنما هو صراع لكل من هب ودب .

٧- المحبسين مرة أخرى

وهكذا لما كان أعضاء الأقلية يتحكمون بلا اعتبار لقواعد تنظيمية فى الأغلبية فقد عانت هذه الأغلبية من محبسين على حد قول **أبى العلاء المعرى** .. وقد ظهر المحبس الثانى جليا فى معركة الاضراب عن الطعام ، وفى مسأله "تأميم المزرعه" ثم فى مسألة الصراع الأيديولوجى وفرض فكر الأقلية والضرب عرض الحائط بكل القواعد التنظيمية .. واتهام الآخر بالعمالة .. وإنكار المواقف النضالية ، ونسبة هذه المواقف فحسب لأتباع جانب معين ، والحفاظ على أعضاء فريق من الحزب دون فريق كما حدث مع موضوع زكى عثمان وأعتبار رعايته مسألة فردية لا شأن للحزب بها ، وافتعال أنواع من البطولة لأفراد يعلم الجميع ألا طاقة لهم بها حسب ظروفهم وإمكانياتهم .

٨- فريد شنيشن وأولاده

نوع من الناس لا يمكن أن ينسى

رجل ضبط وربط .. ولاؤه لعمله ورؤسائه .. يحسب تماما القوة والتنظيم الباطش مستتار دائماً ، متجهم الوجه .. يخاصم البسمة .

أرادت الدولة أن يكون **سجن المحاريق بالواحات** مركز تجميع من **سجن القلعة** ، ومن **أبو زعبل** ، ومن **الفيوم** وبقية السجون .. ومن **سجن الواحات نفسها فى جناح** .

وأرادت الدولة للتحكم فى هذا الجمع رجلا يقدر عليه ويحمل العبء عنها ...

فرزت العاملين بمصلحة السجون فوجدت فريد شنيشن الأقدر والأكفأ .

وافتتح العملية كلها همت .. بحرانقه فى جناح وبطشه فى المحاريق .

وترك المهمة لشنيشن وانصرف مطمئنا إلى نتائج حرانقه وآثامه فى أيد أمينة .

ولكن العزله .. والصحراء المحيطة تمثل سجنا للمسجون والسجان وعلى حد السواء ..

ولذلك فقد كانت القبضة تخف شيئاً فشيئاً إلى أن تأتى المباحث العامة فتشتد من جديد .

وخلال عملية الشد والجذب فى الضبط والربط تنمو علاقات بين المعتقلين والمسجونين من ناحية وبعض الضباط الذين تظهر العزلة فى الصحراء ماكمن فى نفوسهم وترسب من إنسانية بشرية إذ أنهم لا يجدون من يتحدثوا معهم غير المعتقلين والمسجونين .

وبهذا الاعتبارتنمت صداقة بين **محسن الأعصر** وأحد الضباط الذى فاضت إنسانيته عن حد لا يحتمله الضبط والربط .. فاصبحا يلعبان "**الراكت**" معا على مرأى ومسمع من الإدارة ومن المعتقلين .

وحين يحس **شنيشن** بأن الأمور تفلت من يده فإنه ينتهز حادثا أو حتى يفتعله لبدء دورة جديدة من الشد والتراخى .. وقد يتمادى فى البطش كما حدث منه مع الأستاذ المحامى **أحمد فرج** من **المنصورة** ، حيث استبقاه عنده لسبب غير مفهوم وأغلق الزنازين وظل يضربه وأصداء الضرب تتجاوب فى أسماع المعتقلين جميعا .

وقد حدث فى خلال إحدى فترات الشد أن الأستاذ **معين مينا المحامى** من طنطا كاد يشتبك مع أحد العساكر ، وخوفا من أن يأخذها **شينشن** ذريعة وقفت بينهما لأحول دون تصاعد الموقف .. ويبدو أن السجان كان يقوم بدور مرسوم .. فلما أوقفت مسيرة هذا المدور ضربنى بحذائه فى الظهر على الكليه **وأصبت بنزيف حاد** وتجلط فى الحالب مما أدى إلى **ارتفاع نسبة البولينا** ونقلت إلى **مستشفى أسيوط** ... المهم هنا أن شنيشن ظل على أسلوبه هذا حتى جاء يوم ..

فى هذا اليوم رأينا شنيشن وهو يجرى بالليل بين العنابر ومعه الضباط والسجانون يبحثوا عن

زنازين الأطباء حتى وجد الدكتور **صلاح حافظ والدكتور حمزه البسيونى** .. فحملهما معه فى السيارة على عجل إلى موقع إقامته فى استراحته " .

كان أولاده الأطفال قد عثروا على زجاجة دواء بها حبوب لخفض الضغط ، فابتلعوها عن آخرها وأصابهم الهبوط إلى حد الإغماء .. وهو هنا حبيس الصحراء شأنه شأن مساجينه .. ولم يجد غيرهم ينقذ أطفاله .

ونجحت مساعى الأطباء .. وأفاق الأطفال وعاشوا فيما يشبه المعجزة وذلك باستخدام وسائل بدائيه ، وبأدوية مما هو عند المعتقلين .

وهكذا تغير حال شنيشن .. لم يعد الوحش الذى نعرفه ... ولم يعد يستخدم دورة الشد والجذب أو يفتعل الحوادث للتنكيل صار صديقا .

ثم يأتى من يدعى أنه ناقشه وأقنعه ... ولم يكن فى الأمر شئ من ذلك .

فى مستشفى اسيوط :

بعد حادث **الأستاذ معين مينا** والسجان نقلت إلى مستشفى أسيوط ... واستقبل الحالة أحد أطبائها .. عرفت فيما بعد أن اسمه "إبراهيم" .. وطول الطريق من السجن إلى المستشفى والذى يبلغ مائتى كيلو متر زادت نسبة البولينا فوصلت إلى درجة الغيبوبه .. وقد عرف **الدكتور إبراهيم** آسمى لأنى كنت أتردد على بيت الامتياز فى القصر العينى لأزور **الدكتور محمود شريف** وكان **الدكتور إبراهيم** زميلا له ..

واتخذ إجراءات الأشعة .. ثم الجراحة العاجلة .. وحين أفقت من التخدير بعد العملية وجدتنى فى حجرة من حجرات المخازن أخلوها على عجل لوضعى بها مع أحد المعتقلين المرضى . وحين أفقت وجدت يدى مكبلتين بالقيود فى قوائم السرير بحيث لا أستطيع أن أتقلب أو أجلس أو أغادر السرير .

وحين زارنى الطبيب للاطمئنان على عمليتى ، وللتأكد من الإفاقه وجد الجلوكوز المعلق فى الوريد قد تسرب منه إلى تحت الجلد بسبب حركة الإفاقة العنيفة فتضخمت يدى عند الساعد وذعر الطبيب وأمر بفك القيود .

وبعد أيام نقلت من المستشفى إلى السجن بأسيوط نفسها لمتابعة العلاج تحت إشراف أطباء السجن حيث كانت إدارة المستشفى ترتعد خوفا من وجود المعتقلين بها حيث يمكن أن يدبروا للهرب .

وكان معى فى سجن أسيوط الأستاذ الصديق **حلمى العطار** صديق السجن وما بعد السجن . وقد استطاع أن يأتى لنا بكتب من مكتبة السجن وذهلنا لأن فى هذه المكتبة مجموعة من الكتب النادرة .. فى الأدب والشعر .. والروايات لكبار الكتاب العرب والأجانب .

وكانت مكتبة أسيوط مجالا لأخصب فترات القراءة أيام المعتقلات .

وفى إحدى مرات الذهاب **للمكتبة** بعد أن استطعت المشى قابلنى سجان ، وأخبرنى بأن المبنى المجاور للمكتبة هو **حجرة الإعدام** .. وأن بعض المحكوم عليهم سيتم التنفيذ فيهم الآن .. وأخذنى إلى موقع يعرفه .. هذا الموقع يمكن منه المشاهدة .. وما أن أبصرت أول حالة حين أخذ المجرم إلى المشنقة وسار وقد عصبت عيناه .. إلا أنه مشى إلى المشنقة كأنه يعرف طريقها .. ووقف شامخا فوق لوح من الخشب فتح إلى أسفل على ما أتصور فانزلق الرجل .. وتعلق من رقبته .. وزلزلت زلزالا عظيما هز كل أركانى .. وانزويت فى مكان لا أرى منه إعدام الآخر .. وبقيت فى حالة غثيان طول اليوم .. لا تفارق مخيلتى صورة الرجل حين هبط به باب يفتح إلى تحت ... وكانت ليلة مروعة .

٩- حادثان فى أسيوط

حادثان فى أسيوط لا أنساهما . أولهما . أن أخى أحمد جاء لزيارتى فى المستشفى ووقف بجوار حجرة المخازن التى كنت بداخلها . يتحدث إلى أحد موظفى المستشفى يسأل عن مكان وجود **"واحد جاء من لواحات"** .. سمعت صوته .. لايمكن أن تغيب عنى نبراته .. ولكنى لم أكن أستطيع النهوض أو الصياح .. وبعد أن أضناه البحث والسؤال ، وعجز عن الوصول إلى عاد ليطئمن الأهل !!

الحادث الثانى : أننا بعد أن علمنا موعد العودة إلى الواحات تمكن **الأستاذ حلمى العطار** من الاتصال بأبيه فى سوهاج .. وأخبره الموعد فجاء ليرى ابنه ... واحتضن الرجل ابنه لا يريد أن يتركه فتذكرت أبى وأشفقت على **والد حلمى** .. ولكن الرجل كان من النوع الجلد ... تماسك ... وأخذ بيدى مع ابنه .. وقال هيا بنا .

وجلسنا فى مقهى .. وأخرج إلينا ما أتى به لنأكل .. ومعنا عساكر الحراسة وكان أشهى ماذقته أيام الاعتقال الطويل ...

وحين عدنا إلى الواحات كانت الدنيا غير الدنيا ، وما كان عندما غادرنا أصبح شيئا آخر عندما عدنا .. المسرح .. والسهر عنده ليلا ... والأبواب مفتوحة .. والمعتقلون هم الذين يعطون التمام ، ويغلقون باب العنبر عند الفجر .. ويفتحونه مع مطلع الشمس ..

حول **فؤاد حداد** كان يلتف عدد كبير .. لا تستطيع أن ترى بينهم رابطا .. فهم من كل الاتجاهات .. وشعر **فؤاد** حداد شئ رائع .. وإلقاء **فؤاد حداد** لشعره لا يمكن وصفه .. كان يلقى قصيدة بعنوان **الشاطر حسن** .. كان يتحدث عن **الشاطر حسن** .. وهو يقود المعارك يضرب ويقاتل .. على نمط ما كان يفعل **أبو زيد الهلالى والزناتى خليفة** وحين تشتد المعركة وتضطرب قلوب السامعين .. ويأخذ الموقف بألبابهم يقف **فؤاد حداد** فجأة ويقول :

" احنا هنا فى أمان يا ولاد " .

* * *   * * *   * * *

* * *   * * *

* * *

*

الفصل الثاني عشر

نشأت مجموعة الأفق في مواجهة تعنت قيادة الأقلية ، ومطالبتها للآخرين باحترام القيادة ، تلك القيادة لتى تثبت تورط بعض أعضائها في مؤامرات خسيسة ضد تيار المعارضة ، وتم فصل أحد قادة الأغلبية ، نتيجة لهذه التحقيقات ، وتعين أخر من لأقلية مكان ، ورغم ذلك تصر هذه القيادة على فرض احترامها وطلب الالتزام لها .

تلك القيادة التي عزلت نصف الحزب أو أكثر من نصفه عقب ضربة يناير مباشرة . حتى في الشارع تركوا من رفاقهم نهبا للخطر دون حماية ... وبعد المعتقل تركوهم في مواجهة التعذيب دون مساندة أو رعاية .. وخلال فترة الوجود العام .. أي الذي شمل كل المعتقلين والمسجونين تقريبا بالواحات .. أكدوا حق الأقليه في التحكم .

وفي نفس الوقت كانت القيادة التي تمثل الأغلبية والمعزولة عن التأثير ضعيفة ولا تستطيع القيام بدورها كمعارضة .

والحقيقة أن الأفق لم يكن انقساما .. ولم يكن تنظيماً مستقلاً ، كان صرخه في وجه المحبس الثاني . الأقليه المتسلطة ، المتحكمة " الضاربة عرض الحائط بالقواعد التنظيمية .. ليس هذا فقط بل إن الأفق كان صرخة اتهام للأغلبية المستسلمة ، العاجره قيادياً .. التي وضعت نفسها دون أدنى حذر تحت يد السلطة ... وإرهاب الأقلية .

لقد رفض أعضاء الأفق أن يعلنوا خروجهم عن الحزب ، فهذا لم يكن هدفهم .. وإنما كان الإعلان عن فكر ضيع .. ومبادئ انتهكت .. وأخلاق ثورية بددت .. وقيم فكرية انتهكت من جانب كل القيادات على أنواعها وتعددها .. ولكن الأقلية الحاكمة في الحزب من "ع..ف" التي كانت تخطط من البداية لفصل وإبعاد من ليس منهم قبل الاعتقال بأيام .

هذه القيادة انتهزت فرصة أتاحتها الدوله بالاعتقلات فاستولت تآمريا على القيادة في الداخل والخارج .. وذلك ليس استنتاجا ، ولكنه واقع ومكتوب بأيديهم .

في الخارج مارست القيادة الجديدة العودة بخطة الحزب المتفق عليها في وثائق الوحدة إلى خطة حلقتهم القديمة ، وعزلت المناضلين من غير هذه الحلقة بحجج سياسية وتنظيمية ، دعمت الهدف

الذى أرادته الحكومة من **ضربة يناير** .. أما فى داخل السجن ، فقد تحدثوا باسم الحلقة ، ودافعوا فحسب عن أبنائها ووضعوا زملاء الوحدة تحت ضغط كماشة هم أحد فكيها ، وذلك بممارسة نفى الآخر وعزله مثلما تفعل السلطة على نطاق المجتمع .. وترك الآخر فى مواجهة إرهاب الدولة بدون غطاء .

وتغيير خط الحزب وترقيعها خلق نوعاً من الاغتراب الفكرى .. فالتغيير هنا آليات لم تحترم .. وقواعد أهدرت .. **وبعد أيام من ضربة ليلة رأس السنة صدر بيان ٩ يناير** .. وتشكلت المستويات التنظيمية من أبناء فكرية هذا البيان ، ثم توالت التغييرات .. تخلط بين الاستراتيجية والتكتيك .. وتفقد الصلة بين الأمس واليوم والغد ... ولكن فترة تغيير دون ضابط ولا ربط . وتعددت التسميات من ٩ يناير .. إلى خطة **عباس** ... **إلى إسماعيل المهداوى** الخ .

١- الإفـــراج إلـــى الحـــل

قبل أن تأخذ الدولة قرراها بإغلاق المعتقلات كانت قد ذهبت بالمعتقلين فى رحلة مضنية بعيدة المدى ... شاقة المسالك والدروب .. خبرت فيها أمرهم .. وعجمت عودهم ورأت الاخطر منهم .. بل إنها كانت على ثقة من موقع العلم .. ومن كلمة أصحاب الكلمة بأن الإفراج سيكون السبيل إلى حل التنظيمات .. وأنها أصبحت بدون إجراءات الاستنكار تهيم حبا ، ويغمى عليها شوقا إلى التوحد فى ذات الضارب القاتل المعذب .. وبدلا من القيد يضعه النظام فى الأيدى وضعته القيادة فى الأعناق .. فساروا خلف السلطة .. دون أن يصلحوا قلاعهم الممزقة .. فأسلمتهم إلى شاطئ اللاعودة .

وفرحنا بالإفراج .. وكأن الليل انزاح وجاء الفجر .. ها نحن نغادر .. ها نحن وراء سراب نسعى .. الشوق إلى الحرية فى الصدر .. لكن العجز .. ودليل السوء ... يقودان إلى الهوان ...

إذا كان الغراب دليل قوم ... يدلهم على رمم الكلاب

وهكذا خرجنا من المنفى ، ومن الجب العميق وصعدنا إلى هاوية حل الحزب .

نزف الجرح فى يدى وفؤادى ... واستنامت يدى إلى الأصفاد
وانزوت آمالنا فى صديد ... من جراح وفى بصاق الأعادى
وتردى إلى الوحل عنق جيل ... نكس الذل رأسه فى بلادى
لم يعد لى غد وقد غابت الشمـ ... ـس فيا طول ليلنا والسواد
أبد الآباد لن يطلع الفجـ ... ـر لن يرتوى ظما الأكباد
كتب الذل والهوان علينا ... وعلى الفانيات لبس الحداد

كانت مدارس الاستنكار بالقلعة نموذجا للرؤية الاجتماعية عند قيادة الدولة فلم يكن الإفراج عدولا عن سياسة التعذيب والقتل والتجويع والاستنكار ، بل كان المرحلة التالية والتطور الطبيعى والمنطقى لعقلية البيئة الفاسدة والعرجاء ، وكان من أشهر قادة مدرسة القلعة ومفكريها رفعت المحجوب ولعل دوره هذا كان الثمن أو كان المؤهل والمبرر لكى يصبح رئيسا لمجلس الشعب . ومثل هذا المؤهل .. وهذا الجزاء حدث فى كل أرجاء الحياة فى مصر .. فضباط التعذيب فى أمن الدولة أصبحوا رؤساء والأحياء .. وهكذا .. وهكذا ..

وكان الإفراج سبيلا إلى مرحلة جديدة .. التضييق فى الرزق .. والحرب فى لقمة العيش ولكن السير فى الشارع .. ورؤية الناس .. والأهل والأصدقاء .. تعيد الثقة وتزرع الأمل .

مزقت أكفان الأسى وصحوت ... مرحى يا حياه
ونثرت آمالى تضئ على ملايين الشفاه
وإلى الزهور عبيرها .. وإلى الهلال انا سماه
وانا النسيم الحر داعب كل عينكى تراه
أنا لم أعد للسجن يا دنيا ولحنى ليس آه

* * *   * * *   * * *

لكننى مازلت أحمله على الذكرى كغصه
والذكريات ملاعب الأيام والعمر المنصبه
مازلت أبصر فوق أستار المسارح طيف قصه
وخيال سور كلما أبصرت للشرطى بصه
تهتز روحى بالها فى أجنحى هزات رقصه

* * *   * * *   * * *

إنى لأذكر يوم جاءوا والحياه بنا تسير
هبطوا على بابى وبالشباك واعتصروا الضمير
فلوا يدى ومزقوا الأوراق والأمل المنير
وتزاحمت أنفاسهم لهفى على الخبر المثير
هذا الذى زحم الحياة وكم تغنى بالمصير

* * *   * * *   * * *

هوذا إذن .. وتقوست حولى الأيادى كالمناجل

وعيونهم أنياب غل حول أفكارى تسائل
صاحوا بأوراقى ... ومن ذا خطها ... أين الرسائل
أنت الذى غنى النشيد .. ومن تحب .. وما الخمائل
ومن الذى أعطاك مايزهو به ذهب الأصائل

* * *   * * *   * * *

ومشيت نحو السجن لم أنطق لما سألوا إجابه
فلربما قالوا لماذا يمنح الوحى انسيابه ؟
ولربما قالوا لماذا القلب تبهجه الصبابه
والحب بين الناس يفزعهم فيرجون الكآبه
ولربما قالوا لماذا يكره الناس الذبابه

* * *   * * *   * * *

أغضبتهم لما سكت وصنت همى فى الصدور
ولربما غضب البليد لما يشاء من الأمور
حسبوا جنانى حيث قيدنى حديدهم يخور
غلوا يدى فهل ترون النور أضحى غير نور
صبوا على قدمى أغلالا ونادوا بالثبور

* * *   * * *   * * *

فلقد عرفت طريقكم وسلكت مسلكى اختيارا
غنيت آمال اليتامى والثكالى والحيارى
وشربت حتى فى سكون الليل أوهام السكارى
ونزفت من روحى دماء حين ضج دمى وثارا
وشحته الوطن الحبيب فكان للدنيا دثارا

* * *   * * *   * * *

أنا لا أريد سوى السماحة والعدالة والمحبة
تحنو على الأحلام .. تمنح للهوى القدسى حبه
وترن فى قدس المعابد دعوة المظلوم ربه
يخطوا إليها الطفل وحنان الخطى بوركت وثبه

أنا لا أريد سوى الذى من أجله الأنسام رطبه
وتدحرجوا بى ... حيث لا أجد المنى إلا هباء
حيث الجدار يضيق حولى بل يضيق على السماء
حيث الليالى لا صباح لها يجئ به الضياء
والصخر يعوى والرياح السافيات على الرجاء
ويداى فى الأغلال لكنى أحلق ما أشاء

*** *** ***

مضت الليالى .. كم مضيت ... وهل أعدك ياليالى
كم ذا لقينا عسفها ... و كم ذا .. وكم ذا فى خيالى
قالوا تسير إلى المنون بها فقلت وما أبالى
قالوا نعيدك للحياه ونحن آلهه المحال
فركلت ما أعطوه آثرت القبور على الضلال

*** *** ***

لكننى مازلت أحيا فى يدى مفتاح قبرى
أنا إن يضع عمى فما ضاع الذى أفدى بعمرى
مزقت أكفان الأسى وهتفت للدنيا يسرى
أنا لم أعد فى السجن يا دنيا وحبى ملء صدرى

٢- السجن بأشكال أخرى

" الإفراج" لغة التعامل مع الأسرى .. لم يكن حتى إخلاء سبيل .. بل كان استمراراً لنفس السياسة .. السجن بأشكال أخرى ..

... غادرنا الواحات إلى الحربى يوم ٢ أبريل .. لا شئ من الحربى الذى نعرفه . إنه مجرد مبيت فى الطريق .. سألونا أمين تريد الإفراج ؟ . قلت المنصورة .. ربما تفاؤلا بالاسم .. لعل وعسى .. نادوا للترحيل .. كل إلى سبيل .. مع حسين عبد ربه أخذونا .. منها اعتقلنا وإليها نعود ... بعد الظهر وصلنا .. سلمونا للمباحث العامة ... قال حسين عبد ربه .. هنا منطقة "المرقى" رئيس المباحث .. عانى من أسلوبه الذين خرجوا قبلنا .. لا يفلت آخر فرصه فى الإيذاء .. طلبنا مقابلته ... عساكر المباحث ذهلوا .. هل جننتم ... تطلبون مقابلته ... هو يأتى حين يريد ... قلنا لهم إن الأمر يتعلق بقرار رئيس الجمهورية " .. قالوا ولو ... لا نستطيع أن ندعوه ليأتى إليكم ... ولا نعرف أين يكون ..

قلت سنخرج لنعود إليه غدا ... فزع الجنود .. وسدوا فى وجهنا طريق الباب .. طلبنا بوليس النجدة ... أخبرناهم بقرار الرئيس وطالبناهم بالتنفيذ .. قالوا ليست هذه مهمتنا وانصرفوا .

اتصلت بالاستاذ **إبراهيم الشهاوى** فجاءنا على عجل .. ذهب إلى المرقى فى بيته فلم يجده .. ثم السينما حيث كان فأخرجه وجاء به .

كان "**المرقى**" يعرفه .. قال له ماذا تريد ؟ .. **أنت الذى أويت عبدالله الزغبى** حين كان هارباً .. ولو كنا ضبطناه عندك لسجناك .. ولكنه تلقى ردا من **إبراهيم** قال له : أنا لن أتركهم حتى يفرج عنهم .. سأذهب معهم إلى أى مكان تريده .. وسأبيت معهم لأنى أعرفك .. ومن حقهم أن يخرجوا الآن .

احتج المرقى .. وتعلل بعدم وجود موظفين لإتمام إجراءات الافراج ، فطلب إبراهيم أن نبيت فى قسم أول .. ووافق المرقى على مضض ، وعلمنا من كل من جاء إلينا أننا أفلتنا من المرقى بأعجوبة .

فى قسم أول جاءنا الأهل .. معهم طعام ولكنا شغلنا بهم .

فى اليوم التالى بحث الأستاذ رباهيم عن "المرقى" فلم يعثر له على أثر .. حتى اللحظات الأخيرة من يوم العمل .. وأخيرا وجده .. كان غائبا لأنه يريد أن يبقينا إلى آخر لحظة يستطيعها .. وهذا هو النذير بالغد الذى تخرج إليه .

أخيرا أطلق سراحنا وذهبنا كل إلى قريته .. لم تعد .. القرية كما كانت .. الصغار كبرو .. والكبار شاخوا أو ماتوا ، وطرقها أصبحت اكثر ازدحاما .. **حتى أبى وأمى وأخوتى** .. كلهم .. وكل شئ من حولهم ظهرت عليهم اثار الأيام والسنين .. إلا أن الشوق إليهم كما كانوا وكما أصبحوا شوق عظيم .. لا يعرف الشوق إلا من يكابده .. من جب عميق عدنا إلى أحضان مشتاقة ، دافئة .. وحزينه .. والناس من حولنا كثيرون .. بعضهم فى دهشة ... لم يكن يظن أن الغائب سيعود .. وأصدق شئ فى هذه العودة إحساس الأهل والأصدقاء .. به قضيت أسعد الليالى .. فى رحاب المشاعر الصادقة .

آن أوان البحث عن عمل ... وعدت إلى القاهرة .. وكما تغيرت القرية فقد أصاب القاهرة تغيير شديد .. أكثر ازدحاما ، وأكثر تجاهلاً .. وكأنها لا تعرفنى .. لى صديق يملك أرضاً فى الهرم .. يحيطها بسور ويزرعها حتى يحين أوان بيعها أرض بناء .. بجوار باب السور حجرة لحارس غير موجود ... أعطانى مفتاحها كى أقيم على حريتى .. بقليل من الفراش أقمت على أرضها .. وفى الحديقة "طلمبة" مياه جوفيه ، أستخدمها فيما أشاء .

زارنى فى هذه الحجرة كثيرون ممن أعرف .. أراد كثير منهم أن يستضيفونى فأبيت ، وحين ذهبت إلى مكتبة الكرنك .. قابلنى بمرارة صاحبها الأستاذ **فائق الأقصرى** .

كان يفتح لى حسابا للكتب .. وأصبحنا أصدقاء .. سألنى أين أقيم فأجبته وشرحت لماذا أقيم فى أرض الهرم .. حيث لا أحرج أحدا ..ولا أحرج نفسى .. قال لى : عندى شقة أستخدمها مخزنا للكتب .. ولكنها تتيح دورة مياه .. ونور كهرباء .. بعد تردد قبلت ..وكان أبناء عمى يقيمون فى شقة بالسيدة زينب .. أصروا على أن أكون معهم .. كبيرهم الأستاذ **عماد الشهاوى** .. ومعه إخوته .. ومحمد ابن عمى .. أصروا أن أعيش معهم حتى أجد عملا وسكناً أستطيع دفع ايجاره .

ذهبت إلى المدرسة التى كنت أعمل فيها قبل الاعتقال ، رحبت بى مديرتها **الأستاذة زينب البشرى** ، ولكنها طلبت مهلة للاستفسار واستئذان أولى الأمر .. ولكنهم رفضوا .. ذهبت إلى صديقى فى إدارة المعاهد القومية فقال لى سنجد للمشكلة حلا .

وبعد أيام قال : وجدت الحل ... تعمل إداريا فى إدارة المعاهد ، فى قسم شئون الطلبة .. **بأجر فى حدود عشرين جنيها** ... فليكن .. لابد مما ليس منه بد .. أقل القليل يبقى على الحياة ...

بعد شهور قابلنى أحد ممن كانوا فى المعتقل .. قال لى إن لجنة تشغيل المعتقلين تعمل وأنه رأى أسمى عندهم فى مبنى قيادة الثورة .

ذهبت إليهم ... **يرأس هذه المهمة أحد أعضاء مكتب وزير الداخليه** ، مما أعطى للمهمة طابعا أمنيا .. وجاء دورى بعد كثيرين ممن أعرف ومن لا أعرف .. أرى الداخل فتساورنى أسئلة .. ماذا يقال هناك ؟ .. وأرى الخارج فأساله : ماذا حدث ؟ ... ونادونى ...سأعرف إجابة أسئلتى ... وعند جهينة الخبر اليقين .

دعانى للجلوس .. لا بأس ... وجلست ... قال ماذا تريد أن تعمل ؟ .. فكرت فى نفسى .. هل يعطون لكل إنسان ما يريده ؟ .. استبطأ إجابتى فسألنى : ما هو مؤهلك ؟ قلت له **ليسانس من دار العلوم ودبلوم فى التربية من معهد التربية** ، فأنا مؤهل للتدريس .... قال : ولكنكم لا تصلحون للتدريس .. أفكاركم ... وماضيكم؟!

إذن فذلك هو " **الإفراج** " .. لم يصلح عذاب السجن ما بيننا ... معك حق .. سألنى ماذا تريد أن تعمل ؟ قلت له لقد ذكرت ما أستطيعه ، وبقى أن تخبرنى بما تريده قال لدنيا أعمال كثيرة .. كل شئ ..ولك أن تختار .. قلت فى نفسى : كرم مشكور ؟ ... وأردت تسهيل المهمة فقلت أى شئ عدا الجمعيات التعاونية . قال : حسنا ... ما عنوانك .. سنرسل إليك عليه .. فأستأذنت ومضيت .

ولم يطل الانتظار .. جاء خطابهم .. إلى الهيئة العامة للسلع الاستهلاكية .. قرار من **رئيس الوزراء** بالتعيين بمرتب ثلاثين جنيها .. إذا فهي الجمعية التعاونية .. ياه .. أراد أن يعرف ما أكره ليعطيه لى .. ما يحملونه فى صدورهم من الضغينة والحقد كثير .. وماذا فى صدورنا ؟ ... السجن وآلامه .. والتعذيب حتى القتل ، والنفى حتى يخيم النسيان ويضيع الأثر .. هم لا ينسون منا كلمة ..

ونحن كيف ننسى ... كان الأمل فى عمل مستحق وهما وسرابا . نحن إذا فى الوطن مواطنون من الدرجة الثانية ... أصابتنا وصمة المعارضة .. فنفانا أصحاب الوطن .. ثم " أفرجوا " عنا إلى منفى جديد نعامل فيه كما يعامل الأسرى .

تلك هى اشتراكيتهم .. نحل من أجلها الحزب .. ونسعى إليهم .. وهم بنا غير مرحبين . اشتراكية تعادى الاشتراكيين .. وتعد عليهم أنفاسهم .. وتحيطهم بسور غير مرئى يكونون فى إطاره من المنبوذين .. لهم فقط حق السير فى الذيل ، والتهليل للإنجازات ، والوقوف رهن الإشارة ، وتحت طلب القيادة .. القيادة هى الوطن !!!

وقرأت كلمات الدكتور فؤاد مرسى "إن حل الحزب لم يكن لأسباب نظرية ، بل كان لأسباب عملية .. لأنه كان الطريق إلى العودة من جديد إلى حظيرة المجتمع".

ومواقفنا ضد الاستعمار ، والملك .. وشعاراتنا وهتافات "**تحيا ذكرى أحمد عرابى**" فى قصر عابدين .. وشعار تأميم القناة .. ألم يكن ذلك مع ماعانينا ظلما ، وماقاسينا قهرا وتعذيباً يفتح لنا طريق العودة للمجتمع ؟ وماذا تعنى العودة بهذا الأسلوب ؟ أن نعود صاغرين .. أسرى .. مواطنين من الدرجة الثانية أو الأخيرة ؟ .. كان المفروض أن يدعم وجودنا السياسى وجودا اجتماعيا بعيدا عن الشبهات .

لم يكن حل الحزب سوى تنفيذ الرغبات والأوامر .. لم يكن اتفاقا .. أو التقاء فكريا ، إنه من نوع حسن النية ليلة رأس السنة .

وجرت أنوا ع من التمييز الاجتماعى والطبقى فى التعامل مع العائدين الأسرى .

٣- فى مواجهة مالكى الوطن

ذهبت إلى المؤسسة الاستهلاكية ، فأعطونى خطاب التعيين للشركة "**شركة الوادى للمعادن والمصوغات**" قيل إنها شركة تعمل فى مجال تجارة الذهب وتصنيعه.

سلمت الخطاب لمسئول ضخم ، ممتلئ إلى درجة ملفتة .. يتحدث بهدوء وتؤدة .. فقال لى أنتظر .. وتلفت حتى وجدت ما أجلس عليه إلى أن عاد . وقال : عد إلينا أول الشهر .

خطاب المؤسسة حدد موعد التعيين من تاريخ صدور القرار .. فلماذا يجعلونه أول الشهر ؟ ...، لا يجدى التساؤل .. سأعود أول الشهر .

وعدت .. الموظف الفخم الضخم على حاله .. هدوءاً .. وصوتا خفيضا .. بإشارة دلنى على منضدة تشبه ما يستخدم فى المطابخ لتخريط البصل .. وأومأ إلى كرسى فسحبته وجلست .. وجلس أمامى بحيث لا تلمسه المنضدة .. قال : مهمتك تسجيل الإجازات التى يحصل عليها العاملون فى هذا

السجل .. والجزاءات كذلك فى هذا السجل .. وتوضع الإجازات وقرارات الجزاء فى هذه الملفات .. ومضى..

نظرت إلى ما حولى عسى أن أتعرف .. رأيت أناسا ينظرون إلى .. وجهت عينى إلى ملفاتى وسجلاتى وبين الحين والحين أتلفت عسى أن أعرف ... أحضر فى الصباح قبل الموعد دائماً .. أجلس فى نفس الموقع .. وخطر لى أنه بدلا من الجلوس صامتا أن أحضر معى ما أقرؤه .. والباقون من حولى يتهامسون .. وينظرون اختلاساً هم كذلك يريدون أن يتعرفوا .. ثم بدأوا يلقون التحية ، فأبتهج لها وأردها بأحسن منها .. حتى ولو جاءت على عجل ، ومن خلف الظهر .

لا مفر من التعامل معى .. يجئ أصحاب الإجازات ، وأصحاب الجزاءات ، يستفسرون ويستذكرون .. والأيام تسير .. والحزام الصلب من حولى يلين ، والاهتمام الصامت بى ، يقل تدريجياً.

بدأت اعتياد بعض الملامح .. وأعرف بعض ما أجهله .. تلك شركة من شركات تجارة الذهب .. مجموعة محلات كما أقرأ فى الإجازات .. وبعض الورش .. ومصنع كبير ، كل وحدة كان يملكها يهودى .. ترك البلاد أو طرد بعد العدوان الثلاثى .. وبعضهم كان يملك أكثر من وحدة .

وضعت هذه الأملاك تحت الحراسة .. ثم تكونت الشركة حديثا قبل أن أجئ إليها بشهور، والعاملون فيها حرفيون مهرة ... أصبحوا أصحاب وظيفة ، وملف إجازات وجزاءات ودرجات .. رئيس العمال هو نفسه الذى كان رئيسا أيام اليهود .. ويتعامل معهم بالخستين ، الخسة الأولى .. ماورثوه ، من سلطة طول عملهم مع السادة السابقين ، والخسة الثانية إذ هم يعرفون من أسرار العمل مالا يعرفه الرؤساء الجدد .. فهم أصحاب سيطرة وسلطان .

أما الإدارة العليا فهى ضابطان أحدهما المندوب المفوض ، من ضباط الطيران اسمه صادق سمهان من أسرة معروفة فى "ابا الوقف" بشمال الصعيد ، وهو طيب .. سمح الخلق ، يؤدى عمله فى حدود ما يعرفه ، ولكن صدقه مع نفسه جعله يحاول التصرف .. ويسعى إلى أن يعرف .. كان يعمل بأسلوب العمدة فى الأرياف.

ثم جاء ضابط كان يعمل فى إحدى الشركات بالقنال ، ويبدو أنه اختلف وتنافر ، وارتكب أخطاء لا نعرفها .. ولكنه جاء إلى الشركة ، وهو مزود بخبرة المناورة والمداورة واللف والدوارن .. أقل رتبة من المفوض ، ولكنه بالطبع نظرا لصفاته هذه أكثر طموحا وتطلعا .. وهو متدرب فى الأعمال الإدارية ، وفى تصريف ما بين العاملين من أمور . وبين الضابطين كان محام من أبناء الجيزة .. كنت أعرفه أيام كنا فى الجامعة إذ كان يسكن بـ جوارى .. حين رآنى أشاح عنى ونأى جانبا ، كان يتولى المسائل القانونية ، والإدارية ، ومن بعده كان الضخم الفخم الذى سلمنى العمل وأجلسنى على منضدة البصل .

ما كنت أصلح له لم يكن معروضا ولا متاحا .. وما أعطوه كان شر ما عندهم وأنجسه فى سوق ما يباع فيه ويشترى هو شئ آخر غير ما أريد .

رضيت بعمل لا يعطينى رضى أو مسرة وإنما هو "**رتق خير من فتق**" وبعض الشر أهون من بعض .

الضابط الصغير القادم من القنال هو الذى تولى بذر الريبة والشك من حولى وهو مع المحامى والأستاذ الفخم جبهة ضد المفوض .. واكتشفت أن الفخم الضخم يحمل **مؤهل الإعدادية** ، وأنه جاء إلى الشركة من إحدى شركات التأمين إذا كان يعمل هناك بالقطعة .

ولهذا وقعت فى مأزقين .. غربة عن العمل ، وغربة عن العاملين .. فأنا بينها غريب الوجه واليد واللسان .. ولكنى هكذا أرادوا لى أن أعمل بعد أن ابتليت بطول العمر وخرجت من المعتقل .

والآن فلا مناص من خوض التجربة .. وليس ما أتسلح به سوى التحدى فلا عذر إن أنا فرطت فى أمانه اليوم كما فرط آخرون فى أمانة الأمس .

وأصبحت صندوق أسرار الكثيرين .. لأنى صامت .. لا أنتمى لجبهة .. أعمل ما أكلف به .. وأقرأ حتى ينتهى يوم العمل .. وأتصرف فى حدود الإجازات والجزاءات بما أظن أنه الخير للعمال .

من هنا ومن هناك جاءت الأسرار كميات الذهب فى الخزائن .. وأشياء لم يتم جردها سيف ذو مقبض ذهبى فى خزينة **جواهرجى الخاصة الملكية** وكريستال فى الأسقف لم يتم تسلمه من الحراسة .

وتنبهت إلى أنى أستطيع أن أعرف فى المجال أكثر مما تعرف الإدارة نفسها بشئ من الصبر والمتابعة والصمت .

وكان من المهم لأقصى درجة أن أراقب العلاقة بين الضابطين وأشاهد بيقظة تطورها . هذا التطور الذى وصل إلى حد تدبير مؤامرة لرئيس الشركة "الضابط الكبير" ولصديقة رئيس الهيئة ، وأدت هذه المؤامرة إلى القبض عليهما والتحقيق معهما ، وقد تقدمنا للشهادة فى التهمة الباطلة الملفقة ، وقلنا ما نعرف أنه الحقيقة ، وأفرج عن الضابط الكبير وصديقه رئيس الهيئه ، ولكنه أبى يعود للعمل بالشركة مع الضابط المتآمر . وتركها فانفرد الصغير بها .

وعلى نمط المؤامرة ضد رئيس الشركة ورئيس الهيئة نسج الضابط الصغير مؤامراة أخرى جاءنى الدليل عليها حين أحضر أحد العاملين ورقة كربون استخدمت فى كتابة خطاب على الآله الكاتبة موجه إلى المخابرات العامة يتهمنى ومعى آخرون بتكوين خلية شيوعية بهدف ضرب الاستقرار فى الشركة .

وأجتمعنا نحن اللذين جاء اسمنا فى المؤامرة ومنهم الأستاذ **مجدى دميان** ، والأستاذ

حسنى مرجان ، ودخلنا مكتب الضابط الصغير وسألناه عنالخلية الشيوعية ؟

كان يضع تحت زجاج المكتب لوحة كبيرة كتب عليها القرآن كله بخط صغير، وحين سمع السؤال ، ظهر على وجهه الذعر ووضع يديه على المكتب يقسم بالقرآن العظيم أنه لا يعلم عن هذا الأمر شيئا ، فأبرزنا له ورقة الكربون ، فلم يجد ما يقوله.

كنت فى ذلك الوقت أكتب فى مجلة الكاتب التى كان رئيس تحريرها الأستاذ كمال رفعت ويشرف على التحرير الأستاذ أحمد عباس صالح الذى حدثته بموضوع البلاغ للمخابرات ، فطلب منى مستندات انحراف الضابط الصغير وأعطيته إياها ، فقدمها الأستاذ كمال رفعت للجنة تصنيفه الإقطاع التى أصدرت قرارا بفصل الضابط الصغير .

٤- بـــدايـــة ونـــهـــايـــة

أرسل رئيس الهيئة من يدير الشركة بعد فصل الضابط الصغير .. وكان الأستاذ عبد الفتاح منتدبا من شركته لفترة حتى يتم البحث عمن يدير شركتنا .

وكانت الشركة فى حالة انعدام وزن ... قرارلجنة تصفية الإقطاع جاء لطمة لأنصاره ، ومفاجاة لأعدائه .. وشئ من الترقب ، وانتظار المجهول يلف الجميع .

مر الأستاذ عبد الفتاح حامد بالعاملين يستمع إليهم ويقر ما يراه حلا لما يثيرونه ، وكان يسأل الموظفين : ما هو المؤهل ؟ وما هو العمل ؟ وماهى المعوقات ؟ وفوجئ بأن رئيس شئون العاملين هو الضخم الفخم ومؤهله الإعدادية ١٩٥٧ .. وفوجى بأننى أعمل تحت رئاسته ومعى الليسانس ١٩٥١ ودبلوم معهد التربية ١٩٥٢ ، وسأل المحامى المسئول عن الشئون الإدارية .. فأخبره أن وظيفة رئيس شئون العاملين لابد أن تتوفر فيها الثقة .. وقد وضعونى بعيدا عن أسرار العمل كما نصح السابقون الأولون فى قيادة الشركة . وأنسب موقع لى لا أسرار فيه هو الجزاءات والإجازات .

وأصدر الأستاذ عبد الفتاح حامد قراراً أن أكون رئيسا لشئون العاملين .. وأن يجلس فى مكانى الأستاذ الفخم .. ثم جمع موظفى الإدارة وأعلن فيهم قراره .. وقالى عنى إننى قد قمت بدور كبير فى صالح الشركة .. وأننى في هذا الموقع أمين على مصالحهم .

وبهذا اعتدل الميزان .. وذهب الفخم ليجلس على منضدة البصل ، فناديته : يا أستاذ هذا مكتبك .. وأشرت له إلى مكتب يليق .. ورجوته ألا يعتبر فى الأمر شيئا بينه وبينى .. فنحن جميعا نؤمر فنطيع .. أليس كذلك ؟

وبحثت المؤسسة عن خبير فى شئون الذهب والمصوغات وصناعتها ، ووقع اختيارها على احد

العاملين من كبار موظفى الدمغة والموازين .. وهى هيئة رقابة على المشغولات الذهبية ودمغها ... إذا فقد جاء عصر الخبرة محل عصر الثقة .

ولكن هذا الخبير كان أسرع من رأيت من المديرين سعيا لهدفه الخاص والمحدد .. وبرؤيه العين النافذه اكتشف كنزا من التحف الذهبيه والمصوغات من الماس ، لم يتم تقيميها فى كشوف الجرد واستلام العهدة .. وكان أول عمل له تشكيل لجنة تقييم أعضاؤها سيدتان واحدة تعمل فى شئون العاملين ، والأخرى فى الحسابات ، أما هو فكان رئيس اللجنة ومعني هذا أننا سنترك مئات الآلاف قيمة هذه التحف والمشغولات الماسية فى يده ، يقيمها هو .. فلا رأى السيدة فى الحسابات أو شئون العاملين يعتد به هنا .. ثم بعد التقييم يبيعها كما يشاء .

وكتبنا بذلك إلى الهيئة ... فأوقفت هذه المهزلة ، وذلك بأن أرسل ممثلا للهيئة إلى الشركة ، وشاهد بنفسه عملية التقييم التى فاجأها حضوره ، وحرر محضرا بما تم تقييمه وتحفظ على المستندات ، وأصدر توصية بأن أكون مديرا لمصنع المعادن الثمينه .

وبعد أيام من استلام المهنه الجديدة جاءنى أحد العمال وقال إن كمية من تراب الذهب وهو تجميع كناسة المصنع ، وتوجد به نسبة كبيرة من الذهب المتساقط أثناء التصنيع ، هذا التراب مجمع بجوار المصنع وتتم سرقته .. واجتمعنا ثلاثة **الأستاذ مجدى دميان والأستاذ حسنى مرجان** ، وكانا وقتئذ من شباب الخريجين المعينين حديثا بالشركة .

وراقبنا عملية السرقة .. وسار أحدنا خلف عربة "كارو" محملة بالتراب ليعرف أين تذهب ، ثم تمكن من إعادتها .. واتصلنا بالهيئه .. واتخذنا قراراً بتعبئة كل التراب فى أجوله وإرساله إلى لندن لاستخلاص الذهب منه .. وتم استخلاص ١١١ مائه وأحد عشر كيلو جراما من الذهب الخالص من هذا التراب بما تصل قيمته اليوم إلى نحو أربعة ملايين من الجنيهات وتبين أن هذه الكمية لم يرد ذكرها فى أى مستند .. ولا يوجد أحد يعتبر مسئولا عنها .

وبينما نحن مشغولون بقرار التصفية الذى صدر معتمدا على حوادث السرقة نبحث له عن حل كانت لجنة تصفية الإقطاع التى فصلت الضابط قد أنشأت لجنة للتظلمات فأعادته إلى العمل .

عاد الضابط ليجد أنصاره فى الحفظ والصون يعملون مع متعهد التصفية فانضم إليهم أو انضموا إليه.

واتخذ العمل من أجل الشركة مستوى جديدا مجموعة من الشباب ترسل البرقيات إلى المسئولين ومجموعة تجمع الوثائق والبيانات ، ومجموعة تشكل وفدا للاتصال بالمسئولين .

وانتهت جهدونا بصدور قرار بوقف التصفية .

*** *** ***

*** ***

الفصل الثالث عشر

(١) الوجه الحقيقى والقناع

لثورة يوليو انجازات لا شك فيها .. ولها سلبيات أوضح من أن تنكر .. ولغة الحديث عن هذه المقولة تختلف .. فالناصريون يقولون على الرغم من السلبيات فإن إيجابيات **ثورة يوليو** .. الخ وآخرون يقولون .. على الرغم من ايجابياتها فإن السلبيات هى .. الخ .

وهكذا مؤرخو الاستعمار يغضون النظر عن السلبيات ويبحثون فى إيجابيات الحكم الاستعمارى . أما مؤرخو الحركات الوطنية فعلى النقيض .

وقد قرأت مرة لكاتب ناصرى عن فؤاد حداد يقول إنه بالرغم من أن عبد الناصر حبسه وعذبه .. فقد كان **فؤاد** يحبه .. وقلت فى نفسى إن القضية تختلف لو قال الكاتب ! **لقد كان فؤاد حداد يحب عبد الناصر ولكن عبد الناصر حبسه وعذبه .**

لا يوجد فى مصر تقدمى أو يسارى أو وطنى يكره الانجازات القومية أو يعادى الروح الوطنية أو الموقف من الاستعمار والملكية والإقطاع .. ولكن إذا كان أسلوب الحكم وفكره يؤديان إلى إجهاض انجازاته ، وإصابة المجتمع بعاهة مستديمة تعوق تقدمه ، وتفرق بين أبناء الوطن ، فتضرب المخلصين .. وتعجزهم عن المشاركة والمساهمة فى الإنجاز ، وفى الحفاظ عليه وتنميته .. فأين يكون الوجه الحقيقى وأين يكون القناع ؟

سألت نفسى عن ذلك حين أثمرت جهودنا فى الحفاظ على الشركة ، ومخاطبة المسئولين ومناشدتهم وقف التصفية حين أثمر ذلك عن حل كان أكثر من مجرد كارثة .. فبدلا من التصفية أدمجت الشركة فى شركة أخرى .. وأصبحت أكبر من مجرد شركة لبيع الذهب وصناعته .. **أصبحت " الشركة المصرية لتجارة المعادن "** .. ووضعت الحكومة على رأس هذه الشركة مهندسا كان هو الذى يعمل فى الشركة العامة للمعادن ..

رئيس الشركة الجديد كان وهو فى كلية الهندسة من الطلبة الذين اعتنقوا الفكر الاشتراكى .. وقد حوكم وحبس لذلك .. وبدلا من الحديث عن أهل الثقة وأهل الخبرة هاهو مهندس .. واشتراكى سابق جاء ليقضى على سلبيات الماضى .. وبدلا من أن يصلح أمور الذهب .. أصبح يتولى أمور الفضة والنحاس والحديد كخام وكصناعة إلى جوار الذهب .

جاء رئيساً لمجلس إدارة كبير .. عين فيه المصفى عضوا .. وأصبح الضابط العائد بقرارات لجنة الرحمة مديراً عاماً .

كنت أعلم تاريخ رئيس الشركة الجديد وانتماءه السابق .. ولكنى كتمت فى نفسى ما أعلم . حتى يكون الفيصل ليس القرب التاريخى بل الموقف فى العمل .

ويبدو أنه هو الآخر كان يعلم عنى مثلما أعلم عنه .. فبينما أنا فى مناقشة مع موظف اسمه **محمد المحجرى** .. كان من أنصار الضابط الذى أصبح مديراً عاماً .. مر بنا رئيس الشركة الجديد .. وحين أبصرناه سكتنا .. فقال لمن يسير معه : أهذا هو فلان قال له نعم .. قال أرسله لى هو ومن معه .

نادانى باسمى ، وقال لنا : فيم كان حديثكما .. قال **المحجرى** كنا نتحدث عن الماضى ونرجو أن يتم تصحيح الأوضاع على يد سيادتكم .. فقال لنا الرئيس محتدا اذهبوا إلى عملكم .. وبعد قليل جاءنا عضو فى الإدارة القانونية ليسلمنا قرارى جزاء لى **وللمحجرى** بخصم خمسة أيام من الأجر بسبب المناقشة وتعطيل العمل .. وبدأت أتساءل : كيف أفلت زميل السجن من خطة العزل السياسى والوظيفى ؟.

وتوالت قرارات رئيس المجلس الحازمة .. فقلنا لا بأس بشئ من الحسم يعيد الأمور إلى نصابها .. ويعطى لرئيس الشركة وجها يخشاه المتسيبون .. وبعد أيام أصدر قراراً بنقلى إلى " **قسم النقل** " ..

بعد تكوين الشركة الجديدة .. جاءت إلينا نشاطات أخرى يلزمها أسطول نقل **للتوزيع إلى جميع أنحاء مصر** .. وكان لدى الشركة التى أدمجت فى شركتنا أسطول نقل كبير .. ولها سائقون .. وموظفوا حركة .. وصيانة الخ .. هذا شئ لا أعرف عنه شيئاً .. ولكنى قلت فى نفسى وهل كنت تعرف شيئاً عن الذهب ؟ وذهبت لاستلام العمل الجديد . لعل الرئيس رأى أن هذا الموقع يحتاج لجهد خاص؟.

بدأت أتحسس طريقى ، وأسأل رؤساء المجال الجديد عن أسلوب التشغيل ومسئولية كل عامل .. وتبين أنه لا يمكن الوصول إلى حقيقة الأمور فى هذا المجال بالسؤل والجواب .. هذا مجال يحتاج لخبرة أولا وقبل كل شئ .. وانتابنى الضيق لأنى لا أعرف .. وجئت لأقود وأحاسب من يعرف .. وضيق آخر لأنى هنا فى مكان معزول عن الشركة .. وأصبح ما بينى وبين رفاق المسيرة ، وحماة الشركة بعدا لا سبيل إلى وصله ..

وبعد يومين جاءنى قرارات إدارية مغلظة بالنسبة لقسم النقل تحملنى باعتبارى رئيس القسم

مسئولية عدم انجاز ما يجب إنجازه بالنقل .. وحتى عن التأخير فى الطريق .. والأعطال .. والبنزين .. والصيانة الخ ..

وبينما هو يبعدنى ويحرجنى إلى درجة التعجيز أصبح صفيه والقريب منه ذلك الضابط الصغير.

أما المصفى .. الذى أصبح عضواً فى مجلس الإدارة ، فقد ارتفع شأناً واستقر حالاً .. وكونت لجنة لتقييم ما حاول المصفى تقييمه من قبل برئاسة المصفى نفسه ، ولكن تحت عين وبصر رئيس المجلس .

وأدى نجاحى فى هذا العمل إلى إحباط رئيس الشركة ، وضياع خطته فأصدر قراراً غريباً ومفاجئاً لى ولكل الشركة . إذ جعلنى رئيس السعاة .. ظنا منه أننى سأرفض .. وسيجد بذلك الوسيلة لإيقافى عن العمل .. أو فصلى من الشركة طبقاً للائحة .

وسلمت أعمالى فى النقل للمسئول الجديد .. وذهبت آخر اليوم فاستلمت عملى الجديد فى الإدارة ، واخذت بعض العناصر الطيبة التى أعرفهم ويعرفوننى من قبل ، وطلبت منهم التنبيه على جميع السعاة بالحضور إلى الإدارة قبل موعد العمل بساعة ..

(٢) " المدير يلبس القبقاب " :

اشتريت قبقابا ، أخذته معى إلى الشركة فى الصباح .. وجاء كل العمال .. فاشتريت لهم إفطاراً وأفطرت معهم .. ثم قسمنا العمل فى ما بيننا .. وأخذت على عاتقى تنظيف دورة المياه .. ومكتب رئيس مجلس الإدارة .. **واشترينا منظفات و " فنيك "** وما يلزم لنظافة علي أعلى مستوى .. ولبست القبقاب ، وحملت " الجردل " ، وإذا بكل العاملين ينتابهم حماس زائد .. وقال أحد العمال فى النهاية "**بقت أخرخانه يا بيه**" وحين جاء الموظفون وأبصروا ما صارت إليه مكاتبهم وزجاج نوافذهم ذهلوا ... وصرت أتجول بالقبقاب أضرب به الأرض فيحدث صوتا عاليا .. وأدخل المكاتب أؤدى التحية لأصحابها ... **وانحنى قائلا : أى خدمه يا بكوات ؟ ...**

وأصبح ذلك حديث الإدارة كلها .

ويبدو أن مدير الأمن قد أخطر سيده بما حدث . فجاء يعرف .. وحين استقر فى مكتبه أسرعت **إليه .. وإستأذنت فى الدخول .. وانحنيت حين دخلت ... وقلت له أرجو أن يعجب المكتب سعادتك . " أى خدمة يا أفندم" ؟**

فقام من مكتبه يصرخ ككلب يعوى ... **وأخذ يصيح : " اخرج بره .. أخرج بره "** وخرجت وأنا فى قمة الرضا .

ولكنه فاجأنى بما لم يكن فى الحسبان ، فقد جعل لقرار النقل من قسم النقل أسبابا وأخطاء افتعلها ... وقد استدعانى مدير الإدارة القانونية ليسلمنى عدة قرارات جزائيه ... وعدد كبير من أيام الخصم .. ومبررات "النقل" من قسم " النقل " إلى رئيس سعاه ..

وقدم مدير الأمن مذكرة إلى رئيس المجلس يتهمنى بأننى بعد أن استلمت قرارات الجزاء فى الإدارة لقانونية وجهت الإهانه والسباب لجميع العاملين بالشركة .

واستدعيت للتحقيق باتهام "سب جميع العاملين علنا بالشركة ".. وأسفر التحقيق عن إدانة وعدد من قرارات الجزاء وصل بها مجموع الخصم شهر إلى مرتب ثلاثة أشهر .

حاولت من قبل ، وأحاول الآن ألا أعطيه فرصة .. ولكنه يفتعل لنفسه الفرص ويخلق المبررات الكاذبة .. إنها الفتنة يثيرها .. ويحدد الأسباب والنتائج .. ويستخدم أتباعه لتحقيق ما يريد .. وذهل الناس إذا رأوا بعد ذلك كله قراراً بإيقافى عن العمل .

وبقى الفصل النهائى ... نحن الآن على أبوابه ... وهو يخطط لذلك ، سـواء وقـعت فى حبائله أو لم أقع .. بل إن الشهود فى واقعة السب المكذوبة حين شهدوا بما رأوا ... اتهمهم بالتستر ... وأصدر عليهم قرارات جزاء .

وفور إيقافى عن العمل أخذ رئيس الشركة فى تشغيل نقل القطاع الخاص بما يترتب على ذلك من تكاليف ، فوق تكاليف قسم النقل الذى توقف عن العمل .

وأصبح واضحا أن أطماع الرئيس هى التى تصرف الأمور ، وأن العسف هو سبيله لإيقاف أى صوت يحاول حتى أن يعرف ما يدور .. كما أصبح مديرالأمن هو الشخصية الأساسية فى الشركة يعمل لحساب رئيسه ، ويسوى له الأمورمع الذين لا يرضون .

وإذ أناأسير فى ميدان التحرير لا أعرف إلى أين قابلت الصديق الشاعر الفلسطينى زميل السجن " معين بسيسو " .

سألنى عن الأحوال ؟ وماذ أعمل ؟ وإلى أين أنا ذاهب ؟ وأدرك أنى فى حالة لا تريح .. أخذنى من يدى إلى مقهى ريش .. وطلب الشاى ... وأخذ يحايلنى حتى أفرغت له شيئا مما أعانيه .. قال لى لماذا لا تترك العمل فى هذه الشركة ؟

قلت : إلي أين ؟ أنت تعرف الحصار المفروض .. مايزال الركوع هو المطلوب .

ذكرته بقصيدته التى قالها فى الواحات عن الاستنكار المطلوب . والتوقيع الذى كانوا يريدونه

كسبيل للإفراج .. قلت ما يزال الأمر كما هو يحتاج لكلماتك :

وقــــع ... وقــــع

اسمك فى ذيل الورقة ... وقع

وقــــع ... وتسلل

كاللص إلى بيتك واحذر

ظلك أن يقع على مصنع

هذه هى كلماتك يا معين ... ومازلا الأمر كما كان ... يحتاج لنفس الكلمات .. قال لى .. اترك هذا الأمر الآن .. وسأفكر معك .. وواعدنى على لقاء .

بعد أيام اتصل بى .. أخبرنى أنه حدث **الأستاذ يوسف السباعى** عن قصة عملى .. وعن رئيس الشركة وأسلوبه معى .

يوسف السباعى كان رئيسا للمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب .. قال له معين بسيسو لماذا لا تأخذه عندك ... العمل بالمجلس يناسبه .. وينقذه ، وفى حديثهما ذكر السباعى أن إجراءات النقل طويله ومعقدة ... فقال له معين لماذا لا يكون ندبا تمهيدا للنقل . حتى يتم الابتعاد عن الشركة قبل إنتهاء مدة الإيقاف عن العمل ؟

حين طلب منى معين أن أكتب طلبا للنقل إلى المجلس لم أكن أصدق أن ذلك سيكون ، ولكنى كتبته ، أخذه منى " **معين بسيسو** " .

وكتب الأستاذ يوسف إلى رئيس الشركة خطابا يطلب منه ندبى إلى المجلس فرد عليه بأن حالة العمل لا تسمح !!!

قلت لمعين : هل رأيت ؟ إنه يريد الخلاص النهائى منى .. من مجرد وجودى فى الحياة ولكن معين قال : لقد طلبت من **يوسف السباعى** أن يحدث رئيس هذا الرجل .. ولكنه رفض ... قال لن أبحث عن "واسطة" لهذا الكائن الغريب ... سأنهى المسألة بعيدا عنه تماما .

وسلك السباعى طريقاً آخر ، بحيث يكون الندب قراراً بين وزيرى التموين والثقافة الشركة تتبع وزير التموين ومجلس الفنون يتبع وزير الثقافة .

وعلى حين غرة أخذ القرار وصدر وأصبح رئيس الشركة أمام أمر واقع .. وقد أفلت من يده

الأمر ... وأصبح الضحية فى مأمن .

حين جاءت أوراقى من الشركة فوجئت بأن رئيسها أصدر قراراً بتغيير وظيفتى إلى أمين مخزن ، يبدو أنه فعل ذلك أثناء الإيقاف عن العمل .. حتى إنه عدترتب لتلاعب فى العهده ... والفصل ... وربما السجن .

أرسل المجلس خطاب للشركة يستفسر فيه عن بعض الأوراق فكان رد الشركة:

السيد الأستاذ رئيس المجلس الأعلى للفنون والآداب

بعد التحية إشارة إلى خطابكم الذى تطلبون فيه ... الخاصة بحاله ... فلان ... العامل بوظيفة أمين مخزن ... نفيدكم ....

رئيس مجلس الإداره

مهندس

(.....)

رد المجلس على خطاب الشركة

السيد المهندس رئيس مجلس الإدارة

بعد التحية

إشارة إلى خطابك بتاريخ ... بخصوص ..... الخاصة بالسيد الأستاذ .... مدير مشروع المكتبة العربية بالمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب

نفيدكم ....

وتفضلوا ...

رئيس لمجلس

(.....)

كانت طقوس الندب نوعا من المبارزة والتحدى المتبادل ... وقد كانت مجرد صدفه أنى قابلت معين بسيسو فى ميدان التحرير ... وأنه يعرف الأستاذ يوسف السباعى .... وأن يوسف السباعى استجاب وأنجز ما وعد ... ولكن يبقى أن الندب معناه احتمال العودة للشركة ... وبها

المهندس المرتد .... ومنذ اليوم الأول ... كان شاغلى متى سيتم النقل بدل الانتداب ؟

كان العمل بمجلس الآداب مبهجا ... والناس فيه مختلفون ... والعلاقات الإنسانية لها موقع مؤثر ... واللغة ... ومفردات الحديث ... والقضايا المثارة والخبرة ... والقراءة ... والبحث ... والاهتمام بالأحداث الفكرية ... كل ذلك يسعد ويبهج ولكنه كان دائما يدق جرس الإنذار بانتهاء الندب والعودة إلى الشركة حيث المجتمع الآخر ... المر بمذاق الحنظل .

خلال عام ، ونصف من العمل بالمجلس ... لم تتخذ إجراءات النقل ... ولم أطلبها ... الإلحاح فى الطلب إراقه لماء الوجه .

ولكنى كنت على صلة بأمور الشركة .. أتابع أنباءها .. وأسوى أمور المستندات والوثائق ، وأسانيد الانحراف من بعيد .. وعقدت الجمعية العمومية ، ونوقشت الميزانية .. وسارت أنباء وهمسات عن تزوير فى هذه الميزانية .. وكان علينا أن نتحرى .. ما هو هذا التزوير وما مدى صحته .. وتبين على وجه اليقين أن رصيد الذهب الذى بلغ قبل مجيئ المهندس أكثر من "طن" قد تقلص فأصبح ٧٥ كيلو جراما فقط ، وحتى لا تنكشف الفضيحة أضيف **"صفر" مجرد نقطة أمام ٧٥ك لتصبح ٧٥٠ك**، ويكون العجز ما يزال فى نطاق الاحتمال .. وأثرنا الموضوع لدى أجهزة الرقابة والمحاسبات

فألقى المهندس التبعة على رئيس الحسابات فحوسب وترك العمل إلى **السعودية** .

وبقيت مسألة تبديد رصيد الذهب بلا حساب .. كان يجب البحث والإجابة عن سؤال أين الذهب .. ومن بدده بدلا من البحث عن صفر حاضر أو غائب .

وإذا كانت هذه هى الملايين المهدره فى مجال الذهب فماذا فى المجالات الأخرى ، وهى كثيرة .. خصوصاً وقد بدأت فضيحة أخرى فى مجال النحاس ، يجب أن نجمع أطرافها .. تحدونا مصلحة الشركة ... والحفاظ على المال العام ... يدفعنا ما يشبه روح الأخذ بالثأر ... واللعنات التى يطلقها المظلومون على المهندس الجبار .. الضعيف الجبان .. الذى باع بأبخس الأثمان .

كانت مدة انتهاء الندب على الأبواب حين أعلن خبر غريب ... **لقد أصبح الدكتور فؤاد مرسى وزيرا للتموين** وبهذه الصفة أصبح ولى أمر كل شركات الوزارة .

لم يكن يخطر على البال مثل هذا الخبر .. إنه يتناقض مع جو العزلة والابعاد والعداء الذى نعانيه ... ربما كان نذيرا بأمر جديد يأتى مع رياح غير مسمومة !!!.

أمر يشيع الاطمئنان للسائرين فى الدرب الضيق المشحون بالهموم ، المزدحم بالأوجاع ...
حسناً ... يجب ألا نزعج الدكتور بالضجيج .

أخذت أسوي الأوراق ، وأجمع المستندات والوثائق وألم أطراف الانحرافات ، ففضلا عن الرغبة فى الانتقام أصبح الأمر يخص الدكتور فؤاد ... وله علينا حق أن نكون معه من الصادقين .. ولكن المواجهه ستكون مع رئيس الشركة على مستوى آخر حيث تعذر نقلى إلى المجلس وعزمت على العودة إلى الشركة لأنتظر ما يأتى به المجهول .

بعد فترة من ترك مجلس الفنون أثيرت فى مجلس الشعب قضية النحاس ... وهى قضية فاحت رائحتها من زمن حتى زكمت الأنوف .. ويد شركتنا ورئيسها فى هذه القضية مغروسة حتى الكتف .. ولدينا فيها مستندات .

كون المجلس لجنة استماع برئاسه الدكتور محمود القاضى ، وأثناء عمل اللجنة قدمنا للدكتور فؤاد وثائق التعامل الخاطئ فى النحاس باسم الشركة .. ولكن الوزير أشار إلى أن المستندات يجب أن تقدم إلى جهات الاختصاص ... وحين أعاد الأستاذ **داود عزيز** إلينا المستندات قلت له : إذاً فما يقال عن أن رئيس الشركة يكتب تقارير أمنية عن اتصالات الوزير بالمعتقلين السابقين العاملين فى وزارته صحيح ، ولكنه نفى معرفته بذلك .. واحتفظنا بمستنداتنا .

كنا فى الشركة ثلاثة من المعتقلين السابقين الذين عينوا فى هذه الشركة .. هرب واحد من جحيمها وبقى اثنان .. **الشاعر محمود شندى** وأنا

ركز رئيس الشركة فى البداية على حتى ظن أنى مغادر لا محاله ... ولكن فترة الانتداب ثم تعيين وزير جديد خففا عنى الضغوط .

وكنوع من إثبات الوجود رأى رئيس الشركة أن يمارس مهماته على نحو ما كمبرر لوجوده ، بالنسبة لمن يعمل معهم ، فأخذ قراراً بنقل شندى إلى أسوان .. واتصل شندى بالوزير الذى استنكر قرار النقل ووعده بإلغائه وطلب منه تأجيل التنفيذ حتى يتصرف ، ولم ينفذ شندى بالفعل .. ومرت خمسة عشر يوماً اعتبرها رئيس الشركة غيابا بدون إذن أو عذر مقبول فأصدر قراراً بفصله طبقا للائحة .. واتصل شندى بالوزير وأخبره بقرار الفصل .. ولكن الأيام تمضى دون حل للمشكلة.

دعوت **شندى والفنان محمد حمام** إلى منزلى ، وكتبنا قائمة بأسماء كل أبناء النوبة وأسوان الذين كانوا فى المعتقلات .. وهم عدد كبير .. واخذنا نتحدث باسمهم .

هكذا : أنا " فلان " .. شندى نفذ ما طلبه الوزير ففصل .. ماذا تفعل .

تحدثنا باسم النوبيين واحدا واحدا .. مرة فى بيت **الدكتور فؤاد** .. ومرة فى بيت الدكتور **اسماعيل صبرى** .

وكان أن أصدر الوزير قراراً بإلغاء الفصل .. وقرار النقل .. وعودة **شندى** إلى عمله .. وفعلا عاد .. واهتزت أعصاب الديناصور الهائج . وأغلق على نفسه الأبواب .. ولم يجد أحدا من أعوانه يشد أزره ، أو يتحمل هياجه سوى مدير أمنه ، وسرت فى الشركة همهمة .. **شندى عاد .. شندى عاد ..**

ولم يكن صعبا أن نقول ونعيد .. وأن يأتى العاملون إلى خلسة يسألون ماذا حدث وهم يعرفون..

فى ليلة لا أنساها .. بعد عودة **شندى** بأيام جاءنى مدير الأمن فى منزلى .. رحبت به .. واستقبلته استقبالاً حسناً .. وظللت صامتاً فى أمور الشركة .. أبحث عن غير أمورها أتحدث فيه .. وهو يلف ويدور .. تائه يبحث عن مدخل .. وأخيراً أفصح عن سبب مجيئه .. يريد منى التدخل بين الوزير ورئيس المجلس .. وأنا منذ جاء الوزير لم أسأله فى أمور الشركة سؤالاً .. ولم ألجأ إليه فى أمر .. قال مدير الأمن .. هذا شئ يخدم الصالح العام .. ويعيد الاستقرار إلى الشركة .. قلت له الشركة مستقرة والحمد لله .. وماطلت فى الرد على طلبه حتى أتبين من داخلى ماذا يجب أن أفعل ؟.. وأخيراً قلت له .. ولكنى غير مؤهل للقيام بهذا الدور ، وكما تعلم فإنى أمورى مع رئيس الشركة فى غاية السوء .. وأخشى أن يظن الوزير أننى أبحث لنفسى عن حل لمشاكلى .. أراد أن يحسم الأمر فقال : مشاكلك يمكن حلها .. قلت له : هو ثمن إذاً ؟ .. هذه الأمور لا يباع فيها ولا يشترى .. وخير لكم أن تبحثوا عن غيرى يقوم بهذه المهمة .. وسكت .. وبعد قليل .. لماذا لا تذهب أنت للوزير تعرض عليه الصلح ؟ .. قال مذعوراً : أنا .. لا يمكن .. فقلت : سأصارحك .. لو أننى ذهبت إلى الوزير فى شئ كهذا لغضب وقال : لماذا لم تخبرنى بما يحدث فى حينه .. وأنا لم أتعود التعامل بطريقة كهذه .

أعاد قوله : يمكن لمشاكلك أن تجد حلا . قلت : كيف ؟ ويبدو أنه لم يناقش المسألة جيدا مع رئيسه ، فتقدم بحلول لا يمكن قبولها .. فقال : قل لى أنت .

قلت .. مثل هذه المشاكل يجب أن تحل قبل أن أذهب للوزير .. قال كيف ؟ قلت :

أولاً : يعاد التحقيق فى كل ما نسب إلى منذ جاء مجلس الإدارة هذا .

ثانياً : تشكل لجنة التحقيق من نفس الأسماء التى حققت معى من قبل .

ثالثاً : تنتهى التحقيقات باعتبار ما نسب إلى كأن لم يكن .. ويرد لى ما خصم منى .

كان لا يجوز أن أفلت هذه الفرصة .. وقد وافق تقريباً على كل شئ .. ولكن سيدة يمكن أن يرفض .. أو يعيد النظر فى الموضوع برمته .

وفكرت فى حيلة تقرب البعيد وتحقق المراد .

كانت مديرة مكتب الوزير تعرفنى جيداً .. وتدهش لأنى لا أطلب تدخل الوزير لوقف ما ينزل بى من ظلم .. كنت أقول لها لا أريد أن أكون عبئاً عليه .. ولم أقل لها إن رئيس الشركة يكتب عن الوزير تقارير يقرؤها وزير الداخلية فى مجلس الوزراء أثناء الاجتماع .. ربما كان هذا غير صحيح فأكون مخطئاً .. أو بفرض صحته فإن صورة الوزير فى نظر مديرة مكتبه شئ يستحق الاعتبار ولقد اخبرت أحاسيس هذه السيدة الصادقة والأمينة منذ كانت مع **الدكتور فؤاد** فى شركة السيارات .

ذهبت إليها صبيحة لقائى مع مدير أمن رئيس الشركة .. قلت لها عن موضوع الوساطة ورجوتها ألا تخبر الوزير بأمرها حتى أنتهى من مشاكلى .. وافقت .. قلت ولكن لى طلباً خاصاً عندك .. فرحبت مبدية استعدادها .. طلبت منها فى موعد معين أن تطلبنى بالتليفون على مكتب رئيس الشركة .. وحين يرد عليها تقول له إن الوزير يريد أن يحدثنى .. ولا تترك السماعة حتى أحضر ..

وأثناء موعد المكالمة اختفيت .. وأخيراً ظهرت ووجدونى بعد طول بحث .. وببطء شديد اتجهت إلى المكتب حيث يجلس رئيسنا .. وحين رآنى سلم بحماس .. وأشار إلى التليفون . فقلت لها .. قولى له إننى الآن فى العمل ، ولا أستطيع الحديث .. لا أستطيع الآن .. سأحدثه فى المساء .. وشكرتها وأنهيت المسرحية .

فى المساء جاءنى مدير الأمن .. وأكد لى موافقة رئيسه على كل ما أطلب .. ورجانى لكى يعاد فتح التحقيق أن أكتب طلبا بذلك .. وأن أقول فى الطلب : إن لدى معلومات جديدة في شأن هذه التحقيقات أريد الإدلاء بها .. ووافقت .

وفى اليوم التالى .. قدمت المذكرة .. وصدر قرار بإعادة التحقيق ، وبتشكيل لجنته .

واستدعونى . فطلبت الاطلاع على التحقيقات السابقة .

وأخذت أرد على أسئلتهم بنفس الإجابات فى تحقيقاتهم القديمة .. ولم أقدم أى معلومات جديدة .. ولكن التحقيق انتهى برفع كل العقوبات وكل الجزاءات ، وصدر قرار بذلك كله من المدير الإدارى .

ووزع القرار فعلا فى الشركة .. ولكنى ذهبت إلى مدير الأمن .. وقلت له ليس هذا اتفاقنا .. إن الجزاءات الموقعة على كانت بقرارات من رئيس الشركة وقرارات رئيس الشركة لا تلغى بقرار من المدير

الإدارى . لا يلغيها إلا قرار من الرئيس نفسه .. وحاول أن يجد مخرجا فلم يجد .. كان عليه أن يسحب القرارات التى أصدرت ووزعت فعلا ، وأن يعيد إصدارها من جديد بتوقيع رئيس الشركة .

ومثلما حدث حين عاد شندى أصبح الحديث عن القرار الذى سحب وأعيد من جديد باسم الرئيس .

وجاءنى مدير الأمن ليعلن النهاية السعيدة ، ويقول لى ! مبروك ..

قلت له : بقى شئ فى الاتفاق لم ينفذ .

قـال : ما هو ؟

أخرجت من جيبى قرارات الترقيه التى أصدرها رئيس المجلس ، وفيها أننى ممنوع من الترقية بسبب القرارات الجزائية الموقفة على ، وإذاً فعدم الترقية جزاء يجب أن يرفع ، وفعلا صدر قرار الترقية بأثر رجعى ، وصرفت مستحقاتى .

كان الوزير فى الاسكندرية ، قلت لمدير الأمن حينما يعود الوزير سنتدخل للمصالحة .. وبعد أيام، وقبل هذه العودة المنتظرة عقد الوزير مؤتمراً صحفياً أعلن فيه إعادة تشكيل قيادات شركات وزارة التموين ، وخرج المرتد إلى غير رجعة ، دون تدخل منى .. أو مصالحة .

(٣) إدارة جـــديـــدة

عين رئيساً للشركة إنسان طيب عف اللسان كان رئيساً للهيئة ، وأعطانى عملا جديداً .. مديراً لمنطقة قبلى .

ذهبت للمرور على فروع المنطقة ، فوجدت مهازل ومخالفات تصل إلى حد المأساة .

انتحى بى أحد العاملين جانبا .. وأخبرنى أن الفرع كان يستعير من الشركات الأخرى فى القطاع العام بعض البضائع ليجرى الجرد عليها ثم يعيدها وهذا نوع من التعاون المتبادل بين اللصوص هنا وهناك .

وخلال شهور قليلة أمضاها معنا رئيس الهيئة السابق اكتشفنا بؤرة من بقايا العهد السابق ذلك أن ضابطا يحكى أنه كان بالجيش أحيل إلى الاستيداع .. وهو على صغر سنه إلا أنه كان واسع الحيلة كثير الولع بالكسب الحرام .. وكان القصدير من السلع التموينية النادرة فكانت الشركة تتولى توزيعه حصصا وبالبطاقة .. وكان على رأس جهاز التوزيع بالشركة هذا الضابط .. وللجيش كانت حصص فى هذا التصدير .. يأتينا منه ضابط ليحصل على حاجة الجيش . ويوما كان موظفنا الضابط فى إجازه .. وجاء مندوب الجيش ، فجلست معه أحدثه ويحدثنى ، وطال حديثنا حتى أخبرنى بأن

مسئول التوزيع عندنا كان بالجيش يتولى أمر التصدير .. وأنه تصرف فى حصة الجيش على هواه .. وربح من ذلك الكثير ، وأن أمره انكشف فحول إلى المحاكمة العسكرية ، وفصل .. وانتهى حديث المندوب وذهب .

(٤) حكاية مصنع ماسبيرو

صدر قرار وزارى بإغلاق المصانع والورش حول مبنى التليفزيون فى ماسبيرو، حيث كان للشركة مصنع كبير ، ومبنى إدارى ، وموقع لفرع وتزيد تلك المساحة عن ثلاثة آلاف متر ، وتلك المساحة التى كانت مستأجرة من صاحبى الأرض .

أما أحدهما فكان **الأستاذ** (س . ح) **المحامى** .

أراد **الأستاذ** (س . ح) أن يستعجل إخلاء الموقع بطريقتين :

أولهما : استخدام أسلوب عدم دفع الإيجار لمدة معينة يتم بعدها الطرد القضائى .

ومثل هذا الأسلوب يستخدم بالتعاون بين المالك وجهات إصدار الشيكات حتى يتأخر الدفع مدة معينة وبطريقة معينة .

ثانيهما : استعجال تنفيذ القرار الوزارى بإخلاء الموقع .

وهو قد استخدم الطريقتين أيهما أسرع ، وحيث أن الشركة قد بدأت فى إخلاء المصنع فعلاً إلا أن هناك موقعين لفرعين لا ينطبق عليها القرار الوزارى ، وإن كان التلاعب في موضوع الإيجار وسداده سارى المفعول .

كما أن الأستاذ (س .ح) تقدم بطلب إلى رئيس الشركة يطلب فيه إعطاءه موقعا حدده ليمارس منه مصالحه إلى حين انهاء التسليم .

المشكلة أن الموقع الذى طلبه الأستاذ (س . ح) لا يقع ضمن حقه فى الأرض بل إنه جزء من أملاك المؤجر الآخر .. ومعنى وضع أحد المالكين يده على جزء من نصيب الآخر أنه يعطيه أفضلية فى المساومة على مشاركة فى استغلال كافة الأرض .

وقد جاءنى الأستاذ (س . ح) بمكتبى ومعه موافقة رئيس المجلس على طلبه، وباعتبارى مديراً للفروع طلب منى اتخاذ إجراءات التسليم .

هل كانت اللامبالاة خلف الموافقة على هذا الطلب ؟ لست أدرى .. ولكنى طلبت من **الأستاذ (س . ح)** أن يعطينى الموافقة لأحرر بها محضراً للتسليم . فأعطانى أياها .. واحتجزتها لدى .. وأوقفت التسليم ، وكتبت إلى **الأستاذ محمد عبد المجيد** رئيس الإدارة القانونية أطلب منه :

أولاً : مطالبة أصحاب الأرض بتحديد إطار ملكية كل منهما بخرائط معتمدة من المحافظة .

ثانياً : إخطار المالكين بأن القرار الوزارى لا ينطبق على مواقع الفروع .

ثالثاً : استعداد الشركة للتسليم فور إحضار الخرائط الخاصة بحدود الملكية .

وألح **الأستاذ (س . ح)** فى طلب موافقة رئيس الشركة على تسليمه المواقع التى حددها لإدارة أعماله منها .. ورفضت .

وذات صباح يوم جمعة فوجئت **بالأستاذ (س . ح)** يأتى إلى فى منزلى ومعه **الأستاذ ابراهيم الشهاوى** ، وكلاهما من المحامين .

طلب الأستاذ (س . ح) الموافقة المنشودة ، وأصررت على الرفض ، فقال كلاما فهمت منه أن لكل شئ ثمناً ، والمشروع الذى يريد بناء على الأرض يستحق البذل والعطاء ، فأنهيت المناقشة معتذراً للأستاذ ابراهيم ، وقلت له : ألمثل هذا تسعى؟ قال لصديقه ألم أقل لك ؟ .. وانصرف .

(٥) أزمة الوفد الاسرائيلى

عاتبنى رئيس المجلس لأنى أخفيت عليه خطواتى بشأن الترشيح وما كاد يقول لى مبروك .. حتى أتبعها بطلب غريب ، وهو أن أرافق وفدا إسرائيلياً جاء ليرى بعض المواقع التى كان يملكها اليهود من قبل ، ولمح إلى أنهم يريدون مشاركة فى أعمال الذهب .

أظنه كان يعلم أنى سأرفض ذلك ، ولهذا فقد شرح الموقف على أنه إرادة عليا لا سبيل لرفضها ، فقلت له إننا سنطلى وجوهنا بالقطران إذا وافقنا على ذلك. وأن سمعته كرئيس للشركة شيصيبها ما لا يمحى ، وسيكون ذلك تشويشا على سمعته ، وأننى من أجله ، ودفاعاً عنه سأتصدى لهذا الأمر ، وسأحمل مسئولية التصدى ، وسأرفض أن يضع اسرائيلى رجله فى أى موقع بالشركة ، وعلى وحدى تقع العواقب .

واجتمعت برؤساء الفروع ، وبآخرين فى مواقع أخرى بالشركة وأخبرتهم عن الشر الذى يدبر لنا وللوطن ، وأن هناك اتجاها لإعادة أملاك اليهود إليهم ، وأنهم حينئذ سيعاملون بالامتهان والتعالى

من الملاك الجدد أعداء الوطن ، وأن مجهودهم فى إيقاف الشركة على قدميها سيذهب أدراج الرياح ، بل إن مجهوداتهم ستقدم هدية للأجنبى المعتدى ، وأننى سأتصدى لذلك وسأتحمل وحدى مسئولية إفشال هذه الزيارة .

كان موقف رؤساء الفروع وزملائهم فى الشركة . والعاملين بالفروع الذين وصلتهم الأنباء حماسياً وقوياً ، وذهبوا إلى رئيس الشركة ليعلنوا موقفهم ، سيغلقون الفروع فى وجه الزائرين .

أسقط فى يد رئيس الشركة ، وأخبر المسئولين بحالة الهياج بين العاملين ، فألغيت الزيارة .

(٦) إدارة بالجهود الذاتية

أصيب رئيس الشركة بالمرض فجأة مما أقعده عن العمل ، وخوفا من أن يأتى رئيس جديد لا يعرفنا ولا نعرفه ، ولا يعرف شيئاً عن الشركة فقد اجتمع مجلس الإدارة برئاسة المدير الإدارى ومعه بعض مديرى العموم ، وتقرر تشكيل لجنة قيادية تمثل مراكز العمل المختلفة كجهاز جماعى للإدارة يصدر رئيس المجلس بالنيابة قراراته التى يتخذها لصالح العمل .

وكانت أهم القرارات التى اتخذتها اللجنة القيادية هو العمل على تنمية المبيعات بجهود العاملين بالفروع وبإدارة مبيعات الجملة وذلك بالحصول على طلبات الشراء من العملاء ، ثم تجهيز البضاعة وإرسالها للعميل ، وبذلك نتفادى الفوائد البنكية ، ونسهل العمل وسميت هذه الطريقة باسم (العمليات الخاصة) التى يتم فيها بيع البضاعة قبل شرائها .

وكذلك بحثنا عن مصادر جديدة لتزويد الشركة بالبضاعة مثل مصادرات الجمارك فى **الاسكندرية وبورسعيد** .. وقد حصلنا على صفقة حديد التسليح المصادر ، ويبلغ ثمنها حوالى مليون ونصف مليون جنيه .

وانتعشت الشركة بهذا الاسلوب الذى استمر لمدة ثمانية أشهر ، وظهر الفارق واضحا بين هذه الفترة والسنة المالية المنتهية **فى يونيه سنة ١٩٨٣** .

وخلال فترة عمل اللجنة القيادية **فى ديسمبر سنة ١٩٨٣** نوقشت ميزانية السنة المالية المنتهية قبل بداية عمل اللجنة ، وكانت تعطى مؤشرات عن خسائر تزيد عن مليونى جنيه .

وحولت هذه الميزانية إلى لجنة تقصى الحقائق لمعرفة أسباب الخسارة ووسائل تلافيها .

وأسندت رئاسة لجنة تقصى الحقائق إلى رئيس شركة أخرى مقرب من الوزير.

وفى ابريل من عام ١٩٨٤ عين رئيس لجنة تقصى الحقائق مفوضاً على شركتنا إلى جوار رئاسته لمجلس شركته الأصلية .

(٧) حاميها حراميها

كان المفوض عضوا فى إحدى البعثات التعليمية باوربا ، وبدلا من الدراسة والبحث أجهد عينيه فى متابعة زملائه ، يرصد حركتهم ، ويسجل سكناتهم ، ويرسل بما يرصد ويسجل إلى الذين يريدون معرفة كل شئ عن كل إنسان .. وطال به الزمن فى ذلك حتى انتهت أيام بعثته فعاد دون أن يحقق شيئاً مما بعث له .. وكان فى مهمته الأمنية فى أوربا يمارس شيئاً من الرطان اليسارى يلوكه وقت الحاجة ، وبرطانه هذا دسوه على الدكتور فؤاد مرسى فى البنك الذى كان يعمل به ، وحين انتقل الدكتور إلى وزارة التموين أخذه إلى " **شركة شاهر** " ثم انتقل إلى شركة الكيماويات .. ثم إلى **شركة سيجال** مع الكيماويات .. وكان كلما انتقل من مكان إلى آخر اعتلى فى سلم الوظائف درجة أو درجات حتى جاء إلينا ليدير شركتين معا ..

فى أول اجتماع له بمسئولى الشركة ، حاولنا أن نعرف خطته فى العمل .. وأهداف إرساله إلينا .. ولكنه بادرنا باستفزاز متوتر ، وبالتعالى والغطرسة ، وبألفاظ نابية .. ولم يتضح من خطته إلا أنه ينوى أن يمسك كل شئ بيديه ، ويبيع الراكد بالمزاد وكان قد تم بيع جزء كبير منه ، وبقيت كميات " سلك الواير " التى لم يصل فيها المزاد إلى الحد الأدنى فى السعر المطلوب فقررنا بيعها بالممارسة . وكانت خطة تطوير صناعة الذهب تقتضى شراء ماكينة جديدة من إيطاليا أرسلت الشركة المدير الفنى وأحد المهندسين لشرائها والتدريب على تشغيلها .. وأعددنا لها مكاناً فى **شارع عبد الخالق ثروت** ، وتم تشغيلها " **بروفه** " وأصبحت على أبواب الإنتاج وأشياء أخرى كثيرة كنا نحلم بدور لها فى تطوير الشركة .

ولما كان المفوض لا يريد الإفصاح عن خططه وأفكاره . فقد بحثنا عن تقرير لجنة تقصى الحقائق التى كان يرأسها والذى قدمه للوزير ، وبمقتضاه عين على شركتنا . وقد طلبنا منه التقرير فأبى .

ونشر المفوض حديثا فى **الجمهورية** فى صفحة كاملة أعطى فيها ملخص التقرير البائس الذى أهمل الفساد وشوه الحقيقة ، وتحدث عن الشركة كلها باعتبارها مجمعا لعصابات ومافيا نهب

وتخريب .. وأنه مبعوث العناية الإلهية بقرار من الوزير لمواجهة الانحراف . وأعلن بطولاته العنترية وأنه خلال أيام سدد مليون جنيه من مديونية الشركة ، حقيقة أمرها أنها ثمن حديد التسليح الذى كان بالبنك ينتظر إجراءات صرفه للجمارك . كتبت ردا على المفوض إلى جريدة الجمهورية فاختصرت ردى فى سطور .

وفوجئ العاملون بأن المفوض عرض للبيع " **ماكينة الذهب** " التى جاء من إيطاليا للتو على أنها خردة ، وباع معها الموقع .. ووقعت فى يدنا المستندات .

ثم قرر إلغاء نشاط المعادن الثمينة فكتبنا فى الصحف وللمسئولين ، وكانت " **الأهالى** " أول جريدة تحذر وتعلن أن هذه الأعمال هى أعمال تصفية للشركة ، وللقطاع العام فى مجال الذهب ، وله دوره فى تحديد السعر ، والتحكيم فى الخصومات بدلا من ترك ذلك كله ، وترك ادخارات الشعب فى يد القطاع الخاص وعلى هواه . ونشر المفوض حديثا فى الأهرام كتبت ردا عليه ، وذهبت إلى الأهرام به بعد أن تأكدت من أنه سينشر .. وقد كان .

وكتب المفوض ردا على الأهالى وحصل من اللجنة النقابية على توقيعاتهم وإقرارهم للبيان . وكانت هذه اللفته اليسارية التى تعلمها فى أوربا ، وتسلل بها إلى **الدكتور فؤاد مرسى** .. ولكن **محمود شندى** فى النقابة رفض التوقيع وفضح الوصوليين . وكتبت ردا على النقابة ، فكتب المفوض ردا على الرد **فى جريدة مايو** .. وكتبت ردا إلى مايو ونشر كاملاً بعد أن شرحت الموقف **للأستاذ صبرى أبو المجد رئيس التحرير** الذى أراد تخفيف لهجة الرد ولكنى رفضت ونشر كما هو .

وبينما الحرب تدور على صفحات الصحف ذهبت بالمستندات التى تجمعت لدينا إلى الوزير ناجى شتله . ولكنه رفض مقابلتى ، وأعطانى مدير مكتبه ورقة بعنوان " **متظلم بالباب** " لأنتظر حتى يسمح الوزير بالمثول لديه .

وذهبت بالورقة الوزارية متظلم بالباب **إلى الصديق عبد الستار الطويلة فى مجلة صباح الخير** فنشر موضوعا طويلا فى صفحتين بعنوان " **متظلم بباب وزير التموين** " انتقد فيه موقف الوزير ، وقال إنه يجب أن يسمع أقوالى ويرى ما معى من مستندات .. ولكن الوزير بدلا من أن يسمع أو يرى أصدر قراراً بنقلى إلى الهيئة . فكتبت خطابا مفتوحا للوزير نشرته جريدة الأهالى .

وصورت الخطاب المفتوح إلى الوزير ، وأخذت أوزع منه فى كل المواقع حتى مكتب الوزير ، وسلمت نسخة للمفوض .. ووزعت نسخاً على العاملين بالشركة .

واشتدت المعركة الإعلامية .. هو يكتب أولاً وأنا أرد .. إلا فى **صباح الخير** حيث بدأت بمقال **الأستاذ عبد الستار الطويله** متظلم بباب وزير التموين .. وكذلك الأمر فى الأهالى حيث كان الأستاذ **مصباح قطب** يمسك بالمبادرة دائماً .

وفوجئت بمقابلة مع المفوض فى روز اليوسف قام بها الصحفى **عصام عبد العزيز** ، دافع فيها المفوض عن عمليات البيع لأصول الشركة وفروعها ، وطالب العاملين بالطاعة العمياء ، ودافع عن الرشاوى التى يقدمها لبعض المحيطين به مثل تذاكر الطيران إلى ألمانيا لمن حل بعدى فى إدارة الفروع .

ولكن مقالات **الأستاذ منير عامر** فى روز اليوسف قطعت على المفوض كل الطرق **ففى ٢٧** أغسطس ١٩٨٤ نشر مقالات بعنوان " **جمهورية عبد التواب قطاع عام** " .. وكان هذا العنوان هو موضوع الغلاف .. ثم بعد ذلك نشر موضوع غلاف أيضاً بعنوان " عبد التواب يعترف : أنا فعلاً رئيس جمهورية .

(٨) سـلاح التحـويـل للنـيـابة الإداريــة .

بدأ المفوض باستخدام سلاح الإحالة للنيابة الإدارية كوسيلة للضغط واستنفاذ الجهد ، وصرف الأنظار عن الحملة الصحفية التى بدأها ولكن نتائجها كانت خسارة فادحة له .

وكانت أول مخالفة يحولها للنيابة الإدارية هى تهمة استخدام امكانيات الشركة للأغراض الشخصية ، حيث كنت كتبت إليه مذكرة للرد على ما نشره فى **روز اليوسف** وهجومه على العاملين مما جعل المجلة تنشر داخل التحقيق كاريكاتيرا يصور أمين العهدة يقف أمام خزانة مفتوحة وهو يأخذ محتوياتها ويضعها فى جيبه وتحت الصورة .

(أمين العهدة : ذهب .. ياقوت .. حكمتك يا رب) .

وأردت الحصول على صورة الرد الذى قدمته للمفوض ، فصوره لى أحد العاملين . واعتبر ذلك التصوير مخالفة تستحق الإحالة للنيابة الإدارية .

وكانت الإحالة هذه مبررا لإبعادى عن إدارة الفروع ، ثم إبعادى عن الشركة إلى الهيئة ، حيث واصل المفوض ضدى وأنا بالهيئة تحويلات للنيابة الإدارية فى أكثر من مخالفة مزعومة .

(٩) فى الهيئة وسائل لكشف المفوض

كان وجودى فى الهيئة عاملا من عوامل إثارة قضايا الشركة من خلال الحديث فى قضيتى مع المفوض ، ثم وضعت أحوال الشركة فى جدول أعمال الهيئة وقد عرضت على رئيس الهيئة أنواع القضايا التى حولنى المفوض بشأنها إلى النيابة الإدارية مثل قضية تصوير مذكرة قدمتها إليه ، ومثل قضية العمليات الخاصة التى ادعى انها مخالفات للائحة ، وحملنى المسئولية رغم أنها كانت بناء على قرار إجماعى من لجنة الإدارة ، والأدهى من هذا كله أنه عين رئيساً للجنة تقصى الحقائق بشأن ميزانية الشركة ، ولكنه حمل كل المسئولية عن خسارة الشركة للفترة التى تولت فيها اللجنة القيادية العمل بعد مرض رئيس الشركة ، وفى فترة لاحقة للميزانية موضوع قرار الوزير بشأن تشكيل لجنة تقصى الحقائق ، وقدمت فى ذلك كله المذكرات والمستندات الدامغة كما قدمت للهيئة وقائع انحراف المفوض بالأدلة التى لا تقبل الجدل . لم تكن الهيئة طرفا فى الخصومة ، ولا هى جهة فض منازعات، ولكنها بيت خبرة لكل الشركات التى تتبعها ، وهى هيئة دراسة واستشارة ومتابعة ورقابة ، وهى مسئولة مع الوزير عن سير العمل بالشركات .

وقد كانت دراسات الهيئة ومتابعتها للعمل مؤدية إلى موقف متكامل ضد المفوض وأسلوب عمله وتصرفاته .

(١٠) المتظلم بباب الوزير

اعتقدت أن موقف الهيئة سيكون عاملا مساعدا لكى يكشف الوزير أمر الشركة على حقيقة بعين غير عين المفوض فأعدت للوزير طلب مقابلة ووضع المستندات أمام عينيه ، ولكنه رفض مقابلتى فلجأت للمسئولين معه فى الوزارة لإقناعه باللقاء دون جدوى ، حاول **الدكتور محمود شريف** فووجه برفض قاطع من وزير التموين ، ولجأت للأستاذ **الدكتور أحمد هيكل وزير الثقافة** وزميل الدراسة فى دار العلوم فمارس مزيداً من الضغط وطول البال ، والدبلوماسية حتى نجح فى مسعاه ، ووافق الوزير أخيراً على أن يلقاه متظلم ببابه ، ولأن الدكتور هيكل خبير بالإنسان كأديب وشاعر ، فقد قال لى سأعطيك رسالة إلى الوزير عسى أن يقرأها قبل أن تتحدثا فيهدأ ويستمع .

ومن جانبى فقد سعيت فى نفسى اتجاه الدكتور هيكل لأهيئ جوا مع الوزير أستطيع فيه عرض القضية .

كنت قد تعرفت على أحد أعضاء مجلس الشعب فى مدينة **الأقصر** ، وحدثته فى أمرى مع

الوزير ، وبعد أن تسلمت خطاب الدكتور هيكل ذهبت إلى عضو مجلس الشعب حيث يقيم **بالقاهرة** ، وطلبت منه التواجد فى مكتب الوزير أثناء لقائى به ، وأن يدخل إليه بعد دخولى بقليل ، وأن يتحدث معه فى الموضوع .

وذهبت إلى الوزير .. ألقيت السلام فلم يرد ، وصاح أنا مشغول ، أمامك خمس دقائق قل فيها ما تريد : فقدمت إليه خطاب الدكتور هيكل عسى أن يهدأ به ، ولكنه أطاح بالخطاب بعيداً ، وانشغل الوزير بالتليفون ، وتحدث بلطف ورقة مع من طلبه .. وخلال هذا الحديث دخل عضو المجلس فهب الوزير واقفا ورحب به بالأحضان .

وانتهزت فرصة لحظات صمت بينهما فقلت إننى هنا لأعرض مشكلة شركة سيجال ، وكأنها كانت كلمة السر مع عضو المجلس فصاح غاضباً .. هذه الشركة صداع فى رأسنا نحن أعضاء المجموعة البرلمانية للصعيد ، وهم يريدون تقديم استجواب بشأنها بعد ما سمعوه وقرأوه عنها وشاهدوه فى دوائرهم .

ووجهت كلامى للنائب : أنا فلان مدير عام الفروع ، ومعى مستندات إذا كانت صحيحة ودامغة أخذ فيها قراره ، وإن كانت غير صحيحة قدمت استقالتى .

وأصر النائب أن تحول المستندات للتحقيق .. وقد كان .

وتابعت التحقيق .. حتى إذا علمت أن نتيجته ستعرض على الوزير ذهبت إلى عضو مجلس الشعب فصحبنى إلى الوزارة ، وإلى الشئون القانونية ومع عرض التحقيق على الوزير كنا هناك .

سأل الوزير : ملذا وجدتم فى التحقيق .

أجاب المحقق : المستندات صحيحة والمفوض مدان بوضوح .

صرخ النائب : وماذا تنتظرون ؟ .. إننى أؤجل اجتماع المجموعة البرلمانية إلى أن ينتهى التحقيق .

رد رئيس الشئون القانونية : نحن لا نستطيع أن نحقق مع المفوض إلا إذا أحيل بقرار من سيادة الوزير .. ويكون التحقيق عندئذ بمعرفة النيابة الإدارية . والأمر معروض عليه .

وأنتهت المناقشة بأن أحال الوزير الأوراق والمفوض للنيابة الإدارية .

(١١) الحصانة تحمى الانحراف

هذه الشركة نموذج يستحق الدراسة ، من قبل كانت الحصانة لأهل الثقة سبيلاً لارتكاب الخطايا بلا مساءلة ، ولإهدار الانجازات ، وتحميل تبعتها للأبرياء من العاملين ، وكان هذا النوع من الحماية لأهل الثقة النموذج الأمثل ، حيث اتسع مفهوم الثقة باتساع جهات التبعية التى تبعث مسئولين إلى مواقع المسئولية ، كل مؤهلاتهم هى التبعية ، وكما كانت حصانة الثقة حماية للانحراف ، أصبحت حصانة التبعية كذلك . ثم تطورت الحماية إلى شكل قانونى يمنع محاكمة أى مسئول من مستوى رؤساء مجالس الإدارات إلا بناء على طلب من الوزير الذى يتبعه ، وطالما العلاقة بين الوزير ورؤساء الشركات " سمنا على عسل " فإنه لا داعى للمحاسبة على الأخطاء أو الانحرافات التى ربما تصبح فى حد ذاتها توثيقا للعلاقة ، أو مشاركة فى ثمرات الانحراف .

وهذا التوصيف للحصانة هو الذى دعانى للإصرار على مقابلة الوزير الذى لم يشأ أن يفك الروابط مع المفوض رغم وضوح أخطائه ، وهو أيضاً كان الداعى للتحايل ، ووضع الوزير فى ركن يتحتم عليه أن يوقع بقلمه على تحويل المفوض للتحقيق .

ولم يكن التحقيق مع المفوض فى النيابة الإدارية خاتمة المطاف ، فقد كان من الضرورى المتابعة، بتقديم المستندات ، وتوضيح مدى الخسائر وفداحتها ، حتى لا يتم تدخل من أية جهة لحفظ التحقيق ، وكان من الضرورى أن نصر على تحويل التحقيق إلى المحاكمة الإدارية أو الجنائية ، لم يكن الإصرار على محاكمة المفوض شكلاً من أشكال الانتقام ، أو المحاسبة على التحقيقات والمحاكمات التى حولنا إليها، بل كان وضعا للأمور فى نصابها ، وإدانة للحصانة أيا كان نوعها .

وحين بدأ المفوض يدلى بأقواله فى النيابة الإدارية كان عليه أن يمتنع عن الحصول على حوافزه تطبيقاً لقرار أصدره وعاملنا بمقتضاه أولا وهو " وقف الحوافز لمن يحولون للنيابة أو للمحاكمة " ولكنه تغافل عن قراره الذى طبقه علينا ، فتقدمت بشكوى للنيابة الإدارية مرفقا بها صورة الكشوف التى وقع عليها باستلام الحوافز بعد تحويله للنيابة ، وفعلا صدر قرار النيابة بتطبيق قراره عليه ، واسترداد ما تقاضاه بالمخالفة لهذا القرار .

(١٢) القضايا بداية ونهاية

فى وقت واحد كانت هناك قضايا ينتهى أمرها ، بأحكام البراءة أو بعدم الإدانة بينما قضايا أخرى تبدأ مسيرتها خاصة بالمفوض وأسلوب عمله .

النوع الأول من القضايا كانت تهديداً ووعيداً ، وفرضا للصمت على محاولة كشف الانحراف ، قضايا لا يقصد منها الوصول إلى الحقيقة ، بل يراد بها تكميم الأفواه ، وشغل المعارضين عن هدفهم .

منذ ابريل ١٩٨٤ وفبراير ١٩٨٦ والشركة منهكة بالقضايا والقضايا المضادة في يوم من فبراير هذا جاء في الصباح قرار حرمان المفوض من الحوافز ، ثم كانت آخر اليوم أو منتصفه " هوجة " الأمن المركزي يوم هاج جنود يحرسون الفنادق والمآدب وهم جياع ، وعاثوا فساداً في كل ما يرونه ويلقونه ، وفي المساء فرض حظر التجول على القاهرة .. وشكلت لجنة لتسيير أمور التموين التي لا تحتمل التأجيل .

كان المفوض عضوا بهذه اللجنة .. وحين اجتمعت لم يحضر .. وحين سأل عنه الوزير قيل له .. لقد مات .

وما هي إلا أيام حتى ترك الوزير الوزارة .. وحل محله آخر وأحيل رئيس الهيئة إلى التقاعد ، وحل محله وكيل وزارة ، وكان أول أعماله حين جاء الهيئة أن استصدر قراراً بنقلي إلى شركة الكيماويات .

كنت أعتبر قرارالوزير الجديد بنقلي إلى شركة الكيماويات نوعا من الإبعاد عن هؤلاء الذين عرفتهم وعرفوني خلال مراحل العمل في شركة سيجال . وأظن أن الوزير أراد بهذا النفي أن يطفئ وهج المعارضة للفساد والتخريب ، ولذلك بحثت عن مجال آخر ينقل المواجهة إلى ميدان أوسع ، وكان هذا الميدان هو إنشاء اللجنة القومية للدفاع عن القطاع العام .. وقد كان اسلوب التعامل مع اقتراحي مثيرا للإحباط ، وقد انصرفت عن هذا الإقتراح حزيناً .

ثم تفرغت للتجربة الجديدة في "شركة الكيماويات" . إنها شركة المفوض الأصلية ، ومع رئاسته لها كان مفوضا على سيجال .

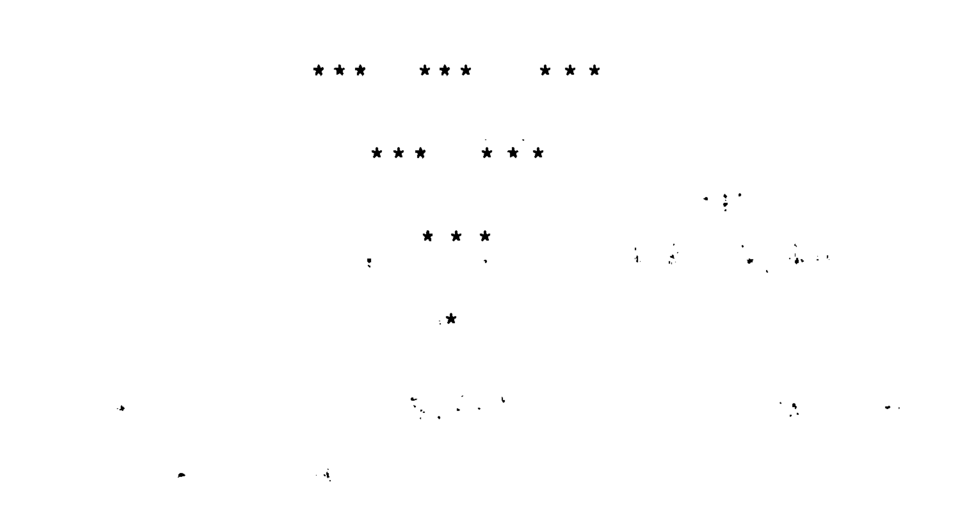
ولم يكن غريباً أن أرى هذه الشركة والفساد يسري بها كالسرطان وكان على رأس القضايا المثارة قضية الفروع التي اشتراها رئيس المجلس السابق من شركة بيع المصنوعات بسبب العمالة التي اضيفت إليها وتمثل عبئاً كبيراً ، وبسبب عدم صلاحية الفروع للعمل .

وكان هناك أيضاً الخلط بين شركتي سيجال والكيماويات في مجال العمل ونوعيات

النشاط مما أدى إلى تشغيل الفروع للحساب الخاص ، وتفشى السرقات والعمولات ، والفساد فى عمليات بيع الفروع وشرائها .

وقد حولت بعض المخالفات إلى النيابة ، واتهم ثلاثة من كبار العاملين بالشركة وقياداتها ، ومعهم أحد المتعاملين فى القطاع الخاص .

وبالطبع فقد كانت محاولة العمل مع مثل هذه النوعيات من القيادات تكاد تكون مستحيلة ، وفى ذات الوقت كنت على مشارف الإحالة إلى التقاعد ، ورغم ذلك فقد حاولت هذه القيادات معى ممارسة أسلوب المفوض وضغوطه ، وكانت تهدف من وراء ذلك ألا أصبح طرفا فى مواجهة أحوال الشركة المتدهورة ، ولكن هذه الإدارة ابتكرت أسلوبا جديداً لم يستخدمه المفوض ، وهو الإحالة إلى الرقابة الإدارية بعد ثبوت فشل القضايا والتحقيقات .



الفصل الأخير

الصداقة : البلسم النبيل لآلام الحصار

حين تظلم الدنيا ، وتتوالى المصائب ، وتصبح الطرق أضيق من سم الخياط ، يتذكر الإنسان أهله وأصدقاءه ، فينسى ، ويتحمل ، وينهض فى المواجهة صابرا على الشدائد ، ومواصلة السير نحو أهدافه .. تلك الآمال التى بسببها يعانى ، ومن أجلها يضحى .

الصداقة نوع من الحب ، بدونها يصاب الإنسان بالعجز ، وهو نوع من الموت ، ليست الصداقة مجرد ألفة ، أو مشاعر شخصية عابره ، أو حالة راحة نفسية ، إنها روح إنسانية فياضة ، وقوة كامنة ، حصانة ضد الهزيمة والتحلل والإستسلام . لتصبح مثالا متطورا ينتصر لجوهر الإنسان ، ويرتقى بالحياة إلى نموذج أعلى تربطه القيم ، فترفع العلاقة بين الناس إلى مستوى المبادئ .

عرفت معنى الصداقة حين كنت صغيراً فى القرية ، وأدركت اشعاعها وإلهامها حين رأيتها أقوى من علاقة القرابة ، وأن الأقرباء أحياناً ما يكونون مصدر بؤس وتعاسة ، بينما الصداقة تكون دائماً هذا التضامن النبيل الذى لا أنانية فيه .

وعلى بساطة أشكال الصداقة فى مقتبل العمر ، فقد رأيت على قدر ما يستطيع الصبى أن يرى ، ووعيت بإمكان أن يعى ، أن الصداقة تضامن حر نبيل ، لا يبغى جزاء ولا شكورا ، وما زلت أذكر .. كم من ضائقة لأحد الأصدقاء تكاتفنا معا لمواجهتها ، وكم سعينا فى جنح الظلام ، لا نخاف الليل ، فى سبيل شد أزر صديق في ضائقة ، حينئذ تكون الصداقة عطاء مبدعا .

ما زلت أذكر من الصداقة فى القرية أخى **أحمد شقيقى الأكبر** ، سمونا بالأخوة إلى مستوى الصداقة ، فلم يكن يحزنه أنى أتعلم دونه ، وألبس خيراً من مما يلبس ، وأنفق أكثر مما ينفق ، وأعمل أقل مما يعمل ، ومع ذلك كان يرعانى ، ويأخذ بيدى ، ويحمينى إذ أنا بحاجة إلى الصديق ، وحين سافرت إلى دمياط فى الحادية عشر من العمر ، ودعنى بكل الحب ، وأعطانى الثقة ، وحين أعود يستقبلنى معتزاً فخوراً .

به تعلمت ألا يكون وجودى فى القرية فراغاً خاوياً ، ولا لهوا سانجا ، بل كنت أشاركه العمل حبا وإنصافاً ، أستيقظ مبكراً ، كما لا أزال حتى اليوم ، وأذهب معه إلى الحقل ، أعمل تحت إمرته ، حتى إذا كبرت ، واشتد ساعدى كنت أنافسه فيما يستطيع من أعمال ، كنت أرى كيف يعتمد عليه أبونا وأعمامنا فى العمل بالحقل ، إلى درجة ما كنت أحسبه ظلما وقسوة ، ولكن صداقتى لأخى كانت ترتفع

إلى ما يسمو على الشفقة ، ذلك اقتسام عادل فيما بيننا ، وهو صدق الإحساس يجعل هذا الذى بيننا أعلى من الأخوة .

ولكنه كان دائما يجد ما يفعله ولا أستطيع مجاراته ، ، فقد كان يختلس أوقاتا يذهب فيها إلى تفتيش سرسق ، ليؤدى بعض الأعمال التى عرف ببراعته فيها مثل شق قنوات الرى المستقيمة ، التى لا عوج فيها ، وحين يعود بالأجر الذى تقاضاه يعطينى بلا من أو أذى . وأحاول مكافأته بأن أقوم بالعمل بدل أبى عوضا عن أخى حتى لا يعمل أيهما وأنا جالس ، بخاصة هذا العمل فى أسفل النقرة ، الذى يراه الناس من أعلى ، إنه تحميل السبخ على الحمير حتى تذهب به إلى الحقل ، كنت فى هذا العمل أسرع ، فخوراً بأنى أجعل أبى يجلس فى الأعلى .

وأصبح أصدقاء أخى أصدقاء لى ، **الشبراوى أبو العطا** ، **ابراهيم الإمام وأحمد وابراهيم أبو دياب** ، **وأبو السعد الجزار** ، **ومحمد العدل** ، **وأبو حماد** ، **وعبد السميع أبو النجا** .. كان أخى **أحمد** يستقبلنى وهم معه حين أحضر من القاهرة كأنى حاج يأتى من الحجاز ، وحين العودة كانوا يودعوننى .

وحين بدأت اهتماماتى السياسية ، كانوا بين أهل القرية الساعد والسند . ولما جاء البوليس للقبض على فى القرية واجهت البوليس وأنا أعلم أن هؤلاء من ورائى ، حتى إذا أخذت حقيبة المنشورات وقفزت بها على الأسطح وذهبت إلى المزارع جاءوا إلى يستكشفون الطريق ، ويمدوننى بالنقود التى تساعدنى على مواجهة الحياة إذ أنا هارب .

وحين اعتقلت كان أخى نعم العون لأبى وللأسرة ، ونعم المدافع عنى إذا ذكرت بين الناس بسوء ، لقد رعى أسفار أبى من ورائى فى الهرب وفى السجون ، وحين نقلت من **الواحات** إلى **مستشفى أسيوط** جاءنى أخى على بعد المسافة ، ورغم عدم المعرفة **ببلاد الصعيد** ، ولكنه جاء ، وحاول رؤيتى ولم يستطع ، وعاد إلى الأهل يطمئنهم أنى بخير وفى أحسن حال .

وبفضله كنت أعمل فى مزرعة الواحات ، أقود المحراث والقصابية ، وأسوى الأرض ، وأعرف أسرار الزراعة ، وأصول الرى ، خيرا ما يعرف قريبى **الأستاذ ابراهيم الشناوى خريج الزراعة**، والذى كان معى يعمل فى المزرعة .

بأخى أحمد كانت صلتى بالقرية راسخة ومتينة ، فيها تعلمت السياسة والآن أقول وتعلمت فيها الصداقة ، منزهة عن الغرض الشخصى ، وعن أنانية الفرد ، وفيها تعلمت أن العمل العام ينبع من التآلف الروحى .

من القصر إلى الشعب

إبراهيم الشهاوى فى القلب

نحن أبناء الجيل القديم ، أبناء العقد الثالث من هذا القرن يحق لنا أن نفخر بأن من بيننا كان الأستاذ إبراهيم الشهاوى .. حفيد ابراهيم بك ، وابن أخ محمد بك ، وابن أخت عبد الجليل باشا أبو سمره بدأ وهو فى المرحلة الثانوية يخترق أسوار القصر إلى العامة .. إلى أبناء عم أبيه أولاً الذين أصبحوا أبناء القرية قبل أن يكونوا أبناء الأسرة ، ثم إلى كل أبناء القرية ، سهر فى بيوتهم ودافع عن مظلوميهم حتى ولو كان الظالم أباه .

أنكر أن فتنة كبرى كادت تحدث فى القرية حين أراد العمدة أن تذهب الحمير المحملة بالطمى إلى حديقة قصره بدلا من الذهاب إلى حظائر الفلاحين . واستقر الأمر أن يذهب من كل أسرة حمل حمار ، ولكن أحد الخفراء أراد لا ندرى – أيجامل العمدة ، أم يظهر السطوة على أهل صاحب حمار معين ، فطلب منه الذهاب بالطمى إلى حديقة القصر اكثر من مرة .

مسألة تافهة كان يمكن أن تمر ، ولكن تطورت الأحداث بين أسرتين وكادت تحدث مذبحة ، وضرب الخفير بيد محمد ابراهيم زيدان فى مبارزة ثنائية ، وأصيب فى ساقه ، وسقط فى كوم سبخ ، فأصابة الغرغرينا . ومات بسببها.

وجمع العمدة من شاء من أهل زيدان وأبو النجا ، ووجه إليهم الاتهام ، ولكن ابراهيم تصدى لأبيه ضد الاتهام الجماعى والعشوائى وضد استخدام أهل القرية للتعبير عن رغبات العمدة .

ووكل لهم فتحى رضوان محامياً وسار مع القضية يوما بيوم حتى خسر العمدة كل ما كان يرجوه

هذا كان ابراهيم الشهاوى ، ما أن تحدث الخلافات بين بنى القرية والقصر حتى يكون مع الناس خارج أسوار أهله .

وكان فى المنصورة المدافع عن حرية الرأى والاعتقاد ، آوى عبد الله الزغبى حين هرب من الاعتقال ، وكان مع وكيل النيابة ناهيد أبو زهرة يمثلان ثنائى الحرية والالتزام بحق المواطن فى الاختيار ، قبض على موسى جندى وهو ما يزال صغيراً فى المدرسة الثانوية ، فذهب معه ابراهيم وحقق معه ناهيد ، وأفرج عن موسى .. وغيره كثيرون .

وأصبح بين المحامين علما .. انتخب أكثر من مرة فى النقابة ، ثم فى اتحاد المحامين العرب، ثم أمينا لصندوقه .

وعمل مع أكبر المحامين فى أشهر القضايا ، مع **حمادة الناحل** ، **وعبد اللطيف الناحل** ، **ورمزى الشوربجى** وغيرهم ، وكان مدافعاً قوياً فى قضية مراكز القوى عن أكثر المتهمين أصحاب المواقف الحساسة ولكنه لم يكن أبداً باحثاً عن " **الأتعاب** " ، ولم يكن أبداً باحثاً عن النفوذ رغم علاقاته الكثيرة بذوى النفوذ .

مات وليس فى جيبه ما يطمئن به على غد أبنائه الثلاثة ، وزوجته لا رصيد فى البنك .. ولا ميراث بعد أن استولت الأسرة على حقه فى الميراث دون أن يدرى .. لم يكن عنده ما يعطيه لأبنائه سوى " **معاش النقابة** ".

الصداقة : الإنسان حيث يضع نفسه

حين يصيب الطبيعة خلل ، فإنها تحاول إصلاح نفسها ذاتياً ، وتعالج الخلل البيئى الذى يحيق بها ، كذلك المجتمع ، حين يختل توازنه وبيئته الإنسانية يحاول إصلاح ذاته ، فيفرز السلبية كنوع من الحصار على السادة ، وكرد للجميل الذى أسبغوه على ضحايا الديموقراطية !!!

حتى أعداء الديموقراطية يزعمون أنهم ديموقراطيون ، ولكن لا توجد سوى ديموقراطية واحدة .. ليست هى ديموقراطية السادات ذات الأنياب . وليست هى ديموقراطية " **نواب الكيف** " أو " **نواب البنوك والقروض** " . أو " **نواب النبابيت والمسدسات** " أو " **نواب العمولات** " .

الديموقراطية ثقافة ووعى ، وهى ليست حلا لمشاكل المجتمع ، ولكنها إطار لهذا الحل ، تعطى البيئة الإنسانية التوازن الذى تبحث به عن مستقبلها ، والديموقراطية ليست أملا سحرياً ، إنها حق المجتمع ، يصون به نفسه من الانهيار. وقد طال غيابها بممارسة الحبس والقتل والتجويع فى المعتقلات ثم بعد الإفراج بالعزل السياسى والوظيفى والحصار والتجويع فى المعتقلات وضرب اليسار باليسار، وأدى طول غياب الديموقراطية إلى إهدار الإنجازات . وخلق هوه سحيقة بين مكونات المجتمع الإنسانية ، حين يزداد الأغنياء غنى وعتواً واستكباراً والفقراء فقراً ومهانة وسلبية وجهل ومرضاً .

ولم تعد خلال البيئة المدمرة بالجنازير ، وبالفكر الأعمى الذى لا يعرف النقاش وسيلة لمواصلة الحياة سوى الاحتماء بالصداقة ، حين تصبح السلبية واللامبالاة هى لغة التخاطب ، وشكل الحوار الصامت ، وأسلوب الاحتجاج على نفى الآخر . انها ترد بنفس لغة وأسلوب الحصار : إذا أنتم أنكرتم فكرا ، وعزلتم طبقة، وتعاملتم بغير المساواة ، فنقوم بعزلكم ، ونذيقكم من نفس الكأس التى تذيقونها للآخرين ، سنتجاهلكم ، وسوف يشيح المجتمع عنكم بوجهه ، ويعطيكم ظهره .. ويصبح السبيل أمامكم لإثبات الذات ، والوجود الاجتماعى ، هو العصا والخنجر ، والبلطجية ، وسيصبح طريقكم للثروة .

النهب ، والسلب وغيرهما من الوسائل غير المشروعة ، بما ينعكس على مشروعيتكم .

السلبية واللامبالاة ، رد عام على ظلم وجور عام ، شكل من أشكال المقاومة . أما الفرد ، سواء في عائلة ، أو واحدا من أبناء قرية أو حي ، أو باحثاً عن انتماء في حزب أو هيئة كإطار للمواجهة ، فإنه ... هذا الفرد يصبح إرهاصاً ومقدمة لميلاد المشروع المفتقد : العدالة الاجتماعية والديموقراطية ، مع كامل الرضا بنتائج الاختيار حتى لو كان السجن أو الحصار .

وتصبح الصداقة مانعة صواعق ، البديل عن التفكك والتشرذم والانهيار الكامل والنهائي ، إنها جنين التماسك الاجتماعي إذا ما كانت في إطار رفض الحصار .

بعد الإفراج بحث الذين احتفظوا بقيم المقاومة عن التآزر من خلل الصداقة، يجدون فيها خير ما يرجونه لذاتهم ، كما يجب الإنسان أن يرى نفسه ، وكما يرغب أن يراه الآخرون .

كانت الصداقة في القرية عوناً وسنداً وسداً منيعاً ضد الانسحاب والتقهقر ، وفي المدينة حين يكون الصديق **زكي عثمان** نموذج التحمل والإخلاص فإنه يجعل لريح الاسكندرية شذى وعطرا يفوح بالأمل والتفاؤل والثقة في الغد . **الاسكندرية بزكي عثمان ، ومحسن الأعصر ، والدكتور مأمون البسيوني ، وحسن المناويشي ، وفاروق طوبار ، وفاروق بلبول ، وزكريا بسيوني** . وغيرهم كثير والقاهرة : حين تدخل مع وليم اسحق في دائرة فريدة مع اصدقائك وأصدقائه ، تصبح الحياة نفسها نوعا من الشفافية ، وصفاء الروح ، والرشاقة الفنية والفكرية . كنا نزوره ، فنلتقي بأصدقائنا عنده ، وفي كل مرة يكون عنده أصدقاء له جدد ، نذهب ونعود لنتأمل الدائرة تتسع ، ونتأكد أن الصداقة حماية من العزلة ، ودواء لآلام وأوجاع الحصار . كل شئ معروض للمناقشة والرأى والرأى الآخر ، والنقد والتنفيد في السياسة ، والفن ، والاقتصاد ، والتاريخ ، الماضي والمستقبل ، ومتابعة الكتابات بأنواعها التي تنشر .

كان وليم إسحق نموذجا للهروب من الحصار ، ذهب إلى أخبار اليوم ، وسريعا ما غادر إلى هيئة المعارض الدولية ، ثم غادر إلى منزلة " **وقهوة البستان** " ، وفي تلك المواقع الثلاث كان لا يغادر موقعا إلا ومعه مكاسبه ، علاقات جديدة وصداقات ، وبالطبع فقد كانت علاقاته في هيئة المعرض أكبر وأوسع وأرسخ ، ولكن دائرته الحقيقية كانت بين المقهى والبيت ، ثم في بيته الذي شيده بالفيوم ليكون ملتقى هادئا ، وملاذا من ضجيج القاهرة ولكن القدر عاجله فلم يستمتع به .

دائرة وليم النموذجية كان يلوذ بها كثيرون ممن قرروا الاحتفاظ بضميرهم ، وأرادوا البحث عن مجال يتنافسون فيه ويتنفسون ، **مجدي شاهين ، ونجيب سدراك وعبده مكاوي**

ومصطفى حامد ، وعبد العزيز خاطر وفرنسيس كيرولس . هم أنفسهم كانوا **دائرة وليم** في المعتقل ، مع آخرين كثيرين يمكن اعتبارهم عاملاً مشتركاً بين دائرة وليم وغيرها من الدوائر ، أما علاقات وليم الخاصة فكانت في المقهى ، وفي الاتيليه ، **الأستاذ ابراهيم فتحي ، وجون زكي ، وشوقي فهيم ، ونجيب شهاب الدين ، وعمر فاروق ، وعمر الفيومي** ، ثم دائرة تضم **والأستاذه الدكتوره نيللى حنا ، والسيدة رجاء خليل ، والأستاذه ماجده قاسم** .

رءوف نظمي : نمط آخر لاختراق الحصار ، أرهقنا حين نتابعه ابتعادا وقربا . بدأ الرحلة بعد الإفراج حين ذهب إلى **دمياط** في مستشفى حكومي ، ثم طبيباً في إحدى شركات البترول ، ولكنه رأى أن ذلك السبيل سيؤدي إلى التوائم والتصالح مع مقتضيات الحصار ، فغادر إلى سينا مع أطباء النقابة يبحثون عن الجرحى المصريين بعد **انسحاب الجيش في ٦٧** ، ثم إلى **الجزائر** ليعالج **الفدائيين الفلسطينيين** ، ثم إلى **لبنان فالأردن** حيث عاش مع **الفلسطينيين** أيام أيلول الأسود ومذابحه ثم إلى **جبال لبنان** مشاركا في أعمال المقاومة من أعلى نقطة ثم إلى **تل الزعتر** وأخيراً مواجهة **الغزو الإسرائيلي** في **لبنان** ثم حصار **بيروت** ، فالعودة إلى **القاهرة** ، في سطور قليلة ننظر إلى رجل لا يرى ذاهبا حتى يعود ، ولا عائدا حتى يذهب .

مارسنا مع **الدكتور نظمي** أن يكون هو بيننا الرأي الآخر ، وكانت تجربة غنية، لم يضق بنا ، ولم نضق به ، وأصبحنا بهذه التجربة نحمل اعزازا للرأي الاخر على مقدار إيماننا برأينا الخاص ، وأصبح في حوزتنا تجربة ثرية في النضال مع **المقاومة الفلسطينية** . رغم الاتفاق أو الختلاف مع بعض التفاصيل ، ولكن المدهش حقا ، هو هذا الاختيار الذي قيل عنه مرة إنه نوع من الانتحار ، ولكني قلت : إنه عقلنا الباطن ، اختار ما يضطرب به وجداننا ، وما تنوء به أحلامنا .

أما اسماعيل عبد الحكم ، فمنذ حملته الطائرة من الواحات مريضا إلى **القصر العيني** ونحن في شوق إليه حتى ونحن نراه ، نموذج الكفاح الواثق ، المضيء بالبسمة الساحرة الساخرة ، الهادئة الهادرة ، طول الاعتقال ، وخلال الترحال من سجن إلى سجن ، ومواجهته لأنواع الإدارات الغاشمة في **سجن قنا ومعه غنيم مصطفى غنيم والدكتور ابراهيم حسن** ، وفي الواحات حين أصابه المرض بسبب سوء المعاملة ، والتشغيل غير الإنساني .. وبعد الخروج بالإفراج حمل معه ما يتميز به .. الصبر ، والبسمة ، والثقة ، والتجوال في عالم الفكر ، والدائرة الواسعة من المشتغلين بالفكر والثقافة والرأي .

وفي دائرتنا يكون **الأستاذ كمال السيد** نموذج الدماثة والخلق الرفيع ، والطبع النبيل ، والصداقة في أسمى صورها ، وصدق الضمير كما يجب أن يكون الإنسان. إنه لا يتحدث عن معاناته

فى معسكر التعذيب بأوردى ليمان أبى زعبل ، ولا عن انجازاته السياسية فى المنيا والقاهرة، ولا عن مواجهاته فى ظروف الحصار ، بل انكب على عمله ، ساعياً دائماً لصون ضميره وحمايته متخذاً طريق التفانى فى العمل والصداقة ، وسيلة لتجاوز الحصار ، وأصبح نجاحه فى العمل لا يوازيه إلا تشربه لمعنى الصداقة ، التى تفتقد عند الشدائد ، وتكون ملاذا للأصدقاء ، يعرف كمال السيد كيف يؤدى دورها ، ويكون دائماً عند حسن الظن .

أما الدكتور شكرى عاذر ، الطبيب الإنسان ، صديق سجن مصر والواحات ومصور حالات التعذيب بالنفح ، وحامل لواء الشفافية فى العمل السياسى ، والقائم دائماً بدور صيانة المبادئ ، والبعد بها عن آفات الانحراف والأنانية ، وداعم التوجه المصرى وصيانته ، فقد كان ضمن إطار الصداقة حامل حقيبة العلاج ملبياً كل نداء، مسعفا كل محتاج من الأصدقاء ، بل ومن غيرهم ، كان مع الدكتور مختار السيد كتيبة عمل طبية ، موثوقة الرأى ، مدعومة بالخبرة والعلم والإحساس الإنسانى ، والأصدقاء دائماً يثقون بعلمهم وعقلهم ، وصدقهم ، ومهارتهم ، كان الدكتور شكرى والدكتور مختار جمعية علاج وإنقاذ ، يردون للإنسان ثقته فى الآخرين ، وهذا عمل لا ينسى ضد الحصار ، ودليل على أن الرأى الصادق المخلص ينتج الموقف الصادق المخلص .

ولقد كانت الصداقة بدوائرها المتعددة إطاراً للحوار ، وقد احتمينا بالحوار من الصدأ الفكرى ، والجمود ، والتشدق بمفردات من المعاجم الثورية .

وساعدنا الاحتكاك بالواقع ، والانفتاح على أحداث العالم والتطور الفكرى من حول هذه الأحداث ، وبدأنا نعيد تقييم تاريخنا ، ونتطلع إلى مستقبل جديد . وأصبح فهمنا للعدالة الاجتماعية والديموقرطية يقوم على أساس اعتبارهما عاملين مركزيين فى أى تحرك فكرى أو جماهيرى . ويعطينا أساس الحكم على أى حدث أو حديث.

من قبل كان الاتهام يوجه للمثقفين الثوريين بأنهم جامدون ، يتحدثون بلغة غير مفهومة ، ولكن الأمر اختلف الآن ، فكما كنت الصداقة أداة احتماء من الحصار نجدها تحولت إلى معول هدم فى أسواره ، وما قمنا من إحياء لذكرى الشهداء والذاهبين من بيننا ، وما قمنا به من إعادة عرض للتاريخ الذى يراد له أن يندثر مثل تاريخ "اللجنة الوطنية للطلبة والعمال عام ١٩٤٦" واجتماع كل من بقى حيا من المشركين فيه فى ندوة تعطى الثمار ، وتفتح آفاق الماضى للدراسة والعبرة ، وإحياء مفهوم مصرى ثورى أصيل بعيدا عن التأثير الأجنبى المشبوه ... كل هذا تم فى إطار الحصار واختراقا لجدرانه .

وفى المقابل كان قادة والحصار وأساطينه يتشدقون ، ويهرفون بما لا يعرفونه

كان **الرئيس السادات** مولعا بالكلمات الكبيرة ، يملأ بها فمه ، من نوع أن **حرب أكتوبر** هى آخر الحروب ، ومن نوع أن الأمبريالية كتعبير اقتصادى وسياسى ، ما هى إلا فرقعات خاوية ، وتشدقات مثقفين .

وقد عاجلته الأحداث بالرد المفحم ، فقد ترافقت كلماته هذه مع ضرب **إسرائيل** للمفاعل **الذرى العراقى** ، ومع **غزو لبنان** ، ومع انتهاك **حقوق الفلسطينين** ، ومع ازدياد وتعالى صوت الادعاء بحقوق إسرائيلية فى **الأرض العربية والفلسطينية** .. الحرب لم تنته ، بل ازدادت عنفا بأساليب جديدة ، كما انقلب الحصار علينا إلى حصار مضاد يجعل كاهلهم ينوء بالسلبية والامبالاة ، ويفرز البلطجة والسرقة والنهب سبيلا للصعود السياسى والاقتصادى ، فقد أدى التخلى عن مسلمات سياسية ، وادعاء المعرفة بأصول جديدة للتعامل مع الأعداء إلى إعطاء التدخل الاستعمارى فى المنطقة شرعية عربية ، وأصبح تدمير العراق سبيلا لتدمير اقتصاديات البترول ونهب أموال دول الخليج ، وترسيخاً للعجز فى مواجهة الامبريالية الجديدة وإحياء المشاريع الاستعمارية فى المنطقة ، كمحاولة **أمريكا** التدخل فى إفريقيا وتخريبها ، واتخاذهابعد التخريب موقع استراتيجية لحصار **العرب** اقتصاديا وعسكريا واقتصاديا .

لقد أدى اعتماد سياسة الحصار إلى معاناة الأنظمة ذاتها من حصار ذى شعب ، وتأكد لكل ذى عينين أن الديموقراطية ، والعدالة الاجتماعية هى الأمل ، والخلاص ، وهما أداة التقدم المنشود . الديموقراطية تعطى الفرصة للرأى الآخر ، والعدالة الاجتماعية تعطى التوزان للبيئة الإنسانية .

*** *** ***

*** ***

***

*

محتويات الكتاب

*** *** ***

***

رقم الإيداع

١٦٧٩٨ / ٩٨

الترقيم الدولى .I.S.B.N

977-19-7674-5

